ل٢ تركيب سيما ٣١-٥-٢٠١٩ سوريا ترقيم عربي

القرآن الكريم

سورة الأنفال

التحليل الروائي

تأليف

عبد الباقي يوسف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ
أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ
كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ
لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ

مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ
رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ
فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ
فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا
وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ
ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا
لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً
وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا
فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم
مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ
وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ
خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ
أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ
ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ
وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ
وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ
ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ
إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ
يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ

بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً
أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ
شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي
كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ
وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ
يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ
لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ
ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ
أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ
صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا
يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ
مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا
طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ

خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ
ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ
بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ
كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ١ - ٧٥].

مقدمة

سورة غنيّة بمعانيها ودلالاتها، وهي موجّهة إلى المسلمين في كل زمان ومكان، كونها تؤسّس لِقِيَمٍ إنسانيّة في كينونة شخصيّة الإنسان المسلم، وتُعلّمه كيف يكون مسلماً حقيقياً.

لذلك، نرى بأنها سورة انتقاديّة، تنتقد التصرّفات السلبيّة التي تصدر عن المسلمين، وتوجّههم التوجه السليم الذي يسلموا به، ويضلوا من دونه.

في البدء، تنزع السورةُ مشاعرَ المَيل إلى المالِ من نفوس المسلمين، وتجعلهم يميلون إلى العطاء، أكثر من الأخذ، إلى الحب، بدلاً عن البغض، إلى التآلف، بدلاً عن التشرذم.

وتبيّن السورةُ أن المال إذا دخل قلب الإنسان، أفسده، وجَعَله يُرجّح كفّة النَّفع الشَّخصي على النَفع العام، وبذلك - ومع استفحال هذا المَيل لديه - يُجيز لنفسه تجاوز بعض القِيَم والمبادئ الإنسانيّة بتدرّج، حتّى يُصبح هذا التجاوز أمراً طبيعيّاً في منهج حياته، لأنه يكون قد وقفَ على تاريخٍ تراكميٍ من التجاوزات.

إذن، تُبيّن السورة الكريمة بالبراهين والدلالات، كيفَ أن حبَّ المالِ يمكن له أن يعمي الإنسان بَصَراً، وبَصيرةً حتى يُصبح انتهازيّاً بامتياز، ويستعدّ للتنازل عن كل شيء، بِما في ذلك عائلته، وقِيَمه، من أجل تحقيق اكتناز المال فحسب، فيكون كالمُدمِن الذي يفقد السَّيطرة على نفسه، ويفعل أي شيء من أجل التواصل مع إدمانه. فمدمن اكتناز المال كذلك، يكون على هذا النحو، فهو يفقد السَيطرةَ بزمامه إذا أعاقه أمرٌ ما عن المزيد من الاكتناز، حتى لو كانت إعاقة صحيّة، فهو لا يلتفت إلى صحّته بقدر ما يشغله كيف أن الاستزادة في المال قد توقّفَت، ولذلك لا يتوانى من إدارة بعض الصفقات حتى وهو على سرير المرض، ويكون منصوحاً طبيّاً بالاسترخاء، وأخذ إجازة من العمل.

فهذا المَنهَج يُحيله إلى إنسانٍ سلبي بكل المقاييس، فتتضخّم نزعة الأنانية في قلبه، حتى يبدأ يستكثر أن يعطي شيئاً لأحد، بل حتى أن يقول كلمة طيّبة وسارّة لأحد.

فهو كائنٌ محتقن، سوداوي النظرة، مادّي المُعتَقَد، أناني النزعة بامتياز، لكنّه قد يُبدي بعض المظاهر التديّنيّة ليتخفّى بها، وهذه المظاهر تكون من خلال القول الذي يكون نقيض الفعل، وكذلك من خلال الشكل الذي يكون نقيض الجوهر.

فهو كائنٌ صالحٌ مَظهراً، بَيدَ أنه فاسدٌ جَوهراً. وهو كائنٌ ركيك، هَش، جبان، منهزم، مضطرب في داخله، ويبتغي أن يتوارى خلف حقيقته من خلال إظهار النقيض.

ولذلك نرى في زماننا طُغيان المظاهر التديّنيّة، لأن من شأنها أن تحقّق لأصحابها الكثير من المنافع والمصالح، كما أنها تكون واجهة إيجابية للنزعات السلبية الكامنة في أعماقهم.

فالذهاب إلى المسجد، يكون ليراه بعضُ الناس، وعندما يعلم بأن هؤلاء الناس غابوا لمدّة ما، ولن يروه ذاهباً إلى المسجد، أو خارجاً منه، فهو كذلك لا يذهب، فترى البعض يفعل ما بوسعه حتى يراه فلانٌ من الناس في خطبة الجمعة، وعندما يتهيّأ للذهاب إلى المسجد، يتصوّر بأن فلاناً من الناس سيراه، أو أن مجموعة من الناس ستراه، فيُصبح بذلك موضع ثقة بالنسبة لِمَن يرونه، لذلك تراه يُكثر الحديث عن العبادات، فيقول بأنه اليوم صائم، وأنه البارحة أقام الليل، أو يُدخل مواعيد العِبادات في حديثه، مثل أنه سيأتي بعد صلاة الظهر، أو بعد الإفطار، أو بعد صلاة التراويح، ويُردّد العبارات الدينيّة بكثرة.

ولذلك ترى بعض المساجد تغصّ بالمصلّين، فقط لأن فئة من الناس تصلّي فيها، ومساجد تكون شبه خاوية من المصلّين لأن تلك الفئة المقتدرة، أو الوجيهة، لا تصلّي فيها رغم المسافة القريبة بين المَسجدَين.

فهي سورة تهذيبيّة، تهديئيّة، تعليميّة، تربويّة، توجيهيّة، إرشاديّة، تهذّب قارئها، وتنقّيه مِن الداخل، حتى لا يكون انفعالياً تتحكّم به انفعالاته وأهواؤه، وترشده كيف يكون منضبطاً، متّزناً، معتدلاً، متحكّماً بنَزَعاته، ويوظّفها توظيفاً سليماً.

لأن هذا المسلم، يؤسّس نواة مجتمعٍ سوف يتأثّر العالَم بِما يتمتّع به من نقاء، وعذوبة، ومبادئ العَيش المُشترَك، وهذا هو رصيده، وهذه هي قوته العُظمى.

فمن خلال هذه القِيَم السامية، والعَمَل الصالح، والخُلق الحَسَن، سوف يُلفت المسلمون أنظار غير المُسلمين حتى يتأثّروا بهم، ويُصبحوا مِن مريديهم ومؤازريهم، سواء اعتنقوا الإسلام، أم لم يعتنقوه، فهؤلاء يكونون أصفياء، يتمتّعون بصفوة القِيَم الإنسانية النبيلة.

لذلك جاء مفتتح السورة بالسؤال، والجواب على السؤال، سؤال المسلمين عن المال، وجواب الله عليهم. والجواب هنا ينزع من أنفسهم هذا المَيل إلى المالِ، فالعَمَل هو الوسيلة الشرعية الصحيحة لكسب المال، لكن إذا ذهب الإنسان إلى الجهاد في سبيل الله، فعند ذلك، يَسقط أي اعتبار للمال، وعليه ألّا يلتفت إلى المال مادام قد اتّجه إلى الدفاع عن دينه وموطنه وأهله، وإلّا، سيتحوّل الخروج إلى ارتزاق، ويكون الإنسان مُرتَزَقاً وليس مُجاهداً في سبيل الله.

وهنا مسألة غاية في الدقّة والأهميّة، وهي أن الإنسان بالتدرّج، سيتحوّل إلى قاتل محترف نظير كسب المال، وشيئاً فشيئاً، لا يعود يهمّه مَن يقتل، مادام ذلك يحقّق له الكَسب.

ولذلك نرى أناساً يمتهنون ويحترفون القتل، ويُعرَفون بمرتزقة الحروب، فهؤلاء يتلقّون تدريبات صارمة عن القتل والقنص، وما شابه من أساليب القتل، ويُجنّدون أنفسهم كي يكونوا تحتَ الطَّلَب للذهاب إلى أي مكان، لقتل أي أناسٍ يُطلَب منهم قتلهم في المهام التي يُكلّفون بها، نظير مبالغ مالية وامتيازات، كأن يحصل القاتل المُرتَزَق على بيت، وجنسيّة، وراتب شهري، وحوافز، ومكافآت، من الدولة التي تجنّده لهذه العمليّات التي تخطّط لها. كذلك في مسألة الاغتيالات، فترى انتشار

عصابات تُعرَف بمهنيتها ودقّتها الفائقة في تنفيذ الاغتيالات، نظير أموال طائلة تتقاضاها، سواء من الدول، أو من الجماعات، أو الأفراد.

كذلك هناك بعض الحكّام، أو التنظيمات، يشكّلون فرقاً خاصة بالاغتيالات، سواء داخل البلاد، أو خارجها، وتتّبع في ذلك طرقاً وتقنيات مختلفة، سواء بالقنص، أو الاغتيال في مكان ما، أو الخطف والتعذيب، ثم الاغتيال، أو اقتحام البيوت والأماكن وتصفية الشخص، والادّعاء بأنه قد انتحر، وما إلى ذلك. وهذا ما حذّرت منه سورة الأنفال بتفاصيله وحيثياته، ونبّهت إليه بدقةٍ من خلال آياتها، فهي سورة تغرس بذور زهور التهذيب في تربة قلب قارئها، وتسقيها بمياه التربية القرآنية. إنها تمتلك مقدرةً هائلة على تغيير الإنسان من الداخل بقوة، وتسمو به من حالٍ إلى حال، في انعطافةٍ مرحليّةٍ انتقاليّةٍ كبرى، في رَحابة هذه الإشراقات الروحية النفيسة.

لذلك نرى كيف أن هذه السورة تنتقد وتدين تصرّفات المسلمين، وهي ترشدهم، وتبيّن لهم الرشد من الغي.

تبتدئ السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾. يسألك المسلمون يا محمد ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾؟ وهو ليس سؤال للسؤال فحسب، بل للخلاف الذي نَشَبَ بينهم على توزيع الأنفال التي هي زيادة، أي أن المسلم بالأصل لم يدخل الحرب من أجل الأنفال، بل دفاعاً عن النفس، ولذلك فعلى المسلم ألّا يعقد أملاً على الأنفال للكسب، لأن ذلك سيتدرّج به.

فالرزق يتم تحصيله أساساً من خلال العمل، ثم إن المسلم لا يجوز له أن يشنّ الحرب على الآخرين مهما كفروا وأشركوا، بل على المسلم أن يكون حَسَن التعامل مع غير المسلمين، كذلك أن يقوم تجاههم بواجب الجيرة إذا كانوا جيرانه.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الجِيرانُ ثَلاثَةٌ: جَارٌ لهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَدْنَى الجيرانِ حقًّا، وجار له حقّان، وجَارٌ له ثلاثةُ حُقُوقٍ، وَهُوَ أفضلُ الجيرانِ حقا، فأما الذي له حق واحد فجار مُشْرِكٌ لا رَحمَ لَهُ، لَهُ حق الجَوار. وأمّا الّذِي لَهُ حقانِ فَجَارٌ

مُسْلِمٌ، له حق الإسلام وحق الْجِوارِ، وأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلاثةُ حُقُوقٍ، فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ لَهُ حق الجوار وحق الإسلام وحَقُّ الرحِمِ".

وهذا معناه أن يقبل جيرة المشرك، وليس فقط لا يؤذيه، بل يقوم تجاهه بحق الجوار، لكن إذا حصل وتلقّى المسلمون هجوماً من الكفار، فعليهم ألّا يلبثوا مكتوفي الأيدي، بل يدافعون عن دينهم، وعن أعراضهم، وممتلكاتهم.

ولذلك ترشد السورة إلى الإعداد والتجهّز للرد على أي هجوم قد يتلقّونه من الكفار، والهدف من ذلك: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾. إذن، ليس لتشنّوا عليهم الحرب، بل لتُشعروهم بأنكم تقدرون على ردعهم وصدّهم إذا قاموا بشن الحرب عليكم.

فالاستطاعة في إعداد القوة والسلاح، متوجّبة فقط لتكون متواجدة على الحدود، وفي الثكنات داخل أراضي البلاد، وتكون على أهبّة الجاهزية للردع من أجل حماية الناس إذا تعرّضت البلاد لشن حرب، دون أي تقدّم أو تجاوز على حدود الآخرين مهما انتشر فيهم الكفر.

فلا جواز لمسلمٍ أن يعتدي على أي شخصٍ، حتى لو كان ذاك الشخص عدوّاً لله، وعدوّاً للمسلمين، مادام في دياره. أمّا إذا طلبَ مسلمٌ مِن كافرٍ أن يحميه من إخوانه المسلمين، فيستقبله الكافر، ويأويه، ويؤازره، كذلك لا جواز له أن يغدر بهذا الكافر، ويؤذيه تحت أي ذريعة كانت، وقد أحسنَ الكافرُ استضافته، وإيوائه، ومؤازرته، وإذا ردّ المسلم على إحسانه بالأذى، فلا يكون له ذلك قبل أن ينزع الإسلام عن نفسه، لأن التعاليم الإسلامية لا تجيز له ذلك بأي حالٍ من الأحوال تجاه مَن قبلوه دخيلاً، ولاجئاً، وأطعموه، وأكسوه، وخصّصوا له راتباً شهرياً حتى لا يمد يد السؤال.

كذلك إذا جاءَ الكافرُ سائحاً، أو مُقيماً في ديار المسلمين، فيتوجب عليهم استقباله واستضافته والإحسان إليه مادام قد جاء سائحاً، أو عاملاً. فهذا هو الإرشاد

التأسيسي الذي ترشد به هذه السورة المسلمين المؤسّسين لدعائم الإسلام، وتدعو بقية المسلمين في كل زمان ومكان، أن يحذوا حذوهم.

إن كل آية من آيات هذه السورة الكريمة، هي عالمٌ متكاملٌ، وتتجلّى فيها منظومة إنسانية وأخلاقية، يتعلّم منها الإنسان ما لم يتعلّم من غيرها من أي آيةٍ غيرها، فكل آية تكتنز بالجديد الذي ليس في غيرها سواء في هذه السورة، أو في غيرها من سائر آي التنزيل الحكيم، ولذلك فهي وَقَفاتٌ ذهبيّة مجيدة يحظى بها قارئ هذه السورة الكريمة.

فمن أولى شروط تلقي معاني هذه السورة، والاستنارة بمنارتها، هو التأنّي، والتهيئة، وصفاء الذهن، والإلمام ما أمكن للتعرّف على عناصرها، عندئذٍ يأتي التلقي كما لو أنه سَبَحاتٍ من نور.

والواقع فإن عامل الزمن هام جداً في تلقي معاني هذه السورة، لأنها سورة متحرّكة في مضامينها، وعناصرها قابلة للتحرّك والتطوّر وفق الزمن، وسيرورة المُنجز البشري.

هذه السورة مدنية باستثناء الآيات ٣٠ - ٣٦، فمكية، وهي السورة الثامنة في الترتيب العثماني للمصحف، وتقع في التسلسل التاسع والثمانين في ترتيب النزول، وتقع في خمسٍ وسبعين آية، وتُعدّ من السور المثاني. فنحن مع هذه السورة، في مرحلة تأسيس التشريع الإسلامي، وبيان الحدود، والحقوق، مثل الولاية العامة والخاصة، والعهود، وصلة الرحم، أصول الحكم، مكارم الأخلاق، الآداب، الوفاء بالعهود، كذلك تبيّن كيف أن الظلم يودي بصاحبه إلى التهلكة في الدنيا، والآخرة. وتبيّن بأن التنازع، والشقاق من أسباب الوهن، وهي بذلك تدعو إلى المواجهة، وعدم الهزيمة في الحرب. أي نحن أمام نظام جديد للأحكام، اعتباراً من المرحلة المدنية، لأن المرحلة المكية، ركّزت على ترسيخ الإيمان بوحدانية الله عز وجل، وبخاتمية رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم بعد ذلك يُفعّل المؤمن إيمانه من خلال اتباع التشريع الإلهي الجديد الذي حَمَلته الآيات المدنية، ثم نشر الدعوة على نطاق أوسع.

وقد أُنزِلَت هذه السورة بعد معركة بدر الكُبرى، ولذلك فهي تركّز على كيفية أن يبقى الإنسان محافظاً على قِيَمِه الإنسانيّة، وأخلاقه، وتأدّبه حتى في حالات نشوب نزاعات، سواء بالنسبة للأفراد، أو الجماعات. وهذه نقطة غاية في الأهمّية، حيث يمكن لشخصٍ أن يفقد زمام السيطرة على نفسه، بسبب نزاعٍ نَشَبَ بينه وبين أحد جواره، أو أحد أقاربه، أو غير ذلك، فيلحق الأذى حتى بالأبرياء الذين لا دخل لهم بهذا النزاع. وكذلك يكون الأمر بالنسبة للجماعات، أو القبائل، أو الدول التي تتنازع فيما بينها، فيتم إلحاق الأذى بالأبرياء.

فمن هنا جاءت هذه السورة الكريمة لتؤسّس لأخلاقياتٍ، وقِيَمٍ، ومبادئ إنسانيّة على المسلم أن يتّبعها ويأخذ بها عند نشوب النزاعات، سواء الفردية، أو الجماعية. كذلك تبيّن سورةُ الأنفال، أخلاقيّات التعامل مع الأسرى، فهي توثّق لأجواء ووقائع ما حدث في معركة بدر، وكذلك نرى أن الجهاد يتجلّى في هذه السورة بأرقى وأسمى معانيه، فتُبيّن السورة فيما تُبيّن بأن الجهاد، أن تُجاهِد حتى لا تُغلَب، وبذات الوقت، لا تفقد قِيَمك الإنسانيّة. ولعلّ بعض التفاسير غير المتأنّية، أو المُرَدّدة لِما قد قيل، صَوّرَت هذه السورة بأنّها تصعيديّة، وتبيح التدخلات في شؤون غير المسلمين، وتشنّ عليهم الحَمَلات والحروب، مِمّا جَعلَ بعض الجماعات المُغاليّة، تستقطع وتجتزئ بعض آياتها، وتحثّ بها على القتال، والحصول على الغنائم، استناداً إلى تلك التفاسير، بل جعلوا حتى الإنسان البريء ذاته غنيمة، فيبيعونه، وكذلك يستحلّون لأنفسهم حريّة التصرّف بالنساء البريئات، فينجم عن ذلك تشتّت عائلات بأكملها كانت آمنة، ومتماسكة.

كل هذا وهم يتّبعون مثل هذه التفاسير التي تتمخّض عنها بعض الفتاوى، دون أن يسأل هؤلاء أنفسهم: أي إسلام هذا الذي يشتّت عائلات بأكملها، ويهدم بيوتاً على أصحابها، ويجنّد أطفالاً، ويبيح أعراض وأموال الناس. ثم: أليس من الخطأ ظنّنا بأن الآخرين سيوافقوننا على ذلك، وسيؤازروننا، وهل يمكن أن يتقبّل العالم دخول الإسلام وهو بهذا الشكل، ثم مَن الذي خوّلنا لنقود العالم ونجعله يمضي في نَمَطٍ واحدٍ، وعقيدةٍ واحدة، أليس الله قادراً أن يجعل العالم كله يمضي في معتقدٍ واحد إذا شاء:

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣]. ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرعد: ٢٧]. ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن الدروس التي تبيّنها السورة الكريمة، أن ذكر الله، يُساعِد على تجاوز المِحَن، ويُحقِّق للذاكر النصر على أهوائه، ونزَعاته السلبيّة، وعلى كل مَن يريد به أذى. كذلك ترشد السورة إلى التحلّي بالصبر عند الشدائد، وعدم الانجرار خلف ردّات الفعل، وحسن التعامل مع الأسرى. كذلك تدين الهزيمة، والخنوع، واليأس، والاستسلام. ثم ترشدك إلى التواضع، وعدم التباهي بالنصر، أو التفوّق. وتبيّن السورة بأن ذلك من شأنه أن يولّد شرارة التميّز، والكِبر في نفسك.

إذن، سُمّيَت هذه السورة بـ (بدر)، لأنها وَقَعت على أرض بدر، وهو اسم لوادٍ يقع بين مكة، والمدينة، وكان فيه أحد أهم أسواق العرب، وأحد أهم مراكز تجمّعهم للتبادل التجاري والمُفاخَرة، وكان العرب يقصدونه كل عام. وكان عدد المشركين في هذه المعركة نحو ألف، وعدد المسلمين نحو ٣١٣، منهم ٨٢ مهاجراً فقط، و٢٣١ من الأنصار، منهم ١٧٠ من قبيلة الخزرج، و٦١ من قبيلة الأوس.

وقد وقعت هذه المعركة صبيحة يوم ١٧ من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، حيث نَشَبَت المعركة المُباشرة بين المسلمين، بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمشركين، بقياد عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، المعروف بأبي جهل، بعد زحفهم إلى مواقع المسلمين، فسقط من المشركين ٧٠، وأُسر منهم ٧٠، وبالمقابل، سقط من المسلمين ١٤ شهيداً، فانهزم المشركون إثر ذلك، وانتصر المسلمون عليهم في ظروف استثنائية تبيّنها آيات السورة، وتشرحها بتفاصيلها.

هنا بدأ الخلاف بين المسلمين من أجل توزيع الأنفال التي تَرَكها المشركون في أرض المعركة وانهزموا، وسبب الخلاف أن المسلمين كانوا قد انقسموا إلى ثلاث مجموعات في هذه المعركة، الأولى: واجهت المشركين بالقتال، والثانية: كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم، والثالثة: أمسكت بالأسرى، وجمعت الغنائم، فرأت كل مجموعة بأنها الأحق بأعلى نسبة من هذه الغنائم.

من هنا نرى كيف أن السورة تهذّب الإنسان المسلم، وتنزع عنه نزعاته السلبية التي كان عليها قبل الإسلام، وتزرع فيه قيماً إيجابية تحيله إلى إنسان جديد.

الباب الأول

قواعد الإيمان

[١]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾

يسألك أصحابك يا محمد، بعد الانتهاء من المعركة، ﴿عَنِ﴾ كيفيّة توزيع ﴿ٱلْأَنفَالِۖ﴾ عليهم. أجبهم يا محمد، و﴿قُلِ﴾ بأن ما تَرَكَ المشركون في ساحة المعركة، عندما نَصَرَكم الله عليهم، رغم كثرتهم، ورغم قلّتكم، وهي ممتلكاتهم التي هي في البداية، وفي النهاية ممتلكات الله، فهو يعطي لِمَن يشاء من ملكه، ويحجب عمَّن يشاء.

إذن، ﴿ٱلْأَنفَالِۖ﴾، هي كل ما يترك الطرف المهزوم في ساحة الحرب، مثل الخيول، والإبل التي تحمل المونة، وحاجات المقاتلين، وكل ما يكون بحوزتهم، ويتركوه عندما تّلحق بهم الهزيمة.

فهذه الأموال، لا تعيدوها إليهم، ولا تتركوها في العراء، وكذلك لا تتنازعوا في كيفية توزيعها بينكم، كونها ليست لكم، ولم تبذلوا في كسبها الجهد، إلّا إذا كان جهادكم هو من أجل الحصول على ﴿ٱلْأَنفَالِۖ﴾، وليس في سبيل الله. فمادام جهادكم هو خالصٌ في سبيل الله، عندما تعودوا إلى بيوتكم، اعملوا واحصلوا على الأموال بأعمالكم. فالإنسان إذا حصل على زيادة، تكون نافلة مالية، وكل زيادة، هي نافلة، وقد شاء الله تعالى أن يصف الحال بكلمة بالغة الدلالات، ومكتنزة المعاني، وغنيّة في تفرّعات معانيها، فكانت كلمة ﴿ٱلْأَنفَالِۖ﴾. وهي تعني كل ما يمت بصلةٍ إلى المال، ثم إنها كلمة تعني الزيادة في أي شيء، وليس في المال فحسب، فإذا قدّمتَ عبادة زيادة عن المكتوبات، كانت نافلة، فأنتَ تقدّم

الطاعة المكتوبة عليك، لكنك إضافة إلى ذلك، ومن تلقاء نفسك، تقدّم أيضاً النوافل، فتزيد عن الطاعة المكتوبة، لماذا؟ لأنك أيضاً تريد الزيادة في الأجر، مُضافة إلى أجر الطاعات المكتوبة، فتقدّم الزيادة، ليثيبك الله بالزيادة: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

فالنفل، يعني الزيادة، كما أن ابن الابن هو زيادة على الابن: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: ٧٢]. ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ هو ابن إبراهيم، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ هو ابن ﴿إِسۡحَٰقَ﴾، أي حفيد إبراهيم. إذن، الأصل في الحرب بالنسبة للمسلم، هو الدفاع عن النفس، ومنع المعتدين من تنفيذ الاعتداء، وإلحاق الهزيمة بهم، وهكذا ينتهي كل شيء. فجاءت ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، زيادة من الله تعالى وفق شروط يجب تطبيقها.

والإنسان يتقرّب إلى الله أكثر من خلال النوافل، جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: "ما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه ومازال العبدُ يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبطش ورجله التي بها يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه"(١). فهناك مَن يصوم شهر رمضان فقط، ولا يزيد يوماً واحداً، ولا شيء عليه، لأن هذا هو المفروض، وهناك مَن يزيد، فيصوم شهرين، أو أكثر، حتى يثيبه الله بالمزيد، وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة، فهناكَ مَن لا يزيد عن الصلوات الخمس في اليوم، وهناك مَن يزيد، كذلك الأمر بالنسبة للمال، فهناك مَن يتصدّق بماله للمحتاجين، إضافة إلى إخراج الزكاة، كذلك هناك مَن يتصدّق بماله رغم أنه لا يمتلك المال الذي تتوجّب عليه الزكاة، وما إلى ذلك من أبواب الزيادة، لأن هؤلاء جميعاً يسألون الله سبحانه وتعالى، الزيادة في الأجر، ليس في الآخرة فحسب، بل في الدنيا أيضاً، بأن يبارك في أموالهم، وذرّياتهم، وييسّر أمورهم،

---

(١) أخرجه البخاري.

ويقيهم ألوان وأشكال الأذى، ولذلك فإن الحياة مقامات، والجنة درجات، وثمة أناس لهم كرامات، والله يستر أناساً، ويفضح أناساً في الدنيا والآخرة. كذلك بعض الناس الذين يقدّمون أعمالاً طيّبة، يعفيهم الله حتى من الحساب، فيُدخلهم الجنة دون حساب.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ")(١).

ولتجاوز هذا الخلاف الذي نشب بين الصحابة بسبب ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾، جاء بيان الله لهم: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾. هي ﴿لِلَّهِ﴾، وقد فوّض بها رسوله. وهذا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يبتّ في شأنها رغم الخلاف الذي وقع بين الصحابة بسببها.

عن سعد بن أبي وقاص قال: (اغتنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذته فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: نفلني هذا السيف، فأنا من قد علمت حاله. قال: "رده من حيث أخذته". فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه. قال: فشد لي صوته "رده من حيث أخذته". فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته "رده من حيث أخذته". فأنزل الله ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾.

وقد تغيّر الموقف بعد أن أعطى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الوكالة بحريّة التصرّف، وفي ذلك يقول سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "يا سعد إنك سألتَني السيفَ وليس لي، وقد صار لي فاذهب فخُذْه". وبذلك فقد انتهى هذا النزاع، وجاء أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في خلافكم على توزيع ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

ولعلّ الأمر لو لبث على سجيّته، لحلّت فوضى عارمة في هذه الأموال، فكل شخصٍ يأخذ ما يشاء، وقد لا يحصل البعض على شيء، أو يحصل البعض على الكثير، والآخر على القليل. فالآية تنظّم هذه العمليّة، وتبيّن أن لا شيء لهم في ذلك إن كانوا حقاً يجاهدون في سبيل الله.

وهذا أمرٌ قاطعٌ، لكن وكونها أموال الله، فإنه بعزّته وجلاله، يفوّض رسوله بتوزيعها وفق ما يشاء، دون أن يكون لأحدٍ حق الاعتراض على ذلك. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه".

إذن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولتكن تقوى الله هي الغالبة في أي أمرٍ من أموركم، وليس في ﴿الْأَنفَالِ﴾ فحسب. ﴿وَ﴾ - بعد أن تبلغوا مقام تقوى الله -: ﴿أَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾.

﴿ذَاتَ﴾ البينِ، أي ما يكون بينكم من رابطة الإيمان، فأنتم أخوة الإيمان.

وهذه إشارة بأن المال، يمكن له أن يفسد ما بين أخوة الإيمان، وقد حصل ذلك عند وقوع النزاع بسبب توزيع ﴿الْأَنفَالِ﴾ بعد الانتهاء من معركة بدر.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمِكَ مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ، قَابِلِينَ لَهَا، وَأَتِمِمْهَا عَلَيْنَا"(١).

﴿أَصْلِحُواْ﴾ بتقوى الله ما أفسدته ﴿الْأَنفَالِ﴾ من ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، والتقوى سبيلكم إلى الإصلاح: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ما يأتيه الرسول إليكم من الله، اعملوا به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. تحقيقاً وتثبيتاً لإيمانكم، وإلّا، لن تكونوا ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾، مهما ادّعيتم الإيمان، ﴿فَـ﴾ - ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً -: ﴿اتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود، في الصلاة، ورواه الحاكم في المستدرك.

الباب الثاني

وجل القلوب

[٢]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ينشرح الصدر لقراءة هذه الآية التي تبث الطمأنينة إلى القلوب، إنها تؤسّس لشخصية مؤمنة حقيقية. وهي آية مكثّفة، غزيرة المعاني والدلالات، تقوّي رابطة الإيمان بين الإنسان وربه، وتجعله مستقرّاً بنور الله.

يتمتّع بصفاء الذهن، وانشراح الصدر، والأفق الواسع تبدأ الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وقد انتهت الآية السابقة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. فإن كنتم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، فاعلموا ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾. فـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ هنا، بيانٌ لـ ﴿إِن كُنتُم﴾ هناك، فالمؤمن الحقيقي ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، وجِلَ قلبه.

فإن ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، ولم يوجل قلبك، فاعلم بأن ذلك دليل قلّة الإيمان مهما كنتَ تؤدّي شعائر الإيمان. وإذا ذكرتَ الله أمام شخصٍ، ورأيتَ أنه غير آبه بذكر الله، فاعلم بأنه ليس على حقيقة الإيمان، مهما أبدى من مظاهر إيمانية. فتعلّمكَ الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾. فعندما يقول لك شخصٌ: (اتق الله)، ولا يحرّك ذلك فيك ساكناً، فعليك أن تُراجع حقيقة ما أنت عليه من إيمان، ولا تغرّك المظاهر، أو العِبادات التي تؤدّيها بشكلٍ آلي، دون أن تتفاعل معها، وتحيلها إلى سلوك في شخصيّتك.

من هنا فإن هذه الآية الكريمة تضيء لك هذه المسألة الدقيقة، وتنبّهك إليها، فالمؤمن هو ذاك الشخص الذي يتفاعل مع حقيقة إيمانه، ويوجل قلبه عندما يُذكَر الله، فيخشع: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالوجل يكون في القلب، وهو الخوف من الله، والحياء منه، وبقاء الله سبحانه وتعالى في الاعتبار الأعلى.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. في هذا الشطر، تبيّن الآية الكريمة بأن الإيمان ينقص ويزيد، والمؤمن يكون في زيادة في درجات إيمانه:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤].

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

والوجل هنا، ليس مقتصراً على الخوف رغم أنه يعنيه، وكان يمكن القول (خافت)، بدلاً عن ﴿وَجِلَتْ﴾، لكن الوجل فيه شيء من الخوف، وشيء من الحياء، شيء من تعظيم الله، شيء من تقديس الله. فكل هذه المزايا اجتمعت لتتشكّل منها كلمة الوجل.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. لذلك فإن الوجل يكون في القلب حصراً، فقلب المؤمن الكامل الإيمان، يكون على وجلٍ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾، فيدع حينها كل شيء مخافة مقام ربه، ويتنفّس الصعداء، وينتبه إلى ما هو فيه من غفلة،

لأن الذكر بيان بأنه كان في غفلة، ولم يك ذاكراً، فيستغفر الله، ويعود إلى صوابه إن كان مؤمناً حقاً. والله لا ينسى هذا الإنسان، بل يغدق عليه من جهة أخرى، فيشفي له قلبه، وذلك كمكافأة من الله لهذا القلب الذي وجل في ذاك الموقف عند ذكر الله. فاعلم بأن الله لا يأذن لأحدٍ أن يكون أكرم منه، وأنه لا ينسى ولو موقفاً بسيطاً وقفته بسبب ذكر الله. مثل أن يرتكب طفلٌ خطأً ما، فيريد أحد أبويه أن يُعاقبه، أو يضربه حتى لا يكرّر الخطأ، فيهرع الطفل خائفاً وهو يقول: من أجل الله لا تضربني، فيجعل ذكر الله قلبه وجلاً، فيمسك يده ويسامحه.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. فعندما لا يوجل قلب إنسانٍ لذكر الله تعالى، ولا يأبه لذكره، بل يستمرّ وكأنّه لم يسمع شيئاً، فإن الله سبحانه وتعالى، ينظر إلى قساوة قلب هذا الشخص الذي لم يلن، ولم يرحم، ولذلك لا عجب أن يسلّط الله عليه شخصاً فظاً غليظ القلب مثله، مهما ذكّره بالله، فإنه لا يرتدع عنه، فيكون قد لقي المثل، حتى تعود به ذاكرته عند ذاك، عندما كان قلبه لا يوجل ولا يلين مع ذاك الشخص الذي كان يقسو عليه، رغم تذكيره بالله، وأنه طالما جَعَل ذكر الله بينه وبين قسوته عليه كي يخفّف عنه، أو يتركه، لكنه لم يفعل. كذلك فإن هذا الشخص يقسو ولا يلين قلبه مهما ذكّره بالله. والعكس بالعكس، فشخص لان قلبه لذكر الله، وصفَحَ وجلاً من الله، فيلقى مَن يلين له قلبه، ويصفح وجلاً أمام تذكيره بالله، رغم أنه يستحق العِقاب.

عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ

عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ"، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا"، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ"(١).

فالإنسان في الشدائد يسأل الله اليسر، ويقول: يارب، إني امتنعتُ عن فعل كذا وكذا مخافتك، وكانت الظروف متاحة، ولم يكن بوسع أحدٍ أن يردعني، ولكن الخوف منك ردعني، وإن قلبي في يوم كذا وكذا، وجِلَ لذِكرك، فكظمتُ غيظي، وصفحتُ عن المتجاوز علي عندما جعلك بيني وبينه وهو يسألني الصفح. فأنتَ تعلم أن ذلك كان خالصاً لوجهك، وابتغاء مرضاتك، وقد وقعتُ في شدّة وأعلم أن لا أحد ينجيني منها غيرك، أسألك إخراجي من هذه الشدّة بسلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما كلبٌ يُطِيفُ برَكيَّةٍ، كاد يقتُلُه العطشُ، إذ رأَتْه بغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزَعَت مُوقَها، فسَقَتْه فغُفِر لها به"(٢).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث ٢٢٧٢.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث ٣٢٨٠.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَى سَائِلٌ امْرَأَةً وَفِي فَمِهَا لُقْمَةٌ، فَأَخْرَجَتِ اللُّقْمَةَ فَلَفَظَتْهَا، ثُمَّ نَاوَلَتْهَا السَّائِلَ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ رُزِقَتْ غُلامًا، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ جَاءَ ذِئْبٌ فَاحْتَمَلَهُ، فَخَرَجَتْ تَعْدُو فِي أَثَرِ الذِّئْبِ، وَهِيَ تَقُولُ: ابْنِي! ابْنِي! فَأَمَرَ اللهُ مَلَكًا: الْحَقِ الذِّئْبَ، فَخُذِ الصَّبِيَّ مِنْ فِيهِ، وَقُلْ لأُمِّهِ: إِنَّ اللهَ يُقْرِئُكِ السَّلامَ، وَقُلْ: هَذِهِ لُقْمَةٌ بِلُقْمَةٍ"(١). وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له"(٢).

فالله سبحانه وتعالى لا يأذن لأحد أن يكون أكثر كَرَماً منه، أو يعمل إنسانٌ عملاً خالصاً لوجه الله تعالى، ولا يأبه به الله. فإن الله جلّ شأنه يأبه بكل صغيرةٍ وكبيرة، ولا شيء قط لا يردّ عليه بالمثل، أو يُضاعفه بِما يشاء. وهذا مثل شخصٍ تزوّج حديثاً، وكان يدرس الحقوق ليُصبحَ قاضياً، وبعد مدّة من زواجه، وبينما هو عائد إلى البيت، تفاجأ برجلٍ غريبٍ مع زوجته في البيت. عندها طلب من الرجل أن يرتدي ثيابه، ففعل الرجل وهو مرتعب لا يعرف ما الذي سيبدر من هذا الزوج الحديث العهد بالزواج، والمفجوع بخيانة زوجته له. عندما انتهى من ارتداء ثيابه، قال له: اخرج، فقد سترتك في سبيل الله تعالى. عندها نظر إليه الشخص باستهزاء، وأطلق ضحكة غريبة، وخرج. ثم فعل الأمر ذاته مع زوجته، فطلّقها، وعادت المرأة إلى أهلها دون أن يُخبر بسبب الطلاق، وانتهت الحادثة بسترٍ تام، وقد أُشيع في الناس أن ذلك وقع بسبب عدم التوافق بينهما.

ولعلّ الرجل أراد أن يمنح فرصة لشخصين مقبلَين على الحياة للتو، لعلّهما يتوبان، ويصلحان، وبذات الوقت، سأل الله تعالى أن يعوّضه خيراً منها. وبعد فترةٍ رزقه الله بزوجةٍ رأى فيها خصالاً حميدةً لم تكن موجودة في زوجته السابقة، ومع العشرة الزوجية، ومرور الأيام، يكتشف فيها مزايا لم يكن يتخيّلها إلى درجة أنه

---

(١) ورد هذا الحديث في كتاب (المجالسة وجواهر العلم)، أحمد بن مروان بن محمد الدينوري أبو بكر القاضي المالكي.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم.

يشكر الله على حصول ذلك، وهذا ما خفّف عنه فجيعة الصدمة، ومع الأيام، انعكَس عليه الأمر، فبدأ يشعر بنشوةٍ لأن ذلك أبعده عن تلك المرأة التي لم تكن على كل هذه الخصال والمزايا الطيّبة، بل إن حياته أصبحَت أفضل مع هذه المرأة. فبات يكرمها، ويحسن إليها بِما يستطيع، وهو يشكر الله على هذا التعويض الجميل. ومع مرور السنوات، تخرّج وأصبحَ قاضياً، لكن بقيَت مشكلة واحدة في حياته، لم يستطع التخلّص منها رغم كل هذه السنوات، وهي أنه منذ ذلك اليوم الذي أطلَقَ فيه ذاك الرجل تلك الضحكة الغريبة، فإنها تقفز إلى ذاكرته، كلّما سمع ضحكة من رجل. وذات يومٍ جاءته إضبارة ليبتَّ الحكم على شخصٍ ارتكبَ جناية قتل رجل وامرأة، ولفت اسم زوجته السابقة نظره في الإضبارة، فطلبَ أن يحضروا إليه القاتل، وعندها تفاجأ بأنه ذات الرجل الذي وجده في بيته، فقد تزوّج بعد ذلك من تلك المرأة. فبدأ ينظر إليه، ومشاهد الماضي تتداعى إلى مخيّلته كما لو أنها تقع للتو، عندها بدأت الدموع تنهمر من عينَيه، وهو يكتشف قوّة عظمة الله. إذ ذاك استغرب الرجل الذي لبث واقفاً ينظر إليه، وسأله: هل عرفتني؟!

قال الرجل: أعرفك جيداً، وأنا طلبتُ أن تُحال إضبارتي إليك، لأنني أعلم أنك شخص عادل، وتبتّ في قضيّتي بعدل، لقد منحتنا فرصة ذهبيّة، ولكننا أسأنا فهمك، لقد تزوّجنا بعد ذلك، ولكنها خانتني، فقتلتهما.

بدا الرجل أمامه منهزماً، كئيباً، مرتعباً، وقد اختفت آثار تلك الضحكة عن ثغره، وهو يبكي، ويتوسّل، حتى يعفو عنه، أو يخفّف عنه الحكم، وقد عرف فيه الصفح.

ولكنه في تلك اللحظات الرهيبة التي مرّت عليه، خشي أن يبتّ حكماً لا يرضي الله، وهو تحتَ تأثير هذه الحادثة، فقرّر إحالة الإضبارة إلى زميلٍ له ليبتّ فيها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. فاعلموا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الحقيقيون، هم أولئك الذين بمجرّد أن ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، فإن ذلك يجعل قلوبهم في انشراح وسعة وبِشارة، كذلك في تعظيم، في تبجيل لله، في طَمَعٍ برحمته ومغفرته، في سؤالٍ لقضاء حاجةٍ، في تيسير أمرٍ، في حياءٍ أن يقول: (لا)، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾. في

حياءٍ وخجلٍ ألّا يكون كريماً، متسامحاً، عفوّاً، لوجه الله تعالى، مادام قد ﴿ذُكِرَ اللَّهُ﴾. فالمؤمن الحق، عندما يُذكَر الله أمامه، ويُطلَب منه عفوٌ، فإن قلبه يوجل ويستجيب. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وبذلك يجوز الفهم أن غير المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ لم توجل ﴿قُلُوبُهُمْ﴾. فمارِسوا سلوك المؤمنين، إن كنتم مؤمنين حقاً، فليس المهم أن تقول بأنك مؤمن، بل المهم كيف تعبّر عن إيمانك، كيف تُفعِّل الإيمانَ إلى سلوكٍ يوميٍ تعيش به.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

فـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، لا تكفي، بل: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. تفعيل الإيمان في القلب، إلى عملٍ على أرض الواقع، فعند ذاك، يُشار إليك بأنك مؤمن، أي: عندما يستشهد الآخرون بأعمالك الإيمانية، كدليلٍ وإثباتٍ على حقيقة الإيمان الذي في قلبك.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

تُليَت، أي قُرِئَت، ﴿إِذَا﴾ قُرِئَت على أسماعهم آياتُ الله، ﴿زَادَتْهُمْ﴾ هذه الآيات ﴿إِيمَانًا﴾ بالله، وبالتالي، زادتهم صَلاحاً، لأن الإيمان كلّما زاد في القلب، كلّما زاد معه المؤمن صلاحاً في العمل، وكلّما نقص، نقص معه صلاح عمل المؤمن.

والقول عائدٌ إلى مبتدأ الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾. وهذه هي الصفة الثانية فيهم بعد وَجَل القوب بذكر الله.

إذن، المؤمن هنا به نقص في إيمانه، وهذا كله عائدٌ إلى الآية الأولى التي طلب فيها الله عز وجل من المؤمنين أن يتّقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله، إن كانوا حقاً مؤمنين. فاعلموا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾. فعودوا إلى القرآن، واستمعوا إليه جيداً، واقرأوه جيداً، لأن في ذلك علاجاً لنقص الإيمان، وإرشاداً للارتقاء في درجات الإيمان. فَمَن أراد أن يزداد صلاحاً واستقامةً، فليقرأ القرآن قراءات تدبّرية، استنارية، وليستمع إليه بتدبرٍ واستنارةٍ، لأن القلب يطمئن مع آيات الله، ويزداد إيماناً، والعين ترتاح عندما تقع على آيات الله، والأذن، والجوارح كلها تمسي في حالة خشوعٍ، ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾، على إيمان، وصلاحاً على صلاح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "يَجِيءُ القُرآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّه، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَة، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيُقَالُ: اقْرَأ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً"(١).

فالشرط الأول، أن تكون مؤمناً وفق الترابط مع نهاية الآية الأولى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أمّا مَن يتفوّه كلمات الإيمان بلسانه، ويتزيّا بمظاهر تديّنيّة، ثم ينتهك محارم الله إذا خلا بها، فهذه الآية تذكرة له كي ينتبه إلى حقيقة ما هو فيه، ويتجنَّب مظاهر الإراءة في العِبادة، ويستغفر ربّه، ويُصلِح العَمَلَ.

كذلك يمكن أن ينتفع الكافر بهذه الآية الكريمة، إذا تخلّى عن التزمّت، وقرأها، واستمع إليها بشكلٍ جيّدٍ، وهيّأ نفسه وجعلها في حالة استعدادٍ لقبول التغيير نحو الأفضل، والأكثر رقياً وسموّاً، فعندها يلمس إشراقة هذه الآية الكريمة تنير له ما كان مظلماً أمامه، وتشرح له صدره، وتجعله في سكينةٍ وصفاءٍ واستقرارٍ عَقيديٍ، في انعطافة تحوّليّة إشراقيّة كُبرى في مسير حياته.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٧٨) (ح ٢٩١٥)، وقال: «حسن صحيح». وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٠) (ح ٢٣٢٨).

فَوَجَلُ القلبِ، حتى لا تتجاوزَ على أحدٍ، وزيادةُ الإيمانِ، حتى تزداد صلاحاً.

فانظر إلى افتتاحيّة الآية: ﴿إِنَّمَا﴾، أي تأكيداً: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، هم أولئك ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ قال: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾. ولم يقل: ﴿ذُكِرَ﴾ اسم: ﴿ٱللَّهُ﴾. لأن: ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ في هذا السياق ونحن إزاء آيتين انتقاديتَين، تنتقدان تصرّفات بعض المؤمنين، وتوجّههم التوجّه السليم.

وهذا لا شيء فيه، لأن الإنسان هو دائم الحاجة كي يُطوّرَ نفسه، ويرتقي بها، ويزيد علاقته بربّه قوةً ومتانةً، وقد حصل ذلك مع آدم عليه السلام، وحصل مع الأنبياء والرسل، بِمَن فيهم خاتم أنبياء الله ورسله، عليهم الصلاة والسلام.

وكان الله سبحانه وتعالى يُعاتبه في بعض الأشياء، ويحذّره من بعضها، ويوجّهه التوجّه الصحيح، وبذلك بَلَغَ عليه الصلاة والسلام، الدرجات العليا من الصلاح الإنساني، فَشَهِدَ له الله عز وجل بالخُلُق العظيم. وكذلك فإن الإنسان يتقدَّم في درجات الصلاح، كلّما تقدَّم في درجات الإيمان.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله أهلين من الناس، قالوا يا رسول الله: من هم، قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته"[(١)].

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين"[(٢)].

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لجاريةٍ ترعى الغنم: "أين الله"؟ قالت: في السماء. قال: "ومن أنا"؟ قالت: أنت رسول الله. قال لسيدها: "اعتقها فإنها مؤمنة"[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجة: حديث/ ٢١٥، ١/ ٧٨، وأحمد، حديث/ ١٣٥٦٦، ٢/ ٢٤٢، والدارمي: حديث/ ٣٣٢٦، ٢/ ٥٢٥، والطيالسي في مسنده: حديث/ ٢١٢٤، ١/ ٢٨٣، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان: حديث/ ٢٦٨٨، ٢/ ٥٥١.

(٢) أخرجه مسلم: حديث/ ٨١٧، ١/ ٥٥٩، وابن ماجة: حديث/ ٢١٨، ١/ ٧٩، وأحمد: حديث/ ٢٣٢، والدارمي: حديث/ ٣٣٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان: حديث ٢٦٨٢، ٢/ ٥٥٠.

(٣) رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت"(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب"(٢).

من هنا، فإن القرآن ليس مقتصراً على الأشخاص الذين تسبّبوا في نزول آياته، بل هو مفتوحٌ وعامٌ لإنسان كل زمانٍ ومكان، فهذه الآيات هي لأي شخصٍ يقرؤها، ويمكن له أن ينتفع ويصلح بها، كما انتفع وصلح بها الأولون.

إذن، لِنَعُد إلى قراءة الآيتَين معاً وقد عَلِمنا عنهما ما عَلِمنا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

ففي البدء عليك أن تنزع فكرة المال من قلبك، عندما تُشَن حربٌ عليك وأنت في ديارك، بل تنفر خالصاً لوجه الله تعالى دفاعاً عن دينك، وعرضك، وأرضك، وعن ذويك الذين لا يقوون على صدّ العدوان.

ثم تعلم بأن هذه المعركة التي تَمحوَرَت حولها هاتان الآيتان، قد وقعت في المدينة، وكان اسمها يثرب، نسبة إلى يثرب ابن قاينة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في هجرته إليها، غيّر اسمها من يثرب، إلى المدينة. وقد ورد اسمها الجديد في القرآن: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ

---

(١) أخرجه البخاري: حديث/ ٤٧٤٣، ٤/ ١٩٢٠، ومسلم: حديث/ ٧٨٩، ١/ ٥٤٣، وابن حبان: حديث/ ٧٦٤، ٢/ ٤١، والنسائي في الصغرى: حديث/ ٩٤٢، ٢/ ١٥٤، وأحمد: حديث/ ٥٣١٥، ٢/ ٦٤، ومالك في الموطأ: حديث/ ٤٧٤، ١/ ٢٠٢.

(٢) رواه الحاكم.

أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

عن قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثم صلى بأرض سعد ثم قال: "اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة، وأنا محمد عبدك ونبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به إبراهيم لأهل مكة، ندعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة واجعل ما بها من وباء بخم، اللهم أني حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم"(١).

فلم تقع هذه المعركة بين أهل المدينة، والمسلمين، بل اضطرّ المسلمون لترك ديارهم، ولجأوا إلى المدينة، ولحقهم المشركون أيضاً إلى المدينة التي تبعد عن مكة نحو ٤٠٠ كم، وزحفوا إليهم للقتال حتى في لجوئهم.

فهم لو أرادوا قتالاً مع المشركين لتسلّحوا في مكة، وشكّلوا جيشاً سرّياً معارضاً للنظام الجاهلي القائم الذي يحكم أهل مكّة، ويمنع الخروج عنه بكل الوسائل، وللبثوا يُقاتلونهم على أرض مكّة، ولَمَا نزحوا عن ديارهم وأهليهم.

قال صلى الله عليه وسلّم عندما خرج من مكة: "والله أنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله، ولو لا أني أُخرِجتُ منك ما خرجت"(٢).

ويُروى أنه صلى الله عليه وسلم لما استعمل عتاب بن أسيد على مكة أوصاه قائلاً: "يا عتاب أتدري على من استعملتك؟ على أهل الله تعالى فاستوص بهم خيرا".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أحمد، والترمذي.

لقطتـه إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها".

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد هُجِّر مضطراً، ولـم يُهاجر طَوعاً، فقد انسحَبَ مِن مكة مع صحبه، حقناً للدماء، وحتى ينشروا عقيدة الإسلام في أرضٍ أخرى، لا يقتلون فيها أحداً، ولا يقتلهم فيها أحد.

وكانت الشرارة الأولى لهذه المعركة قد بدأت، عندما زحف مشركو قريش من مكة باتجاه مواقع المسلمين في المدينة، وتداخل الجيشان فيما بينهما، ونَشَبَ القِتال. إذن، فساحة المعركة ليسَت موضعاً لكسب المال، وقد وسّع الله تعالى مجالات كسب المال من خلال ما لا يُحصى من المِهَن.

ثم عليك أن تتقي الله في أي عملٍ تقوم به، وأي قولٍ تقوله، ثم إذا وقع خلافٌ بينك وبين أحد المؤمنين، أن تُبادر إلى الإصلاح بينك وبينه، وتطيع الله في أوامره ونواهيه، وتصدّق الرسول، وتجعله أسوةً حسنةً لك، هذا إن أردتَ أن تكون مؤمناً صالحاً. بعد هذه المرحلة، فإنك تحتاج إلى التفاعل والزيادة، ولذلك أرشدتك الآية الثانية بـ ﴿إِنَّمَا﴾.

أي فاعلم - بعد أن تجتاز المرحلة الأولى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ﴾ تريد أن تنتسب إليهم وتكون أحدهم، هؤلاء تكون قلوبهم وجلة بِذِكرِ الله، ويزدادون إيماناً، كلّما قُرئَت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ آيات الله.

﴿وَ﴾ يتكلّل ذلك بأنهم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. يجعلون كل اتّكالهم على الله. وجاء الرب في موضعه المناسب، تذكيراً بأنه يُربّي عباده على الصلاح، وكل تشريعٍ يأتي منه سبحانه وتعالى، تكون فيه حكمة تربويّة يتّعظ بها الإنسان.

فالاتكال على الله يعني أنك مؤمنٌ أن الله بيده كل خيرات العالم، وبيده منع أي ضرٍ يمكن أن يقربك، وإذا أراد الله، جعل الأسباب التي تخطر في بالك، أو لا تخطر في بالك، فترضخ وتستجيب لينفذ أمر الله.

فالتوكل على الله، من الإيمان، وقد تتوّجَت خاتمة الآية بالتوكل، لأن كل تلك المراحل، تفضي بالمؤمن إلى التوكل على الله، وهذا يُحقّق له أمنا نفسياً، فهو يتنفّس براحةٍ على قدر ما هو متوكلٌ على ربه، وينام قرير العين، ويستمدّ من ثنايا توكله شجاعة الإقدام على بوادر خيرٍ كبرى، أو صغرى.

الباب الثالث

فضيلة الإنفاق

[٣]

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

الآن هؤلاء اجتازوا تلك المراحل، فأصبحوا - استناداً إلى ذلك -: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. لم يقل في هذا المقام: (يُصلّون). بل: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. لأن الذي يُقيم ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإنّه يُصلّيها حتماً مِن خِلال إقامتها، أمّا إذا صلّى الإنسان، فقد لا تُقبَل، لأن شرط الإقامة لم يتحقّق فيها، فهو يؤدّيها بشكلٍ آليٍ، ولم يُقمها بشكلٍ تَعبّديٍ. فالإنسان مختلفٌ عن الآلة التي تؤدّي ما يوكَل إليها، وهو جملة مشاعر وأحاسيس وتفاعلات، ولذلك فهو يتطوّر، ويرتقي، ويتحسَّن من خلال الطاعة، كما أنه يجهل، وينحدر، ويسوء من خلال المعصية.

فالإنسان يعيش حالة العِبادة، ويتفاعل معها بمشاعره، وأحاسيسه، وبذلك فهو كما تبيّن الآيةُ، يكون مُقيماً للصلاة، وليس مُؤدّياً لها بشكلٍ تلقائي، كما لو أنّه آلة. فإذن، عندما يُصلّي المؤمنُ، عليه أن يقيمَ الصلاةَ، حتى يتحقّق فيه شرط الإقامة، فيكون مُقيماً لصلاته وهو يُصلّيها، فيتفاعل مع ما يقول، وهو مدركٌ تماماً لِما يفعل من حركاتٍ في الركوع، والسجود، والوقوف، والجلوس، وحركة الرأس نحو اليمين، ونحو اليسار عند الانتهاء. لا أن تكون هذه الحركات أوتوماتيكية، لا يفقه شيئاً من معناها، ولا تتحرّك جوارحه، فهي تكون عمليّة مُكرّرة، حتى أنه يريد أن ينتهي منها بسرعة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ المَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَرَجَعَ فَصَلَّى ثُمَّ

جَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا"(١).

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قال: قال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ تَوَضَّأَ فَأَبْلَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا، وَسُجُودَهَا وَالْقِرَاءَةَ فِيهَا، قَالَتْ: حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، ثُمَّ أُصْعِدَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَلَهَا ضَوْءٌ وَنُورٌ فَفُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى اللهِ فَتَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا، وَإِذَا لَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا، وَلا سُجُودَهَا، وَلا الْقِرَاءَةَ فِيهَا، قَالَتْ: ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي، ثُمَّ أُصْعِدَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَعَلَيْهَا ظُلْمَةٌ فَغُلِّقَتْ دُونَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ثُمَّ تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا"(٢).

وعن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن أنه قال: (دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر فقام يصلي العصر فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذكرها فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس فكانت بين قرني شيطان أو على قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا")(٣).

وعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٢٥١.

(٢) البيهقي، شعب الإيمان، رقم الحديث ٢٨٧٣.

(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث ٤١٣.

رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا"[(١)].

إن الصلاة بالنسبة للخاشع، هي صلاة جديدة كما لو أنه يقيمها لأول مرة، وكل حركةٍ صلاتيةٍ، هي حركةٌ جديدةٌ، كما لو أنه يقيمها لأول مرة، فصلاته دوماً تكون متجدّدة ومشوّقة، فينتظرها، ويؤدّيها بتشويقٍ، وينتشي قلبه في محرابها، أي أنه يتذوّق لذّتها، ويستشعر معانيها، في كل كلمةٍ يقولها، وفي كل حركةٍ يتحرّكها، تجري الكلمات على لسانه، وهو يتذوّق شَهد معانيها، تتبرّك شفتاه بِما تتحركان به، يتبرّك صوتُه بِما يحظى من كلمات العِبادة الذهبيّة.

وعندها لا تملك جوارحُه إلّا أن تنتشي بِما تنشره عليه الصلاة من بركات وكرامات الله، وهو كلّه بَينَ يدَيه، ويُريد أن يَطول به المقام، وعندها، لا تقربه عُجالةُ الشيطان لتُخرجه من ذاك المحراب الإيماني المجيد، وهي تقرب وتنال من ذاك المصلّي العجول الذي يؤدّي الصلاة على عَجَلٍ، كما لو أنه يريد أن يتخلّص من عبءٍ ثقيلٍ عن كاهله، وهو يتمنّى لو لم تكن، فيؤدّيها بتثاقل، وتتداخل العبارات في ذهنه المُشَوَّش، الذي يتشتّت مع بدء الصلاة، حتى أنه لا يعرف ما يقول، أو كم ركعة أدّى، أو أنه قفز على هذه الحركة، أو تلك من الصلاة. بل قد يكون الله خارج قلبه تماماً، فالكلمات تجري على لسانه آلياً، بأقصى ما يمكن من تسرّع حتى يتخلّص من الصلاة بأسرع وقتٍ ممكنٍ، بل إنه من كثر تسرّعه، قد لا يدعو الله أن يتقبّل صلاته، أو يغفر له ذنوبه، أو لعلّه يلفظ كلماتٍ سريعةٍ حتى يخرج من الصلاة، وكأنه يخرج من قفص.

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا"[(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: "هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ")[(٣)].

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث ٦٧٦.

(٢) رواه أحمد في المسند برقم ١٧٨٠٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٧٢٤.

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث ٧٥١.

في حين أن الذي يُقيم الصلاة، فإنه يتذوَّق لذّتها، وعندما يقف على سجادة الصلاة، يشعر بانشراحٍ لا يشعر به في أي موضعٍ آخر، تعتريه سكينة نفسية، لا تعتريه في أي موضعٍ آخر. يتذوّق لذّة عسل كل كلمة يقولها، كل حركة يتحرّكها، وكله خشوع، وتفاعل، وتعايش مع الصلاة التي تكون بالنسبة إليه عالماً متكاملاً، فيجعل نفسه في تهيئةٍ تامةٍ للولوج إلى بركات ذاك العالم المُنار بنور الله، ليكون بينَ يدَي رب العزة والجلال.

لذلك يتطيَّب، ويتجمَّل، ويرتدي ثياباً جيدة، لأنه يُدرك بأنه لن يتطيَّب، ولن يتجمَّل لِمَن هو أفضل، ولن يرتدي جميل ثيابه لِمَن هو أفضل.

بعد مرحلة الصلاة، يأتي الإنفاق، فبيَّن الحق سبحانه وتعالى في خاتمة الآية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

إذن، يُعلّم الله سبحانه وتعالى، المؤمن ومنذ بدايات نشر الإسلام، بألّا يكتفي بعدم الأخذ من مال الأنفال فحسب، بل يأتي بماله الخاص أيضاً، ويُنفقه في سبيل الله.

﴿وَمِمَّا﴾، أي يُخصّصون جزءاً من المال الذي رزقهم الله تعالى به، فيُنفقوه في سبيله. ويبدو - والله أعلم - أن ذلك يكون غير الزكاة، سواء امتلك نصاب الزكاة، أو لم يمتلك. فإن امتلك، أخرج زكاته المفروضة عليه، ثم إنه ينفق الزيادة حتى يلبث مداوماً على العطاء، وهذه الزيادة بذاتها هي أنفال، أي بدلَ أن يُنفَل، فإنه يَنفِل، ويلمس في ذلك باباً من أبواب شكر الله على ما رزقه من أموال.

وإن لم يكن ممتلكاً لِنصاب الزكاة، فهو كذلك لا يكتفي بعدم الأخذ فحسب، بل يُنفق بحدود استطاعته، حتى يبقى مُنفقاً. بل وحتى لو كان مِمَّن تتوجب له الزكاة، ويأخذ حقه المشروع منها، فإنه كذلك يُنفق طواعيةً من هذا المال الذي أصبحَ له بموجب أمر الله، وذلك كي يقي نفسه من الاعتياد على الأخذ فحسب، ولا يتحوّل إلى كائنٍ يأخذ فقط، ولا يجد متعته إلّا عندما تمتدّ يدٌ لتُعطيه، بل حتى يقي نفسه من ذلك، فإنّه يعوّدها على العطاء أيضاً وفق الاستطاعة.

من هنا، فإن الآية تعلّم الإنسان المؤمن كي تكون يده عليا في مختلف الظروف، فإن اضطرّ إلى الأخذ، وهذا حقٌّ مشروعٌ له، وهو يستردّ الأمانة التي أودعها الله تعالى له في مال الغني، فإنه كذلك لا يكنز هذا المال، بل ينفقه عليه وعلى عياله، ويُفرحهم بطعامٍ طيّبٍ، وشرابٍ لذيذٍ، وثيابٍ جديدةٍ، يُحسِّن به حياته، ثم يعطي لبعض المحاويج شيئاً منه، فإن رأى شخصاً في الطريق يسأله شيئاً، وقف، وأعطاه، وإن طرق محتاجٌ بابه، لا يردّه خائباً، بل يعطيه.

إذن، لا يقبل هذا الفقير العفيف على نفسه أن يكتفي بأن تكون يده سفلى في ظرفٍ ما، ولكنه نظير ذلك، يذهب فيعطي لِمَن يراه محتاجاً، أو يسأله عوناً. وهذا بابٌ من أبواب شكره لله تعالى الذي ساق له مالاً حلالاً دون أن يبذل فيه جهداً. وبذلك تبقى أيدي المؤمنين كلها عليا، وفق درجات الاستطاعة بحكمةٍ إلهيةٍ في إدارة شؤون الخَلق، وهذا ما تبيّنه لنا هذه الآية الكريمة. ولذلك على الإنسان إذا حلّت عليه أزمة طارئة، أو اضطرّ للأخذ، فعليه أن يسعى ما أمكنه، حتى يتجاوز تلك الأزمة، وألّا يجعل من نفسه خاملاً تحت ظل تلك الأزمة، ويعتمد في معيشته على ما يتلقّاه من زكاة، وصدقات، لأن ذلك من شأنه أن يُعزّز هذا المنهج في حياته، ومع الزمن لا يكتفي بأخذ حاجته فقط، بل يجعل من ذلك وسيلة للغِنى. فحتى لو تجاوز الأزمة، يتظاهر بأنه لم يتجاوزها، حتى يبقى يأخذ، وشيئاً فشيئاً يتحوّل من محتاجٍ إلى متجاوزٍ على حقوق المحتاجين، وآكلاً لحقوقهم، رغم وجود المال الكثير لديه، بل يستكثر أن يُخرج زكاته، وهو يسعى ما أمكنه أن يخفي آثار نعمة الله تعالى عليه، فإن كان يملك قيمة بيتٍ، يبقى في بيتٍ متواضعٍ بالإيجار، وإن امتلك قيمة ثوبٍ جديد، ارتدى ثياباً رثّة، وإن كان شبعاناً، تظاهر بأنه جائع. فدوماً يُظهر الحاجة والمسكَنة، خاصة أمام الأغنياء، ويتذلل أمامهم. روى البيهقي في شُعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ أصبح محزوناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومَنْ أصبح يشكو مصيبته فإنما يشكو ربه، ومَنْ دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه". ولذلك ترى هؤلاء ينتشرون كالأوبئة في المساجد، ويطرقون أبواب الأغنياء،

ويجولون في القرى والنواحي في مواسم الزكاة حتى يستولوا على أمانة الفقير، ويجمعوا أكبر مبالغ مالية ممكنة كي يكتنزونها، ويزيدون بها أرصدتهم. ولذلك ترى المؤمن الحق يكون مُدقّقاً لهذه المسألة، ويتحقّق بأنه أعاد أمانة الله المودعة لديه إلى أهلها، فلا يكون عشوائياً في ذلك، كما لو أنه يريد أن يتخلّص من هذا المال، بل يبحث، وينقب، ويتحقّق، ثم يسلّم الأمانة إلى أصحابها، ويبرئ ذمته منها، فلعلّ هذه الأمانة هي التي جعلها الله سبباً في غناه، فيُحسن أداءها، ويشكر ربه. فإن أعطيتَ، اعط بعز، وإن أخذتَ، خذ بعز، وإن طلبتَ حاجةً من شخص، اطلبها بعز وثقة، فإن الله يعزّه عندما يجعله يلبي لك حاجتك، ويذله عندما يمسك عنك، فاطلبها بعزٍ، لأنك صاحب فضلٍ عليه، أكثر مما هو صاحب فضلٍ عليك. ثم إنه إن أعطاك، أغدق الله عليه أكثر، وإن أمسك عنك، أمسك الله عنه، وعوّضكَ خيراً مما كان سيعطيك. فقد أودع الله تعالى حاجات الناس عند بعضهم البعض، حتى يغدق عليهم أكثر، ويفتح عليهم أبواب الرزق من السماء، والأرض. وإن كان الله أعزّك بأن أودع حاجات الناس لديك، فاجعل الذي تعطيه يشعر بعزٍ وهو يأخذ، وأظهر له بأن هذا حقه، فإن لم تعطه، وتتركه في عزّه، خير لك وله من أن تعطيه وتُشعره بذل. فَمِن الأغنياء الذين فتح الله عليهم أبواب النعمة، يجنحون إلى إذلال المحاويج، ولا يعطون إلّا إلى الذي يتذلّل ويتضعضع بين أياديهم. فإن رأوا شخصاً عزيزاً، أمسكوا عنه العطاء حتى يجعلوه يتذلّل، فيعطوه. ويمسكوا عنه إذا أبى التذلل. ومنهم مَن يستخدم بعض الفقراء لغاياته الشخصيّة، نظير أن يعطيهم شيئاً من الزكاة، ولذلك نرى أن بعض ضعّاف النفوس، تحوّلوا إلى تُجّارٍ لجمعِ الزكاة، والصدقات، فيدّعون أنهم يأخذون من الأغنياء، ويوزّعون على الفقراء، وهي طريقة اتّخذوها للتجارة، ولمآرب شخصيّة يحققونها. وبذلك يجعلون من أنفسهم مانعاً بين الفقير، وبين وصول حقّه إليه، فيعطي لهم بعض الأغنياء من الزكاة، والصدقات كي يوصلوها إلى المحتاجين، لكنهم يزيدون ببعضها أرصدتهم، والبعض الآخر يجعلونه قسمة بين أبنائهم، وأنسبائهم، وأقربائهم، ومَن لهم بعض المصالح معهم. لذلك بدأت هذه السورة الكريمة بالنهي عن الاعتماد على ما لا يبذل الإنسان به جهداً، ثم

أخذت تتدرّج حتى جعلت الناس يبذون أموالهم خالصة في سبيل الله تعالى، دون أي مأربٍ دنيوي، بل لا تعلم يمينهم ما أنفقت شمالهم، ذلك أن المال آفة، إذا تحوّل إلى غاية، تقتل كل خصلةٍ حميدةٍ في الإنسان، حتى تقتلعه من قيمه ومزاياه الإنسانية، وتحيله إلى كائنٍ فاجرٍ بامتياز. لذلك ترى تفشّي المظاهر التديّنيّة في بعض المجتمعات، وهي علامات قلّة الدِّين، لأن الدِّين قد أمسى بالنسبة لهؤلاء مصدراً جيداً للغنى السريع الذي لا يحتاج إلى جهد على قدر ما يحتاج إلى إبداء مظاهر تديّنيّة، فترى كثرة الجبب والعمامات والذقون الطويلة، والجلابيب القصيرة، والمسابح، وانتقاء وحفظ بعض العِبارات التي من شأنها أن تعطي انطباعاً عن التديّن. فهذه المظاهر كلها تتكامل مع بعضها البعض، بل إن بعض هؤلاء يتمادى أكثر، فيُلمح لبعض الناس من ذوي المال، أو الجاه، أو السلطة، بأنه سيشفع له عند الله تعالى حتى يُدخِله الجنة معه، فبأي وجهٍ سيدخل الجنة، وسيده وولي نعمته لا يكون فيها، وأنه يسأل الله القهّار أن يتقبّل شفاعته، ويقول: خذ بيد حبيبك وادخلا الجنة. وهؤلاء يكونون من مختلف أشكال وألوان النفعيين من علماء، ودعاة، وأئمة، وخطباء، ومفتين، ولكنهم ضعفاء النفوس أمام المال، ولذلك فإن هذا العلم كله، لا ينفعهم، لأنهم يكونون قد وظّفوه للحصول على مكاسب دنيوية، على هذا النحو، يتدرّجون في النفاق بين أيدي المُقتدرين، فترى كثيراً من هؤلاء، يمرق عليهم هذا المكر، فيستجيبون لطلبات هؤلاء، ويغدقون عليهم الأموال والامتيازات. ولا يقتصر ذلك على هذه الفئة فحسب، بل الذين يفشلون في الوصول إلى المقتدرين، ينتشرون كالأوبئة بين بُسطاء الناس، ويجنّدون الدراويش والبُسَطاء من الناس، يسلّطونهم على الأحياء، والقرى، حتى يجمعوا لهم الأموال التي هم بأمسّ الحاجةِ إليها، فيُقدّمونها إلى هؤلاء، متوسّلين إليهم أن يشفعوا لهم عند الله بمغفرة ذنوبهم، وأن يقيهم عذاب النار، ويُدخلهم الجنة، فأصبَحَت بعض المدن تضجّ بالمؤذّنين، والخُطباء، والأئمّة، والمُفتين، وقرّاء القرآن، ومُستخدمي المساجد، وبعض الذين يجعلون علامات مميّزة على جباههم، ليعطوا انطباعاً للآخرين بأن ذلك من كُثرة السجود. إلى جانب تفشّي المراكز، والجمعيّات، والمقرّات

(الخيرية)، والإذاعات، واالقنوات المُتَلفَزة، وهذه الأماكن بدورها تضجّ بأصحاب اللُّحى، والجُبَب، والعَمامات، والذين ميّزوا جِباههم. فتبثّ البرامج التي تحضّ الناس إلى المُساهَمة في مشاريعهم، وفق أسوأ حالات الابتزاز، حيث ينتقون أشخاصاً بهم عاهات، فيُظهرونهم في وسائل الإعلام، ثم يطلبون من الناس أن يتبرّعوا من أجل علاج هؤلاء، وينشرون أرقام الاتصال بهم، وحِساباتهم المَصرفيّة، ليتم التحويل إليها، سواء من داخل البلاد، أو خارجها. فيجعلون هؤلاء ذرائع ليبتزوا الناس من خلالهم، نظير أن يعطوهم القليل، وإن قال أحدهم بأن ذلك قليل، قالوا له: ألم نخصّص سيارة لتأتي بك، وتُعيدك إلى بيتك، وهذا البِناء الذي تم تصويرك فيه، ألا أجرة له، ألا نفقات الماء، والكهرباء، والذين صوّروك، وأجروا معك الحديث، واستطاعوا أن يؤثّروا على الناس، وتواصلوا من خلال الهواتف، والمصارف، ألا رواتب لهم، أمّا أنتَ فقد حصلتَ على النسبة التي أصابتك دون أن تبذل أي جهد، أم أنك تريد أن تأخذ كل شيء، فيبلَع ريقه، ويضطر للسكوت. وهذا شكلٌ مُستَحدثٌ مِن أولئك الذين كانوا يضعون ذوي العاهات في محدّدة حتى يتسوّلوا لهم، ثم يعطونهم نسبة قليلة مما يتم تسوّله، وإذا رجعتَ إلى ماضي هؤلاء، لا عجب أن تراهم، أو ترى أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك مع ذوي العاهات قبل ذلك. أمّا إذا أرادت وسيلة إعلام مساعدة شخصٍ ما ألمّ به داء، ويعجز عن نفقات العلاج، فهذا عملٌ خيريٌ، على أن يتم إعطاء عنوان الشخص ذاته، فيتم الاتصال به شخصياً، أو إرسال المساعدة باسمه شخصياً على عنوانه، حتى يصله كاملاً، ويكون الأجر للقائمين على تلك الوسيلة، إن كانوا يبتغون الأجر من وراء هذا العمل.

ولذلك ترى أن هذه المُدن تُصاب بشللٍ من ناحية الإنتاج، والإبداع، والتقدّم، والازدهار. فلا شيء فيها سوى هذه المظاهر التي لا ينتج الإنسان من خلالها شيئاً، بل يبقى متطفّلاً ومُستَهلِكاً. فالتقدّم العلمي، التقدّم الطبي، التقدّم الهندسي، التقدّم الفني، التقدّم الثقافي، يكون فيها متدنيّاً، فلا شيء في هذه المُدن والمناطق سوى المراكز، والمقرّات، والجمعيات، ومظاهر التديّن، والأعمال الخيرية. فالتواكب مع سيرورة التقدّم والحضارة، يستوجب وجود مسارح، مراكز ثقافية، صالات سينمائية،

مراكز تعلّم المِهَن، جامعات، من أجل حصول الاعتدال في بنية المجتمع، وتجنّباً لحالات الغلو والتطرّف. ولذلك حتى الدول التي لا تأبه بالدين كثيراً في العالم، فإنها لا تسمح فقط بالمظاهر الثقافية، والفنية، والتقنية فقط، بل تشجّع بناء المراكز الدينية أيضاً، من أجل حصول التوافق والاعتدال. فإلى جانب قناة دينيّة إعلامية، قناة ترفيهيّة، وإلى جانب مسجد، مسرح، وإلى جانب مركز تحفيظ القرآن، مركز ثقافي عام. فلا تكون خَيّراً عندما تبني مسجداً فقط، بل عندما تبني مقرّاً لتثقيف الناس ثقافة عامة أيضاً، ويجعلهم ينفتحون على ألوان الآداب، والفنون الإنسانية العامة. وبذلك تُبنى المجتمعات السليمة، وتُجتثّ منها نزعات التطرّف والغلو التي تتفشّى في ظهراني المجتمعات التي تكون على نمطٍ واحدٍ:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]. وجاءت كلمة ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، مفتوحة شاملة كل ما في الدنيا، والأصل في كل ما هو موجود في الدنيا، هو الإباحة، وأما المنهيّات، فهي نادرةٌ جدّاً، أو أقل من جدّاً، وكذلك فالمنهي درجات، فأعلاها، التحريم باللفظ، وهذا يكون نادراً في القرآن، لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء من أجل أن ينعم به الإنسان، والمُباحات مشهّيات، والمنهيات منفّرات. فكل النساء مُباحات للرجل أن يتزوّج بهن، باستثناء عددٍ قليلٍ قد لا يتجاوزن أصابع اليدَين، من ملايين النساء، وهذا النهي هو لصالح الإنسان، وليس عليه، وقس ذلك على سائر المُباحات، والمحرّمات. ولكن رجال المظاهر الدينيّة وخاصة في المُجتمعات المُنغلقة، يسدّون أمام الناس أبواب كل شيء، ويجلدون أسماعهم بأن كل شيء في الدنيا، إنما هو فتنة، وحرام، ويُستَحسَن أن يزهد الإنسان في الدنيا، ولا يأخذ إلّا الحاجة القصوى، ويحذّرونهم بالتهديد والوعيد من تَرَفِ الدُّنيا، بل حتى أن بعض أصحاب المُخيّلات المريضة من هؤلاء، يبتدعون أحكاماً ويقولون بأنها أكبر من التحريم، وذلك عندما يقول الله بعدم القرب، أو باجتناب شيءٍ ما، فذلك يعني ما هو أكبر من التحريم. والحقيقة فإن التحريم اللفظي في القرآن، هو أغلظ وأكبر درجات النهي.

فإن قال لك: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣]. فذلك ليس أدنى من قوله ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. أو من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]. وبذلك فإن ارتكاب ما ورد في الآية الأولى، ليس أدنى إثماً من ارتكاب ما ورد في الآيتَين التاليتَين، بل العكس هو الصحيح، فإن ما ذُكِرَ في الآيتين التاليتين، هو أدنى إثماً مِمّا ورد في الآية الأولى.

والدليل أنه إذا قيل لك بأن شخصاً ارتكب إثماً أكبر من التحريم، وهو أن زوجته كانت في المحيض، ولكن شهوته غلبته، فوقع بها. أو أن أحد أصدقائه أقام احتفالاً بمناسبة نجاحه، أو ما إلى ذلك، وتفاجأ بوجود الخمر، وقد شرب قليلاً، هل سيكون ردّ فعلك على هذا الشخص مثله، إذا قيل لك بأنه تجاوز على إحدى مُحرّماته اللواتي تم ذكرهن في الآية الأولى.

والأمر الآخر أنك عندما تقول للشخص الذي أتى امرأته في المحيض ذات يومٍ، أو الذي شرب الخمر ذات يومٍ، بأن الـ (لا تقرب)، أو الـ (فاجتنب)، أكبر من التحريم، فكأنما تقول له لو أنه ارتكب ما تم ذكره بالتحريم، لكان أقل إثماً.

كذلك مثل أن يصعد خطيبٌ إلى المنبر، أو مَن يُفتي بأن الدخان حرام. وهذا يعني أنه قد جعل الذي قد دخَّنَ سيجارةً، متساوياً في الإثم مع الذي أتى على ما جعله الله تعالى مُحرَّماً بلفظ التحريم.

كما أنه يعني أن جميع المَحال التي تبيع الدخان، إنما تُتاجِر بِما حرَّم الله تعالى، وهي نسبة عالية جداً قد تصل إلى أكثر من تسعين بالمئة، فنادراً ترى دكاناً لا دخان فيه. فكأنما يُقال لهؤلاء جميعاً، بأنهم لو باعوا لحم الخنزير لَما كان الإثم أكبر، فكلاهما حرام.

ويمكن قياس ذلك على مختلف ما نراه في الحياة اليومية، عندما يتدخّل أمّيو العِلم الشرعي في الحلال، والحرام، والفتية، والخطبة، والإمامة، ويتّخذون من ذلك ذريعةً لتحقيق مآرب شخصية.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥].

بل إن الله سبحانه وتعالى لا يأذن حتى لرسوله الأكرم أن يحرِّم الحلال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١].

وفي ذلك بيان الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

فَما قال الله تعالى عنه بأنه أذى، فهو أذى، ويمكن أن يكتشف الطب بأن التدخين أذى، فاستناداً على التجارب الطبّية يمكن القول بأنه أذى، أو أنه يُسبِّب هذه الأمراض، والاكتفاء بذلك، فلكل حالٍ درجاتها التي جاء فيها فِصال الله سبحانه وتعالى.

ومن الطبيعي أن تنفرز مثل هذه الحالات الشاذة، إذا انغلقَت أمام الناس أبواب الوعي والاستنارة، وأصبحوا في حالةٍ منغلقةٍ، تقتصر على ما يقول هؤلاء لهم، سواء في المساجد، أو المراكز الدينية، أو وسائل الإعلام.

فيخرج هؤلاء من هذه الأماكن، وقد جُلِدوا بكل ما من شأنه أن يسدّ عليهم أبواب الحياة، وشيئاً فشيئاً يجنحون إلى الغلو في الدين، لأنهم يجدون أن كل شيءٍ من حولهم لا يمت إلى الدين بصلةٍ، وفق ما تم ترسيخه في أذهانهم، فيكون الغلو نتيجة طبيعية، وتتويجاً لِما جُلِدوا به. أو يكون التفكير في الخروج من هذا المجتمع المنغلق الذي يسدّ أبواب الحياة على بعضه البعض، واللجوء إلى دولٍ أخرى هَرباً من هذا الانغلاق والحرمان من حقوق الإنسان في الاستمتاع بالحياة.

الباب الرابع
الإيمان الحق

[٤]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾

الحقيقة المؤكّدة التي يُخبركم الله تعالى بها، هي أن: - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين يتقون الله، ويصلحون ذات بينهم، ويطيعون الله ورسوله، وتوجل قلوبهم بذكر الله، ويزدادون إيماناً عندما تُتلى عليهم آيات الله، ويجعلون اتكالهم على الله وحد، ويقيمون الصلاة، وينفقون في سبيل الله مِمّا رَزَقَهم به - ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾.

فقد ارتقوا إلى حقيقة الإيمان، من خلال أعمالهم الصالحة التي تفاعَلَت مع الإيمان الذي في قلوبهم. فـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ استطاعوا أن يُفعِّلوا الإيمان إلى أعمالٍ صالحةٍ، فكان أن صلحت قلوبهم، وصلحوا بأعمالهم الصالحة، في علاقةٍ تكامليةٍ بين ما في القلب، وبين ما يتفاعل معه، ويتحوَّل إلى عملٍ.

وهذه مسألة غاية في الأهميّة تعلِّمك إياه هذه الآية الكريمة، وهي أن الإنسان مهما كان فاسداً، فإن الإيمان الحقيقي يمكن له أن يُصلحه، إذا أخلَص النيَّةَ، وأن القلب مهما كان على فسادٍ، فبمقدور الإيمان أن يُطهّره، وينقّيه.

لكن لماذا هي مسألة غاية في الأهمّية؟ لأنها تبيّن للإنسان بأنه مهما أوغلَ في المعاصي، فيمكن له أن يُخلص النيَّةَ، ويُصلح، ويمكن له أن يُجدّد ويُطهّر قلبه بمسك الإيمان.

الأمر الآخر هو ألّا تفقدَ أمل الصلاح بأي إنسانٍ مهما كان سيّئاً، كذلك أن تلبث على حذرٍ ويقظةٍ حتى تُحافظ على إيمانك، وتكون في زيادةٍ منه، فكلّما ازددتَ إيماناً، ازددتَ صَلاحاً، وبالتالي ازددتَ إشراقاً، ازددتَ نضجاً، ازددتَ امتلاءً بالحياة، ازددتَ قرباً من الله، ازددتَ معرفة به.

وهذه هي السعادة الحقيقية التي يمكن لإنسانٍ أن ينعم في محرابها، لأن ذلك من شأنه أن يجعله يكتشف لحظات الحياة الأكثر بهجة ويعيشها، ويستمتع بها.

فيشهد رب العالمين بأن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾. أي بلغوا حقيقة الإيمان قولاً وفعلاً، بشهادةٍ من الله عز وجل، فأثابهم بأن جعل ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وذَكَرَ الله سبحانه وتعالى هنا ﴿رَبِّهِمْ﴾ والربُّ من أسماء الله الحُسنى، ويشير إلى صلةٍ دقيقةٍ بهم من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى إلى حُسن تربيته لهم، فهو ربُّك لأنّه يربّيك التربيةَ الحَسَنة التي تسلم وتصلح بها. لذلك يُقال عن الأب: رب البيت، كونه يربِّي مَن في البيت.. تُبيّن لك الآية الكريمة بأن الله سبحانه وتعالى هو ربُّ العالمين، وهو الذي أرشدهم، ومرَّرهم في مراحل، وقد استجابوا لهذا الإرشاد الحكيم من ربِّهم، واجتازوا المراحلَ بنجاحٍ حتى بلغوا حقيقة الإيمان، وقد أعطاهم الله سبحانه وتعالى شهادةً بذلك، فهذه شهادة الله لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

والإنسان لا يحصل على الشهادة حتى تكون لَقَباً له فقط، بل لينتفع بها، فما هو النفع من شهادة الله تعالى شأنه، لهؤلاء؟ النفع، هو أكبر نفع يمكن للإنسان أن يبلغه على الإطلاق، النفع الذي لا أحد يقدر أن يمنحه سوى الله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ مزايا، وكَرامات، وخصائص، وخيرات كثيرة في الدنيا والآخرة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فأعلى ما يمكن لك أن تبلغه بأكبر شهادة بشريّة، قد تجعلك مقرّباً من ولي الأمر، لكن شهادة الله، تجعل لهؤلاء ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فذلك عهدٌ لهم من الله جلّ ذِكرُه.

فعندما يعدك شخصٌ مشهودٌ له بالصِدقِ والوفاءِ بشيءٍ ما، فيكون ذلك بمثابة الدَين الذي سيفي به، لكن ورغم كل تلك الإمكانات المُتاحة لديه، وتحتَ تصرّفه، قد يطرأ أمرٌ مُباغِتٌ يتجاوَز قدراته وإمكاناته، فيعجز عن الوفاء، فإن الله تقدَّسَت أسماؤه هو الذي يعد هؤلاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

فقُدُرات الله سبحانه وتعالى مفتوحة لا تحدّها حدود، وعهده واقعٌ لا محالة، ولا شيء قط يمكن له أن يحول بينه وبين وقوعه. فهؤلاء الذين شهد لهم الله تبارك وتعالى بحقيقة الإيمان: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ولا بدّ لهم أن يظفروا بها.

﴿وَ﴾ - إضافة إلى ذلك -: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، وهذا عهدٌ آخر من الله بـ ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ما اقترفوا من ذنوبٍ، كما لو أنهم لم يقترفوها قط، فتُمحى كاملة من صحائفهم، وهذه بِشارةٌ كُبرى من الله لهم، بأنها مُحيَت عنهم تماماً، وعليهم أن ينسوها، ولا يفكّروا بها لحظة واحدة.

وليس هذا فحسب، بل: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وهذا أيضاً عهدٌ من الله عز وجل، بأن يجنّبهم كل أشكال الذل والخنوع في الحياة، وييسّر لهم أبواب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

فهؤلاء لهم كَرامات عند الله، وهم أصفياء الله تعالى في كل زمان ومكان، فييسّر الله لهم أسباب الحصول على رزقهم بكرامةٍ، فيعيشون بكرامةٍ، وكذلك يكونون كُرَماء، فالرزق الكريم فيه بركة من الله، ويتيح للإنسان أن يكون كريماً.

وهذا نقيض الرزق غير الكريم الذي يجعل من صاحبه ذليلاً، وكذلك يجعله بخيلاً. ومن الوجه الآخر لـ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فإن هذا الرزق المُبارَك، يقيهم المصائب التي من شأنها أن تستنفد كل ما بحوزتهم من أموال.

فشخصٌ يكسب في الشهر ألف درهم بالحلال، وشخصٌ يكسب عشرة آلاف درهم بالحرام، فأمّا الشخص الأول، فيستمتع بإنفاق هذه الأموال، وينعم بها، ويسرّ بها نفسه، وعائلته، وكذلك يُكرِم الناس، أمّا الثاني، فتحلّ عليه المصيبة، تلو الأخرى، وتأخذ معها ما تأخذ حتى أنه لا يستطيع أن ينعم برغَد العَيش، أو راحة البال، كما الأمر بالنسبة للأوّل.

والأمر الآخر أن الأوَّل تكون له كرامة حقيقيّة لشخصه، في حين أن الثاني، يفتقد هذه الكرامة الحقيقيّة لشخصه، وإن بَدَت مظاهر كرامة، فهي تكون مُزيّفة،

وبالتالي يمكن لهذه المصائب التي تحلّ عليه نتيجة المال الحرام، أن تسبّب له بعض الأمراض المُزمنة، أو تودي بحياته، مثل الحرائق، أو الحوادث، وأحياناً الانتحار.

ونرى هنا أن هذا المحوَر من السورة الكريمة، كما أنه بدأ بالمال مع بدء الآية الأولى من السورة، فإنه كذلك انتهى بالمال مع خاتمة الآية الرابعة من المحوَر. وما جاء بين بدء الآية الأولى، وخِتام الآية الرابعة في المِحوَر، يُركّز على أهميّة ألّا تكون الأولويّة للمالِ بالنسبةِ للمؤمنين، وتكون الأولويّة للتقوى، وصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله، ووجل القلوب بذكر الله، والسعي إلى زيادة الإيمان من خلال آيات القرآن، والتوكّل على الله، وإقامة الصلاة، والإنفاق مِمّا رزقهم الله خالصاً في سبيله.

ونظير ذلك، فإن الله يشهد لهم بحقيقة الإيمان، ويعدهم بدرجاتٍ امتيازيّةٍ في الدنيا، والآخرة، ومغفرة كل ما ارتكبوا من ذنوب جملةً واحدةً من صحائفهم، ثم يرزقهم رزقاً كريماً، ويجعلهم يحظون بتكريم الناس، وتقديرهم بشكلٍ حقيقيٍ لا زيف فيه.

الباب الخامس

الخروج من البيت

[٥]

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

﴿كَمَآ﴾، كلمة مؤلّفة من ثلاثة حروف، ولكنها تكتنز في طيَّاتها بعالمٍ من المعاني والدلالات. وكلماتُ الآيةِ مُتناسقة ومتناغمة مع بعضها البعض، وجاءت كل كلمة بدقّةٍ في موضعها، سواء بالنسبة للكلمة التي تلتها، أو التي سبقتها، لتذوّق لذّة التنسيق القرآني في الآية، وبلاغة الكلمات المتوافقة مع بعضها البعض، لتتكلّل من ذلك جملة قرآنية بالغة الجمال، بالغة البيان، بالغة السبك الفني، فلا تشوبها ركاكة، ولا هشاشة بأي درجة من الدرجات.

لتنشرح صدورُنا بقراءة هذه الآية الكريمة، ونحن نلج رحابها الطاهرة: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

﴿كَمَآ﴾، مثلما ﴿أَخۡرَجَكَ﴾، لم يقل: (خرجتَ)، لأنه يكون قد خَرَجَ طَوعاً من تلقاء نفسه، ولكن: ﴿أَخۡرَجَكَ مِن بَيۡتِكَ﴾، في مكة الذي ولدتَ وترعرعتَ فيه، ولك فيه ذكريات أثيرة، وكان فيه تعارفك الأول مع المرأة التي شكّلَت مرحلة تحوّل كُبرى في حياتك الاجتماعيّة، أعطتكَ كل ما يمكن للمرأة أن تعطي للرجل، وكانت أول امرأة آمنَت بك وآزرتك بكل قوّة نعومة المرأة، عندما كذَّبك بنو قومك، فكنتَ عند تلقّي الوحي تجري إليها، وأنتَ تقول: "زمّلوني.. زمّلوني". فتحتويك، وتُهدّئ من روعك، وهي تقول لك: (ابشر يا بن عمي، فو الله الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على النوائب، وتَصدُق الحديث،

وتؤدّي الأمانة). وهناك كانت تأخذك إلى ابن عمها ورقة بن نوفل المعرف بالعلم في مكة، وهي تثق به، فتقول له: (يا بن العم اسمع من ابن أخيك).

وكان ورقة يسألك أسئلة، وأنت تجيبه، فيقول لك: (هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى يا ليتني فيها جزعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً).

أجل: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ - في مكة بعد ثلاثٍ وخمسين سنة فيها -: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، من أكثر بقاع الأرض حباً إلى قلبك.

وهنا مسألة دقيقة جداً، وهي أن أمر الله عز وجل عندما يقع، وفق قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠]. فإن الله يجعل لذلك أسباباً، فقد جعل الله أسباباً لتحقيق أمره في إخراج رسوله من مكة إلى المدينة، لأن ذلك فيه خير له حتى ينشر الرسالة في أفقٍ أوسع، ولولا ما لقيه من ضيقٍ شديدٍ عليه لَما خَرَجَ.

يبيّن له الله تبارك وتعالى هنا، وبعد نحو سنتين من هجرته، وبعد النصر الكبير الذي تحقَّق في معركة بدر: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾. والحق خير، والحق نصر، والحق ازدهار، ولذلك بدأت علامات الخير، وبدأت علامات القوة، وبدأت علامات النصر منذ وصوله واستقراره في المدينة، وما حصل في معركة بدر الكُبرى، ولكن كلمة ﴿كَمَآ﴾ لا بدّ أن تعيدنا إلى الخلف، لأنها سوف تتكرّر.

ومادام الخير قد تحقّق في الـ ﴿كَمَآ﴾ الأولى، فإنه أيضاً يتولى فيما يعقبها من أي ﴿كَمَآ﴾ ترد بعدها، سواء بطريقةٍ مُباشَرة، أو غير مُباشَرة، ونعني بذلك، حتى لو انهزم المسلمون في ظرفٍ ما، كما سيحدث في معركة أُحُد، ويُمنَون بالهزيمة، لأنّهم أهملوا الأسباب التي تؤدِّي إلى الخير، والقوَّة، والنصر.

ولكن ذلك لم يكن كل شيء، كما أن ما سيقع على مدار التاريخ بالنسبة للمسلمين، لا يكون كل شيء. فقد تلقّى المسلمون درساً بليغاً من الهزيمة،

واستمدّوا منها معالِم القوَّة، هذه القوَّة التي تمخَّض عنها الانتشار الإسلامي الكبير في مشارق الأرض ومغاربها.

فليس المهم أن تخطئ، ولكن المهم أن تتعلّم درساً من خطئك، فتزداد انتباهاً، وحذراً، وتُحصِّن نفسك حتى لا يتكرَّر الخطأ، وبذلك تكون قد وظَّفتَ الخطأ، حتى لا يتكرَّر أولاً، ثم حتى تُصبح أكثر قوّةً، وأكثر وعياً، وأكثر تجربةً، وأكثر نضجاً، وأكثر امتلاءً بالحياة. ولذلك، فإن الآية الكريمة تؤسِّس لديك هذه القاعدة، حتى لا ترضخ للاهتزازات الكُبرى التي قد تواجهك، بل تكون أكبر، وأنضج من أي اهتزازٍ قد تتعرَّض له في مسيرة حياتك، فتكون قادراً على احتوائه، والسيطرة عليه، وبالتالي توظيفه توظيفاً سليماً، تُصبح من خلاله أكثر قوّةً، لا أن تدعه يحتويك، ويسيطر عليك، ويجعلك يائساً، منهزماً، منكسراً، مستسلماً، خنوعاً.

وهكذا، عندما يراك الله سبحانه وتعالى متصدِّياً، ومواجِهاً، فإنه ينصرك، ويكون معك، ويمدّك بالقوّة والعزيمة حتى تتغلَّب على هذا الاهتزاز الذي تعرّضتَ له، فتخرج منه مُعافى.

فالآية تُنمِّي فيك خصلة المواجهة، وتعلِّمك بأن الذي ينهزم لمرة، ينهزم مرّات، والذي ينهزم أمام عارضٍ، ينهزم أمام عوارض، حتى تتعوّد نفسه على الهزيمة، فتراه لا يقوى على مواجهة شيءٍ من القلق يعتريه قبل النوم، فيهرع إلى قرصٍ منوّمٍ، أو يعجز عن مواجهة واستيعاب حدثٍ يتعرّض له في موقفٍ ما، فتراه ينفعل ويتناول قرصاً مهدّئاً، بل قد ينجرّ خلف تداعيات هذا الوهن حتى أنه يستفزّ من مجرّد نظرةٍ، أو حركةٍ من شخصٍ ما، أو يحتقن عندما يستمع إلى كلمةٍ نقديةٍ في مجلسٍ ما، فيتكهَّن بأنها موجَّهة إليه. فكلّما ازداد وهناً، استبدَّت به هذه الحالة السلبيّة، وأفسدت عليه كل حياته، حتى أنها تبدأ بالتدخّل في الأشياء الصغيرة، بل حتى في لقمة طعامٍ يأكلها، أو شربة ماءٍ يشربها.

إذن: تذكَّر يا محمّد، وقل لقومك أن يتذكَّروا جيداً، وليتذكَّر المؤمنون كافةً في كل زمانٍ ومكان: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

تألَّفت الآيةُ من جملتَين، الأولى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، خصَّت الخروج الأول من مكّة. والثانية: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، خَصَّت المواجهة مع جيش المشركين في معركة بدر، وتفصل سَنَتان من الزمَن بين الجُملَتَين.

وهنا ترى كيف أن الكلمة الأخيرة من الآية امتلأت بالمعاني التي استمدَّتها من الكلمة الأولى فيها أولاً، ثم من الكلمات التي تَلَتها.

الفريق، هو المجموعة، وكل مجموعة تتفرّد باتجاهٍ مُعَيَّنٍ، فإنَّها تُشَكِّل فريقاً، وهنا شكَّل الكارهون لمواجهة المشركين الذين بدأوا يزحفون إلى المسلمين، (فريقاً) كارِهاً لهذه المواجَهة، بموازاة الفريق المحب للمواجهة مع هؤلاء البالغة أعدادهم نحو ألف مقاتلٍ مجهَّزٍ تماماً لخوض المعركة، نظير نحو ثلاثمائة من المسلمين الذين ما كانوا على استعدادٍ لخوض المعركة معهم.

وحتى نكون أكثر قرباً، من أجواء هذه الآية لنستخلص منها الدرس، لا بدّ من التعرّف على شيءٍ عن طبيعة هذه المعركة الانتقاليّة التحوّلية الكُبرى في التاريخ الإسلامي. فقد وقعت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أراد أن يستردَّ بعض ما استولى عليه المشركون من أموال المسلمين الذين هاجروا من مكّة، إلى المدينة سرّاً كي يلتحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلّم.

والهجرة لم تكن سهلة، سواء بالنسبة للذين هاجروا مع النبي، أو الذين بدأوا يُهاجرون سرّاً من بعده، حتى يلتحقوا به، فكان المُشرِكون يترصّدون المؤمنين الذين كانوا يختفون من المدينة مع الأيام والشهور، ويلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلّم، حتى يؤازروه ويكونوا قوّة إلى جانبه، إضافةً إلى الأنصار الذين فتحوا لهم قلوبهم، وبيوتهم، وأموالهم، وأصبحوا يُشكّلون نواة قوّةٍ إسلاميّةٍ يقودها محمّد عليه الصلاة والسلام من أجل نشر الدعوة الإسلامية.

ونحن الآن بعد سنَتَين من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقد بدأ المُشركون يُزيدون التضييق على أتباع مُحمّدٍ، عليه الصلاة والسلام، الذين لبثوا في

مكّة، وخلال هذه المُدَّة الزمنيَّة، استطاع الكثيرون أن يخرجوا سرّاً من مكّة للالتحاق بالنبي وصحبه.

فقد عَلِم النبي، بأن قافلةً تجارية للمشركين بقيادة أبي سفيان قادمة من الشام، وطلب من صحابته أن يخرجوا ويعترضوا هذه القافلة، ويستردّوا أموالهم في محاولةٍ لاسترداد تلك الأموال التي استولوا عليها، وليس لأخذ أموال المشركين منهم.

والأصل في التشريع الإسلامي، عدم جواز الاعتداء على ممتلكات الغير، مهما كانت مُعتَقداتُهم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالجَوَاز هو أن تستردّ مالك فقط، دون زيادة، سواء من المسلم، أو غيره إذا كان قد استولى عليه، سواء بحضورك، أو بغيابك.

فإذن، لم يكونوا ذاهبين للمعركة، بل لاسترداد أموالهم من القافلة التجارية التي كانت قادمةً من الشام، أي يتعرّضوا لها، ويسترجعوا أموالهم.

لكن الذي حصل، هو أن قائد القافلة، قد تسرّب إليه الخَبَر، فغيَّر مسار القافلة، واستطاع أن ينجو بها، وكان معه في هذه التجارة، عمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل الزهري، وعندما وصل الخَبَرُ لأبي جهل، أراد أن يشنَّ هجوماً على المسلمين في المدينة، فجهَّز على الفور جيشاً من نحو ألف مقاتل، واتجهوا إلى المسلمين.

وقد عَلِم المسلمون بذلك وهم في الموقع الذي حضروا إليه من أجل القافلة، فرأوا أنفسهم في مواجهةٍ لم يحسبوا لها حِساباً، فقد جاؤوا لشيءٍ، وتفاجؤوا بشيءٍ آخر. ودوماً أريد أن أتأمّل هذه المسألة جيداً، ويبدو لي أن ذلك قد حصل حتى لا يعتاد المسلم على السهولة في استرداد حقوقه، بل عليه أن يسعى، ويبذل الجهد للحصول عليها. فإذا كان الله تعالى ذكره، قد يسَّر لهم أمر التعرّض للقافلة، لعلّ ذلك كان تكرَّر، وتقاعَس المسلمون، وربما جعل ذلك البعض يعتمد في معيشته على التعرّض للقوافل لأخذ الأموال.

ولكن الله سبحانه وتعالى، لم يأذن لذلك أن يتم، فلم يُمكِّن المسلمين من التعرّض لقافلة المشركين، رغم أنها كانت محمَّلة بأموالهم، فيسَّر الله أمر نجاتها، وأمَرَ المسلمين بمواجهة جيش المشركين، والتصدّي لهم، وعدم الهزيمة.

ثم أبعدَ فكرة المال من حِسابهم، حتى لا يتعزَّز حبُ المالِ في قلوبهم، بل يكون الإيمان فوق كل اعتبار، ولا يعلوه شيء، ولا أولويّة إلّا له.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ للمرة الأولى ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ الأول في مكة، خروج هجرة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، والآن أيضاً أنت في الخروج الثاني، من بيتك الثاني في المدينة، خروج مواجهة مع المشركين الذين لحقوا بك لينالوا منك، وليثنوك عن نشر الدِين حتى وأنت في المدينة، ولم ترق لهم حتى محاولتك لاسترداد أموال أصحابك منهم.

فـ ﴿كَمَآ﴾ أنه كان معك في هجرتك، يكون معك أيضاً في مواجهتك للمشركين، و﴿كَمَآ﴾ أعطى ذاك، يعطي هذا.

إذن النبي صلى الله عليه وسلّم الآن في الخروج الثاني في بدر للمواجهة، حتى يصدّ العدوان على الحدود، ويمنعهم من دخول المدينة وقد ابتعد عن بيته في المدينة مسافة نحو ١٦٠ كم، التي تبعد بين المدينة، وأرض بدر التي هو عليها الآن.

ولذلك يمكننا تسمية هذه الآية بـ (آية الخروج من البيت). وهي دعوة لعموم المسلمين في كل زمانٍ ومكان للخروج من بيوتهم، وعدم التقاعس في البيوت، سواء بالخروج للعمل، أو للعِبادة، أو لصِلة الرحم، أو لصدّ عدوانٍ، أو لأي واجبٍ اجتماعي، أو إنساني.

ولا يقتصر الخروج عليك فحسب، بل تُخرج عيالك أيضاً، سواء في نزهة في بلدتك، أو إجازة في بلدة أخرى. وإذا تم التضييق عليك في موطنك، وأعاقك ذلك عن الإنتاج والعمل، فيمكنك الخروج من البلاد، وكل ذلك تجنّباً للتقاعس واليأس. فالحَرَكة، تكون سبباً لحلول البَرَكة، وعندما يتحرّك الإنسان، فإن بَرَكة الله تحل عليه، وتُبارِكَ حِراكه.

فعليك أن تكون دائم الحِراك، وتكون متفاعلاً مع الإيقاع الاجتماعي، وتُحَقّق حضورك وتواجدك في المُجتَمَع الذي تعيش فيه.

الباب السادس

البيان والجدال

[٦]

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾

كلمة المُجادَلة في الآية، تُشير إلى الخلاف، كلمة توحي بالإثارة، فقد تحوّل الحديث بين مُحَمّدٍ - صلى الله عليه وسلم - وبين هذا الفريق من أصحابه إلى جِدالٍ، أي يبيّن لهم ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، فيُجادِلونه فيه.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾. يُجادلك أصحابك ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ يا مُحَمَّد، ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾، أصبح بائِناً. وهذه مسألة غاية في الدقّة يبيّنها القرآن وفق منهجٍ تربويٍ، يرتقي الإنسانُ المسلمُ مِن خِلاله، فيكون يَقِظاً، وقوي الملاحظة، يستوعب الذي يسمعه، ويستوعب الذي يقوله.

فبعضُ الناسِ تقول له شيئاً، فيردّ عليك بشيءٍ آخرٍ كما لو أنه لم يسمعك، تبيّن له أمراً، فيحيد عنه، كما لو أنه لم يَبَن له. من هنا فإن القرآن يصنع أناساً حقيقيين، يقظين، جادّين، مستوعبين لِما يقولون، ولِما يُسمعون، يتحدّثون بمسؤولية، ويستمعون بمسؤولية.

فَمِنَ الناسِ ناسٌ يعتقدون أن التغابي فطنة ودهاء، فيجعلونه منهجاً في حياتهم، فدوماً يقولون بألسنتهم شيئاً، وتكون قلوبهم على النقيض، يوافقونك على شيءٍ بحركاتهم، أو بألسنتهم، ويرفضونه في قلوبهم. يقول أحدهم لشخصٍ: سآتيك في ساعة كذا، ولا يأتيه.

يعده بأنه ينتظره في ساعة كذا، فيذهب الشخص إلى موعده، فلا يراه. يتّفق مع شخصٍ على قضاء عملٍ ما قد أوكله إليه في وقتٍ مُحدَّدٍ، فيذهب الشخص في موعده لاستلام حاجته، فيراه لم يبدأ العمل به بعد. ثم يتذرّع أيضاً بحججٍ غير

صحيحة، مثل أنه كان مريضاً، أو أن الأجهزة التي يعمل بها تعطَّلَت، واستغرق في إصلاحها وقتاً. وترى شخصاً يسافر لقضاء إجازة، فيقول بأنه مسافر للعلاج. وتكمن الطامةُ الكُبرى، عندما يزداد أعداد هؤلاء في المجتمع، وتتفشَّى هذه الحالة حتى تتحوَّل إلى ظاهرةٍ اجتماعيةٍ لدى نسبةٍ عاليةٍ من أبناء هذا المُجتَمَع، حتى يتحوَّل المُجتَمَعُ إلى أناسٍ يكذبون على بعضهم البعض، يتحايلون على بعضهم البعض، وهم يعتبرون أن ذلك من الفطنة والدهاء، ومَن لم يكن على ذلك، فلا فطنة، ولا دهاء لديه، بل هو كائنٌ بَسيطٌ ساذَج.

وعندما تُصبحُ الحالةُ الازدواجيّة عامةً في مُجتَمَعٍ ما، فإن الإنسان الطبيعي الحقيقي يواجه معاناة قصوى، لأنه يمضي عكس التيار، فيُهَمَّش، ويُعتَزَل، بل قد يُحرَم حتى من فرصة عمل.

وإن لم يكن مُحصَّناً بثقافةٍ إيمانيةٍ قويّةٍ، قد يرضخ للواقع، ويَتَنازل عن قِيَمه، فيمضي وفق التيَّار. ولذلك يعيش المُصلحون في هذه المُجتمعات المُزدَوَجة، في شبه عُزلةٍ بسبب مُقاطعة الناس لهم، وأحياناً ليس من المُجتَمَع فقط، بل حتى من بعض أفراد أَسَرِهم. وقد حَصَلَ ذلك حتى مع الأنبياء الذين هم أعمدة الصلاح في مجتمعاتهم، فكانت زوجة نوح عليه السلام، تقول بأنه مجنون، وكذلك عصاه ابنه، وكانت زوجة لوط عليه السلام، تعيش بازدواجٍ معه، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يوجّه الإنسان كي لا يكون مُزدَوَجاً، بل يكون حقيقياً وواضحاً، وأن القوة كل القوة تكمن في ثنايا الحقيقة.

فالله يسمع ما يقوله الإنسان، ويتم تدوين ما يقول سواء أكان له، أو عليه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

من هنا، فإن الإسلام، يؤسّس لمجتمعاتٍ بشريةٍ سويةٍ وطبيعيّةٍ.

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: "اعْرِفْ وِكَاءَهَا، أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا، وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا، فَإِنْ

جاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ" قَالَ: فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ، أَوْ قَالَ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: "وَمَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا" قَالَ: فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قَالَ: "لَكَ، أَوْ لِأَخِيكَ، أَوْ لِلذِّئْبِ"(١).

وجاء في الموطأ: (حَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ أَنَّهُ مَرَّ بِهِ قَوْمٌ مُحْرِمُونَ بِالرَّبَذَةِ فَاسْتَفْتَوْهُ فِي لَحْمِ صَيْدٍ وَجَدُوا نَاسًا أَحِلَّةً يَأْكُلُونَهُ فَأَفْتَاهُمْ بِأَكْلِهِ قَالَ ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ عَلَى عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ بِمَ أَفْتَيْتَهُمْ قَالَ فَقُلْتُ أَفْتَيْتُهُمْ بِأَكْلِهِ. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ لَوْ أَفْتَيْتَهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ لأَوْجَعْتُكَ)(٢).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾. كذلك يُجادلونكم ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾، أيها الدُعاة إلى ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، من أمّة مُحَمَّدٍ في كل زمانٍ ومكان ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾، وأصبح جلياً لا يخفى على أحد، ولكنه جِدالٌ فقط للجِدال.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

﴿كَأَنَّمَا﴾، كلمة تشبيهيّة، أي كما لو أنّهم ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾. فأصبحوا يكرهون التصدّي لجيش المُشركين إلى درجة شعورهم كما لو أنهم ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾. أي: يتخيّلون بأنهم لن يعودوا إلى بيوتهم، فهم ﴿يَنظُرُونَ﴾، يرون بأن المواجهة تعني الموت، ﴿بَعۡدَ﴾ كل ﴿مَا تَبَيَّنَ﴾. و﴿مَا﴾ الذي ﴿تَبَيَّنَ﴾؟

﴿تَبَيَّنَ﴾ بأن الرسول صلى الله عليه وسلّم أخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى، وَعَدَه بالنصر على هؤلاء، مهما كان عددهم، ومهما كانت قوّتهم، وأن مواجهة جيش المشركين، خير لهم من استرداد أموالهم من خلال التعرّض للقافلة. فهناك، حتى لو استردّوا أموالهم، قد يُقال بأنَّهم تعرَّضوا بنحو ثلاثمائة شخصٍ لقافلة تجارية مؤلفة من نحو أربعين شخصاً، وهي غير مُعدّة للقِتال، بل للتجارة.

---

(١) صحيح البخاري ٩١.

(٢) الموطأ، الإمام مالك، باب مَا يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ أَكْلُهُ مِنَ الصَّيْدِ.

ثم إن ذلك لا يعطي انطباعاً عن قوّتهم، والأمر الآخر، قد لا يسكت المشركون، وهم الأقوياء، عِدّةً وعَدَداً، ويشنّون هجوماً عليهم، ويُحقّقوا عليهم نصراً. فمواجهة الجيش الآن، فيه خيرٌ كثير، والله قد وعَدَ رسوله بالنصر، لكن رغم ذلك فهؤلاء المُتردّدون من صحابتك مازالوا ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

وقد تحقَّق وعدُ الله لهم، فأحرزوا نصراً لم يكن يتخيّلونه، بل كان من شأن ذلك أن يكسر شوكة المُشركين جميعاً، ويجعلهم يهابون المسلمين مهما كانت أعدادهم قليلة، ومهما كانت قوّتهم متواضعة، نسبة إلى أعداد وقوّة المشركين.

وهذه علامة كُبرى من شأنها أن تجعل كثيراً من المشركين يستيقظون بها من غفلة الجهل، ويؤمنون، كما حَصَلَ مع كثير من رؤوس المشركين ورموزهم. فكيف بنحو ثلاثمائة شخصٍ لم يتجهَّزوا بالأصل لخوض المعركة، بل للتعرّض لقافلةٍ تجاريةٍ تضم بضعة فرسان. وقد تحوَّل ذاك اليوم المجيد إلى علامةٍ فارقةٍ في تاريخ المسلمين.

تتعلّم من هذه الآية الكريمة، كيف تكون شُجاعاً مادمتَ على حق، مهما كانت إمكاناتك متواضعة، وألّا تتردَّد من المواجهة إذا تعرَّضتَ لأذى، فلا تركن إلى الخنوع والاستسلام، بل تخرج من بيتك كله إذا استدعى الأمر، سواء للبحث عن فرصة عمل جديدة، أو للهجرة إلى أرضٍ أخرى، أو للدفاع عن دينك، أو موطنك، أو أهلك، أو مالك، وكذلك إذا أراد أحدٌ أن يعتدي عليك، أن تصدّه، إن كان كلاماً، تصدّه بالكلام، وإن كان فعلاً، تصدّه بالفعل.

فالقول نظير القول، والقوة نظير القوة. فتبيّن بأنه كاذب، وتُظهر الحقيقة، إن كان حقاً كاذباً، أما إن كان صادقاً، فرغم خصومته معك، عليك أن تشكره، وتصلح من شأن نفسك، وتسكت دون أن تُكذّبه وهو صادق، أو تردّ كَذِباً على صدقه.

الباب السابع

ورود الحياة وأشواكها

[٧]

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

ما يريده ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿لَكُمْ﴾، يكمن فيه الخير، حتى لو أتى وفق تدرّج ليبلغ درجاته المُتقدِّمة.

﴿وَ﴾ - ما - ﴿تَوَدُّونَ﴾، حتى لو حقَّقتم فيه الخير الذي تبتغونه، فهو خير ناقص منزوع البَرَكة، وسوف ينقلب عليكم، فـ ﴿تَوَدُّونَ﴾ لو أنه ما كان.

تُعالج الآية، مسألة العُجالة التي يكون البعضُ عليها، كالذي يفتح محلاً، ويرفع أسعاره حتى يجني أكبر مبلغٍ من المال في وقتٍ قصير، وهو يتوهَّم بأنه لو باع خمس قطع، سيكسب منها أكثر من الذي يبيع عشرين قطعة. وهذا صحيح، لكن مع الأيام، ستقلّ أعداد الذين يشترون منه، وترتفع أعداد الذين يشترون من لآخر بسعر معتدل، فالنتيجة تكون أنه كان في وهم، وأن الآخر هو الذي يكسب أكثر منه، وإن لم يكن يكسب ظاهِراً في ذاك الحين، كما كان يكسب الأول، لكن الآن بات محله يضجّ بالمشترين، في حين أن الأول، لا يكاد يدخل محله شخصٌ إلّا مُصادفة، فيضطر مع الأيام أن ينسحب من السوق كله.

وهكذا كان الأمر بالنسبة لمعركة بدر الكُبرى، فقد وعدهم ﴿ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، لكن الحصول على هذا الخير الكبير الذي يكمن من خلال مواجهة جيش المشركين، يحتاج إلى جهدٍ أكبر، وتضحياتٍ أكثر. ﴿وَ﴾ - في حين -: ﴿تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾. جاءت كلمة ﴿ٱلشَّوْكَةِ﴾ دقيقة لتُعبِّر

عن بلاغة المَعنى، فعلى الإنسان ألّا يُعوّد نفسه على قطف الورود فحسب، بل على أن يُشاك أيضاً بالشوك. والورد هنا، هو ورد الحياة، والشوك كذلك، هو شوك الحياة، فيوجّهك الله تعالى ذكره، ألّا تُعوّد نفسك على ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، بل تدرّبها على ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، فتكدّ، وتلقى المشقّة حتى تحصل على مُبتغاك، فحتى الإجازة الجامعية العُليا، إن أتتك دون مشقّة، فإنك لا تدرك قيمتها كالذي حصل عليها بعد كدٍ، وجهدٍ، ومشقّة، فهو يوظّفها خير توظيف لينتفع بها، وينفع بها غيره، في حين أنها تكون وبالاً على الآخر، لأنه لا يُحسن استخدامها، فإن كانت هذه الإجازة طبيَّة على سبيل المثال، سيُلحق بها الضرر بالناس، وفي النهاية، سيعود الضرر إليه، لأن الناس سيتحاشون الدخول إلى عيادته بعد أن تتبيَّن خبرته الطبيَّة المُتدنّية، ويُصبح سيّء الذِكر، أمّا الآخر، فإنه مع السنوات، يُطوّر خبرته، ويتواصل مع المُستجدّات التي تحدث في اختصاصه، ويحضر، ويُشارِك في المؤتمرات المختصّة، وعيادته دوماً تكون مكتظّة بالمرضى الذين يثقون بخبرته. ولذلك ترى أن غالبية الشخصيات المميَّزة التي تركَت آثارها الإيجابية في المُجتمعات، وقدَّمَت خدمات طيّبة للبشرية كلّها، كانت تنحدر من عائلاتٍ فقيرةٍ، تُحصِّل لقمة معيشتها بالكاد، في حين أن غالبيَّة أبناء المُترَفين، يكونون عالة على مُجتمعاتهم، ويُلحقون بهم الأذى.

إذن، تعلّمك الآية الكريمة، وتُبيِّن لك بأن الخير المُستفيض، يكمن في ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، وهذا الخير لا يكون خاصاً بالمال، بل بالصحة البَدَنيَة والنفسية أيضاً، ولذلك ترى الخاملين يتردّدون دوماً إلى الأطباء، وتكون أمزجتهم مُعكَّرة، ويكونوا مُحتقنين، يُستَفَزّون بسرعةٍ، تصدر منهم ردّات فعل سريعة، فيُنصَحون بالحركة، والخروج من البيت، وممارسة الرياضة، حتى تعتدل النِّسَب الزائدة والمتراكمة في أبدانهم عَمّا يحتاجه الجسد، وكذلك حتى تعتدل أمزجتهم.

أمّا الذين تمتلئ أوقاتهم بالعمل، يكونون في منأى عن هذه المُنغّصات.

و﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، التي كان المسلمون يريدونها ﴿تَكُونُ﴾ لهم، في سياق الآية، يعني الحصول على الأموال بسهولةٍ من قافلة التجارة، وحتى لو حصلوا

على تلك الأموال، لَما شَكَّلَ ذلك شيئاً مهمّاً بشكلٍ تحوّلي كبير، في حين أن ما وعَدَهم الله تعالى، هو الذي أسّس لخيرٍ كثيرٍ تتوَّج مع الزمن بعودتهم إلى مكّة أقوياء مُنتَصرين فاتحين أبوابها أمام المسلمين في كل زمانٍ ومكان، وهم الذين أُخرِجوا منها ضُعَفاء. فانظر إلى المُقابَلة بين الجُملَتَين: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

فحصولكم على ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾، منفعة سريعة، وستزول، ﴿وَ﴾ لكن ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

فـ ﴿الْحَقَّ﴾ الآن هو غير مُحَقَّق، وحتى لو ظفرتم بـ ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾، سيلبث دون تحقّق. ﴿وَ﴾ لكن عندما ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فإن ذلك سـ ﴿يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ وفق ما ﴿يُرِيدُ اللهُ﴾، لا وفق ما ﴿تَوَدُّونَ﴾.

وهنا علينا أن نُدقِّق ما أمكن في مرادفات الكلمات القرآنية، فكل ترادفٍ قرآني، يأتي موظَّفاً بدقّةٍ فائقةٍ ليُعبّر عَمّا لا يُعَبّر عنه الترادف الآخر لذات المعنى. فكلمة ﴿تَوَدُّونَ﴾، تترادَف مع كلمة ﴿يُرِيدُ﴾، لكن ﴿تَوَدُّونَ﴾، فيها شيء من العاطفة، أي ﴿تَوَدُّونَ﴾، بعاطِفة، والمُعاطَفة فيها شيء من الضعف. فيشير ذلك إلى أنهم ضعفوا أمام المال بعض الشيء، وأدّى بهم ذلك إلى كراهة خوض غمار الحرب، وكذلك إلى مجادلة قائد المعركة، رسول الله صلى الله عليه وسلّم، من أجل التصدّي لجيش المشركين القادم من مكّة ليفتك بالمسلمين في المدينة التي لجأوا إليها.

وكل ذلك حصل بسبب الضعف نحو الحصول على المال بطرقٍ سهلةٍ، التي هي ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾. وهذه من الدروس القرآنية العظيمة لأي إنسانٍ، فتبيّن الآيةُ بأن الضعف أمام المال، يمكن أن يجعل الإنسان يخسر كثيراً، ودوماً فإن هذا الضعف يُخسِر أكثر مِمّا يُكسِب.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"(١).

يمكن للمال أن يعمي الإنسان ليضحّي بالكثير من القِيَم والمبادئ الإنسانيّة، ويتنازَل حتى عن بعض الثوابت، ويغضّ النظر حتى عن بعض الأخلاقيّات، بل حتى عن بعض الثوابت الدِينيّة، فيتحوَّل الإنسانُ بالتدرّجِ إلى كائنٍ مادّيٍ جَشع.

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلّم: "تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة".

فكم من أناسٍ خسروا عائلاتهم، أقرباءهم، أصدقاءهم، دِينهم، ثم خسروا حتى أنفسهم نتيجة الضعف أمام الحصول على المال بـ ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾.

فهذا هو التأسيس القرآني لشخصيّة الإنسان المسلم، وهذه هي مدارج التربية القرآنية التي تفصح له عن الحقائق الكُبرى، والصُغرى، حتى تُنَظِّفه، وتُنَقِّيه من الداخل، فيُستَخلَص من ذلك إنسانٌ جديدٌ، يكون بطلاً حقيقياً في حياته، يكون شامخاً وصاحب مواقف إنسانيّة كُبرى، فقد اصطفاه الله، ليكون مُنتِسباً إلى أمّة الرجل الذي اصطفاه الله تعالى ليكون خاتم أنبيائه ورسله في الأرض، فالمسلم الحق يُدرك، ويعيش معنى أنه الإنسان المُصطَفى الذي ينتمي إلى النبي المُصطفى، عليه الصلاة والسلام.

فبيَّنَت الآيةُ الكريمة في هذا الترادف الدقيق بأن الله ﴿يُرِيدُ﴾، فإن كنتم ﴿تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، فإن الله ﴿يُرِيدُ﴾ ﴿لَكُمْ﴾ ما هو أفضل وأثبت ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكلمات الله هي وعد، وقد حقَّق لهم هذا الوعد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وكلمات الله سبحانه وتعالى في القرآن، هي وعودٌ من الله للناس في كل زمانٍ ومكان، وهي تتحقَّق، ولا كلمة قط، تلبث دون تحقُّق. فَمَهما كان الظالمُ يتمتَّعُ بجبروتٍ، فإن الله يجعله يذل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦].

(١) أخرجه أحمد ١٧٧٦٣.

وقد تحقّق ذلك في بدر، وتحقَّق بعد بدر، ويلبث في تحقُّقٍ في أي وقتٍ من الأوقات، وهذا لا يقتصرُ على الحروبِ، أو الجماعاتِ فحسب، بل يشمل ظلم الأفراد أيضاً لبعضهم البعض، حتى ظلم زوجٍ لزوجته، أو ظلم مُدير عَمَلٍ لِعامِله. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]. فليس بوسع أحدٍ أن يُجنِّب عذاب الله إذا أراد أن يوقعه على ظالم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

فهذه وعودٌ من الله سبحانه وتعالى، ولا شيء يمكن له أن يحول دون تحقّقها.

﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

العِبارة الأخيرة من الآية تبيّن بأن المسلمين في معركة بدر لقنوا المشركين درساً بليغاً لن ينسوه، ولن ينساه أي مشركٍ من بعدهم، لأن زهور الإشراق الإسلامي على العالم، بدأت تتفتَّح، واتَّسَعَت الأرضُ بالمسلمين اعتباراً من ذلك التاريخ، لينشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ذلك أن المسلمين أصبحوا على استعدادٍ تامٍ كي يُشاكوا بالأشواك أيضاً، لا أن يقطفوا الزهور فحسب.

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾. أي لم يعودوا قادرين على التضييق على المسلمين، ومنعهم من أداء شعائرهم، ونشر الدعوة بين الناس، دون الإرغام، وهم يهتدون بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

فيكتفي المسلم بقول الحق، دون أن يتدخَّل في مشيئة الهداية، أو الضلال، لأنها مقتصرة على الله سبحانه وتعالى. ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ

لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فهذا هو المنهج السليم الذي أرشد به القرآن الإنسان المسلم، وهو يؤدّي إلى نتائج إيجابيّة إذا أحسن المسلم استخدامه، حتى أنه يجعل من عدو المسلم، ولياً حميماً له، فأشار القرآن إلى هذه النتيجة الإيجابية، وبيَّنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد حصل هذا منذ بدء الدعوة، حيث تحوَّل أشدُّ أعداء المسلمين إلى أولياء حميمين لهم، بل أصبحوا من أعمدة الإسلام، ولبث ذلك مستمراً عبر الزمن، ويلبث مستمراً، فلا يمر وقتٌ إلّا ويتحوَّل فيه أعداءٌ للمسلمين إلى أولياء حميمين لهم، بل ويتحوَّلون إلى دعاةٍ إلى الإسلام.

فإذن عليك ألّا تهمل، أو تُجافي الآخرين، بل تلين لهم حتى وهم من أشدّ أعدائك، فتسأل الله لهم المغفرة، وتُشاورهم في أمرك، لا أن تصعد إلى منابر المساجد، ومنابر وسائل الإعلام، فتسأل الله أن يُلحق بهم الويلات، أو يُبيدهم، فتجعلهم بذلك يُصعّدون من عداوتهم للمسلمين، بل قد ينقلب دعاؤك على المسلمين أنفسهم، فيبيدون بعضهم بعضاً، ويُلحقون الأذى ببعضهم البعض، لأنك تكون قد خرجت عن المنهج القرآني السليم والمضمون النتائج الذي أرشدك إليه الله سبحانه وتعالى، فقد انحرفتَ، وغدوتَ تحمل غِلًّا بدل الحب، فانقلب غِلُّك عليك، وبالمقابل يتقدَّم عدوّك عليك، بل وتنقلب الأمور، فتُصبح أنت بحاجةٍ إليه، ويُصبح مُتحكِّماً بك، وقد عرفك على حقيقتك، وعرف مقدار غِلّك له.

إذن وقبل أن يحصل ذلك، عليك أن تلين لهم وأنتَ في كامل قوّتك، وتُتشاور وتتحاور معهم في ما لديك، وما لديهم، وأنت قوي، وبذلك، فإنك تُشعرهم بأنك لنتَ محبةً لهم، وأنك تُريد لهم الخير، وتستغفر لهم الله، لا أنك - كما في الثانية -: ضعفتَ ورضختَ لهم رغماً عنك، وأنهم بذلك لن يأمنوك، لأنهم على يقينٍ بأنك في أي لحظةٍ يمكن أن تغدر بهم بناء على حجم الغلّ الذي تكنّه لهم في قلبك، وتُفصح عن هذا الغل من خلال المنابر.

واختُتِمَت الآية الكريمة بـ ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أي يقطع شوكة كفّار العرب عنكم، وينصركم عليهم في بدر، واعتباراً من هذا النصر الذي عليكم أن تتمسّكوا بشروطه، ولا تنحرفوا عنها، سوف تتمكّنون من نشر الدعوة في بقاع الأرض، دون أن يتعرَّض لكم الكافرون.

لكن إذا تجاوزتم الكلمة الطيّبة، ومشاعر الانتماء الإنساني، فإن: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، لن تعود فعّالة بالنسبة إليكم، بل يستقوي عليكم الكافرون، ويخضعونكم لهم، ويملون عليكم شروطهم.

فالمسلم الحقيقي، هو الصفوة التي اصطفاها الله من بني البشر، وعليه ألّا يجعل أحداً أفضل، أو أكرم منه، لأن الذي يتربّى ويتأدّب على كِتابٍ اكتَمَل به دين الله كله منذ بدء البشرية، يكون كذلك على درجاتٍ مُتقدّمةٍ من الكَمال البشري في الأخلاق، والتسامح، والمحبة، والكَرَم. وإذا تفوَّق عليه شخصٌ آخر غير مسلم، فاعلم بأن ذاك المسلم مخلٌّ بمنهج عقيدته التي هو عليها، ولا خلل قط في المَنهَج، بل الخلل، كل الخلل يكمن في كينونة الشخص.

فالمسلم الحقيقي هو ذاك الذي يحمل بيدٍ مصحَفاً، وبالأخرى وردةً، وهو يُقدّمها إلى الآخر سواء أكان من عقيدةٍ أخرى، أو كان كافراً، أو مشركاً، أو ملحداً، أو ما كان عليه مِن مُعتَقَد، يُقدّمها إليه بأدبٍ جَمّ، وكلمٍ طيّبٍ، وخُلقٍ حَسَنٍ. لا أن يقتحم عليه مَسكَنه، أو مَتجَره، أو دائرته، وهو يحمل سلاحاً، ثم يخطفه بالقوّة، أو يتعمَّد دهسه في الطُّرقاتِ بسيارةٍ، أو يُفخّخ السكك الحديدية.

فقد مكّنك الله سبحانه وتعالى من الدخول إلى ديارهم، وجعلهم يلينون لك، ويستقبلونك، ويستضيفونك، وذلك حتى تكون ممثّلاً جيداً للإسلام فيهم، يرون فيك نصاعة القِيَم الإسلامية، فتستطيع أن تترك أثراً طيّباً لديهم، وتترك لديهم انطباعاً جيداً عن كل شخصٍ مسلمٍ. فيتيحون لك أن تبني المساجد في ديارهم، وتنشئ وسائل إعلامية دعوية بلغاتهم فيها، ولكن إذا تَمادَيتَ، ومَدَدتَ يدك إلى السلاح، فإن الآية سوف تنقلب عليك حتى لو حملتَ باليد الأخرى ألف مصحف، ولن

يقفوا مكتوفي الأيدي، لأن كل ذاك الاحتفاء بك، إنما كان بسبب نشرك للقيم الإسلامية وفق ما وجّهك به القرآن، دون أن تجيز لنفسك وتزيد، أو تبتدع حتى تبرّر إلحاق الأذى بهم.

كما لا يجوز لك ذلك بالمقابل إذا حضروا هم إلى ديار المسلمين، سيّاحاً، أو عمّالاً، فتتعرَّض لهم، وهم في استضافتك، وتسلبهم أموالهم، وتحجز حرّيتهم، ثم تطلب أموالاً نظير إفراجك عنهم. فأي بطولةٍ هذه، وأي إسلامٍ هذا الذي تدعو إليه، وتريد للآخرين أن يكونوا مثلك.

إذن، سوف تنقلب الآية عليك، وسيمكّنهم الله منك حتى يوقفوك عند حدودك، ويمنعوك من التجاوز عليهم، بل يمكّنهم الله تعالى أن يأتوا إلى ديارك، ويملوا عليك شروطهم، وأنت تستجيب بذلٍ وخنوع، وما ذلك إلّا لأنك انحرفتَ عن المنهج الدعوي الذي وضعه لك القرآن. فالآية تدعوك للانتباه إلى هذه المسألة، إن أردتَ أن تستردّ قوتك التي خسرتها، وتعود لك مكانتك، ويعود لك مكانك لدى الآخرين، بأن تقذف السلاح من يدك، وتقذف الغل من قلبك، وتنزع عبارات التأجيج وإثارة النعرات عن لسانك، فتحمل قرآنك بيدٍ، ووردة باليد الأخرى، ولا يلفظ لسانك إلّا بما هو طيّب الكلام، وتذكر دوماً بأنك رسول رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى الناس، وقد جاء عنه قوله لعموم أمّته: "بلّغوا عني ولو آية". حيث يتم تقديم المبادئ الإسلامية من خلال هذا البلاغ إلى الناس.

الباب الثامن

صوت الحق

[٨]

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآية تتويجٌ لِما سَبَقَها من آياتٍ ثلاث متتاليات، وذُكِرت كلمة ﴿ٱلْحَقَّ﴾ فيها جميعاً، لماذا كل ذلك؟: ﴿لِيُحِقَّ﴾ الله ﴿ٱلْحَقَّ﴾، بأن يجعل كلمة الإيمان تعلو كلمة الكفر، يجعل من المؤمنين أقوى من الكفّار، ليسود ﴿ٱلْحَقَّ﴾، وينتشر في رحاب الأرض.

﴿وَ﴾ - نظير ذلك -: ﴿يُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾. فلا يدع الله عز وجل ﴿ٱلْحَقَّ﴾، و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ في مرتبةٍ واحدةٍ، فلا بدّ لواحدٍ منهما أن يعلو على الآخر، وقد كان صوت ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾، قويّاً، وكان صوت ﴿ٱلْحَقَّ﴾، ضعيفاً، كان الكفّار أقوياء حتى أخرجوا المسلمين من ديارهم في مكّة، واستولوا على ممتلكاتهم.

الآن يمدّهم الله بالقوّة: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾، رغم كراهية الكفّار الذين كرهوا هذه الهزيمة النكراء التي مُنوا بها على أيدي المسلمين الضعفاء، واضطرّوا مكرَهين للإقرار بالهزيمة، والتنازل عن عنجهيّتهم، بل القبول بما أملاه المسلمون عليهم من شروطٍ لكي يُطلقوا سراح أسراهم، ومن ضمنهم أبرز رجالاتهم وقادتهم مثل: العباس بن عبد المطلب، عقيل بن أبي طالب، أخو علي بن أبي طالب، نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، عمرو بن أبي سفيان بن حرب، الحارث بن أبي وجزة، أبو العاص بن الربيع، أبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير، السائب بن أبي جيش ابن المطلب بن أسد، خالد بن هشام بن المغيرة.

لكن رغم ذلك، لن يرغم المسلمون عليهم الإيمان عند عودتهم أقوياء إلى ديارهم في مكّة، ولن يُخرجوهم من ديارهم كما فعلوا هم عندما كانوا أقوياء، ولن يستولوا على أموالهم، كما فعلوا هم، فقط عليهم ألّا يتعرَّضوا للذين يمنّ الله تعالى عليهم بنعمة الهداية ويدخلوا الإسلام، أي تبقى الحريّة الشخصيّة بالنسبة للطَّرَفين مكفولة، ويعيشوا على أراضيهم التي ولدوا فيها في تعايشٍ سلميٍ آمن.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون].

فذلك شأن الله سبحانه وتعالى مع عباده، فلا تَجاوز لحدود التبليغ، وإيصال الحق إلى الناس جميعاً. وعلى الكفّار بالمقابل أن يقبلوا بهذا الواقع سواء طوعاً، أو كرهاً، ولذلك جاءت: ﴿وَلَوْ﴾، أي إذا ارتضوا هذا الواقع الجديد، أو كرهوه، فإن وعد الله نافذ بإحقاق ﴿الْحَقَّ﴾، وإبطال ﴿الْبَاطِلَ﴾.

القول لكفّار مكّة، ولكل كافرٍ من بعدهم، وهنا يمكن الاستنتاج بأن غير المسلمين لا يمكن لهم أن ينتصروا على المسلمين بأي حالٍ من الأحوال، إلّا إذا انحرف المسلمون عن المنهج الإسلامي الذي أرسى دعائمه القرآن الكريم، فإذا رأيتَ غير المسلمين ينتصرون على المسلمين، فاعلم بأن المسلمين في ذاك الموضع بهم شيء من الانحراف عن التشريع الإسلامي، هذا الانحراف الذي ينفذون من خلاله إلى المسلمين.

الباب التاسع
الاستغاثة والاستجابة

[٩]

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

أن تستغيث، يعني أنك تطلب الغوث، استناداً إلى مُعطَياتٍ تُبيِّن لك بأن إمكاناتك لا تؤهّلك للنصر، أو حتى للثبات، بمقارنة الإمكانات التي تفوق قدراتك، والتي تتقدَّم لشنّ العدوان عليك.

و﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾، من الإغاثة، وتنحصر الإغاثة بأنها تكون لأمرٍ طارئٍ، فتكون بشكلٍ فوريٍ سريع. ولذلك أطلقَت بعض المُنظَّمات الإنسانية هذه التسمية على مهمّتها، فهي مُنَظَّمات إغاثية، أي تُعاجل الذين طَرَأت عليهم ظروفٌ فاقَت طاقة تحمّلهم لها، أو مواجَهَتهم لها. فيستغيثون تلك المُنظمّات الإنسانيّة بالتدخّل، وإمدادهم بالمساعدة التي تقوّيهم ويتجاوزوا هذا الطارئ بسلام، فهي مُنَظَّمات إغاثية، إمداديّة سواء بكوادر طبيّة، أو أغذية، أو أدوية، أو بسيّارات إسعاف.

فالمعنى أن الله سبحانه وتعالى قال للمسلمين الذين استغاثوا به: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ يا مَن استغثتم بي ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

الحاجة هنا كانت إلى ما يقوّي الجانب الضعيف، ليكون متوازياً مع الجانب الأكثر قوّة. وذِكر العدد ﴿بِأَلْفٍ﴾ يجعل عدد المسلمين قريباً من عدد المشركين، فيحدث التوازن بين عدَدَي الطرَفَين.

وكلمة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ تشير إلى التتابع، فأردَف يقول، أي أتبَع يقول، ومن ذلك الترادف بين الكلمات، أي أنها تتبع ذات المعنى، والرديف، يتبع الرصيف، أي هؤلاء ﴿الْمَلَائِكَةِ﴾ أصبحوا ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مساندين لكم واحداً تلو الآخر. وهذا

بيانٌ بأن الله سبحانه وتعالى حقَّق وعده بنصر المسلمين، وهذا الوعد يلبث يتحقَّق مادام المسلمون يتَّبعون المنهج الإسلامي.

جاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: (حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل نبي الله القبلة ثم مدّ يده وجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض" فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾. فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر سبعون).

الباب العاشر

البشرى والطمأنينة

[١٠]

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾، جَعَلَ الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، فهذه بِشارة خَير، بشَّر بها الله عز وجل، المسلمين. وهذه الـ ﴿بُشْرَىٰ﴾ ترفع من معنوياتهم، وتجعلهم أكثر ثقةً، وهم ينظرون إلى المستقبل الإسلامي، فقال جل شأنه: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، وليس ﴿بُشْرَىٰ﴾، لأن الـ ﴿بُشْرَىٰ﴾، قد تكون لمرةٍ واحدةٍ، أمّا: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، فهي ﴿بُشْرَىٰ﴾، تتبعها بشارات.

وكلمة ﴿بُشْرَىٰ﴾ بذاتها، وَرَدَت بدقّةٍ، فالـ ﴿بُشْرَىٰ﴾، عادةً تكون لأمرٍ سارٍ يخصّك وقد تَحقَّق دون أن تعلم به، فيأتيك مَن يُبشِّرك بتحقيقه.

والبشارة بطبيعتها تكون لوقوع حدث سعيد نفيس، هذا الحدث الذي يُفرح الإنسان المُبَشَّر، ويُحدث نقلة نوعية في مسار حياته، فالبشارة في جميع مستوياتها، هي سماعك عن وقوع حدثٍ سارٍ يبلغك به شخصٌ ما لأوّلِ مرَّةٍ.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾. جاءت ﴿ وَمَا﴾، أيضاً في منتهى الدقَّة، ثم عقبتها ﴿إِلَّا﴾ لتثبتها أكثر، وتضفي إليها دلالات أخرى. فتكاملت جملة بيانية مُتناسِقة، مُتعاضِدة، تغتني بجماليّات الجَوهَر، إلى جانب جماليّات المَظهَر. ولننظر إلى الجملة إذا تم منها حذف ﴿ وَمَا﴾، وحذف ﴿إِلَّا﴾، لأصبحنا أمام: (جعله الله بشرى). هنا ستبدو الجملة ركيكة، ومقتصرة على بعدٍ واحدٍ، وحالةٍ واحدةٍ، رغم أنَّها تُعبّر عن ذات المعنى. لكن لننظر إلى براعة السبك القرآني: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

﴿ وَمَا﴾، أي أن ذلك مقدِّمة، ليسَتْ سوى ﴿بُشْـرَىٰ﴾، ﴿وَ﴾ - لكن لماذا؟ -: ﴿لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

إذن الـ ﴿بُشْـرَىٰ﴾، هي طمأنينةٌ للقلب، لأن الإنسان يُبَشَّر بِما يعنيه، ويهمّه أن يتحقَّق.

تُخبرك الآيةُ الكريمةُ في هذا المقام، بأن الله سبحانه وتعالى، لا يتخلَّى عن الذي يستغيثه.

وفي الجملة الثانية من الآية، سوف تتكرَّر ﴿ وَمَا﴾، كما تتكرَّر ﴿إِلَّا﴾، لتُصبح الآيةُ أكثر تماسكاً، وأكثر بلاغةً في إظهار المعنى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ - بشكلٍ مفتوحٍ، أي نصر، سواء أكان لكم، أم عليكم، سواء أكان على الصعيد الجماعي، أو على الصعيد الفردي -: ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لأن الأمر اتَّسَعَ وأصبَحَ عاماً.

جاء ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دون ﴿مِنْ عِندِ﴾ ربِّكم، كون الخِطاب رغم أنه يعني نصرهم في بدر، لكنه تحوَّل إلى خِطابٍ مستقبليٍ مفتوحٍ. فبعد هذا النصر الذي حقَّقَه الله لكم، اعلموا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ - في الآتي أيضاً في كل زمانٍ ومكان -: ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

فكونوا أهلاً، وخُذوا بالأسباب حتى يبقى الله ينصركم، أو ينصر مَن يأخذ بالأسباب ويكون أهلاً للنصر رغم كفره، فيجعله الله منتصراً على المؤمنين الذين يكونون قد تقاعَسوا، أو انشقّوا عن بعضهم البعض، أو بَطَروا بالنعمة، ولم يأخذوا بأسباب النصر، ولم يتهيّؤوا له، فيُمنَون بهزيمةٍ نكراءٍ، وتكون خسارتهم في الأنفس والأموال، مروعة، وتُكسَر شَوكتُهم، وتذهب ريحهُم، وتُصبح أرضهم وممتلكاتهم وأعراضهم مُستباحة، لأنهم ركنوا إلى الكَسَل، والخمول، والبَطَر، وإثارة النَعَرات، والانشقاقات، والجور، والاستهلاك، والتبذير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. له العزّ كل العز، والحكمة كل الحكمة، يضع كل شيءٍ في موضعه اللائق به، سواء بنصر المؤمنين، أو بنصر أعدائهم عليهم، ذلك أن:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ﴾ - في الوجهَين - ﴿إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾. فهو - جلّت قدرته -: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، في هذا، و﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، في ذاك.

وهذه رسالةٌ مفتوحةٌ للناس جميعاً: فلا يظنن أحدٌ أنه محسوبٌ على الله، وبالتالي، يتقاعَس، ويتخاذَل، ويثق كل الثقة بأن الله بقدراته الخارقة، سيمنع عنه أذى الآخرين.

فإن أكلتَ فاكهةً موبوءةً دون أن تغسلها، سوف تفتك بمعدتك، مهما كنتَ صالحاً في إيمانك، وإن غَسَلها الكافرُ وأكَلهَا، لن تفتك بمعدته مهما كان متمادياً في كفره، وإن أهملتَ غسل أسنانك، سوف تخسرها مبكّراً وأنت مؤمن، وإن غسل الكافر أسنانه، فإنه سيحتفظ بها سليمة وهو كافر. تنبّهكَ الآيةُ الكريمةُ إلى هذه المسألةِ الدقيقةِ والهامَّةِ في أهميَّةِ الأخذِ بالأسبابِ في سائرِ شؤونِ حياتك، سواء بعلاقتك مع بدنك، أو مع زوجتك، أو في تربية أولادك، أو في مهنتك، أو في منزلتك الاجتماعية. ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾. جملةٌ خاصّةٌ موجَّهةٌ إلى كلِّ مَن يمدّه الله بالاستغاثة، ثم تعقبها الجملةُ المفتوحةُ لسائر الناس: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾. عندما تكونون أهلاً للنصر، وتستعدّون له كل الاستعداد، وتأخذون بالأسباب التي تجعلكم مؤهَّلين للنصر، سوف يمدّكم الله بمقوّمات النصر، وينصركم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الباب الحادي عشر

الرباط والثبات

[١١]

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

عالم غني جديد نلجه مع هذه الآية المُبارَكة، لنرى فيه ما لم نره في عالم أي آيةٍ أخرى، ذلك أن كل آيةٍ من آيات القرآن، تُشكِّلُ عالماً مُستقلًّا، تتفرَّد به دون غيرها، وما تُريه لك، لا تُريه إياه غيرهُا، ما تكشفه لك، لا تكشفه لك غيرُها، وما تُدهِشكَ به، لا تُدهِشكَ به غيرُها. فكل آية فيها أشجارها، وزهورها، وأشواكها، وليلها، ونهارها، وشمسها، وقمرها، وأجواؤها الجديدة. فكل شيءٍ هو جديدٌ في جديدٍ، تراه لأوَّل مرة، حتى لو رأيتَ آيةً مُكرَّرةً بكلماتها، لكنَّها تكون جديدةً بمعانيها، فلا يكون ذلك تِكراراً، رغم أن الكلمات هي ذاتها في ذات الآيتَين، لكنك تكون هناك في أجواءٍ، وهنا تكون في أجواءٍ أخرى، وما تذيقك هذه الآية من عسل اللغة، وعسل المعنى هنا، لم تذقك إياه الآية السابقة هناك.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَت: قَالَ رَسُولِ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَة، وَالذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لَهُ أَجْرَانِ"(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنُ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأَتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنُ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ القُرْآن مَثَلُ الرِّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِق الذي

(١) رواه البخاري.

لا يَقْرَأ القُرْآنَ كَمَثِلِ الحَنْظَلَةِ لَيْس لَهَا رِيحُ وَطَعُمْهَا مُرٌّ"[١].

وَعَنْ ابن عُمر رَضي الله عَنهما عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لا حَسَدَ إلا في اثْنَتينِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ القرآنْ فَهُوَ يَقومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَهُوَ يُعَلِّمُ النَّاسَ مِنْهُ"[٢].

وَعَنِ النَّوَاسِ بِنْ سِمْعَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يُؤْتَى بالقرآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الذين كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرةِ، وَآلِ عمرانَ" وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولِ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: "كَأَنَّهما غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَوَانِ بَيْنَهُمَا شَرَقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فُرْقَانٌ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهما")[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"[٤].

وَعَنْ عَبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتابِ اللهِ تَعَالى فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بَعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ: أَلَم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْف، وَمِيمٌ حَرْفٌ"[٥]. وَعَنْ أَبِي ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي قَالَ: "عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: "عَلَيْكَ بِتَلاوَةِ القُرْآنَ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ، وَذُخْرٌ لك في السماء"[٦].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري، ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم ٢٦٩٩.

(٥) رواه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.

(٦) رواه ابن حبان.

وَعَنْ عَبْدُ اللهِ بِنْ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولِ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَقَد اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةِ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يُوحَى إِلِيْهِ، لا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ القُرْآنِ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجَدَ، وَلا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِي جَوْفِه كلامُ اللهِ"(١).

ورُوِي عن علي بن أَبي طالبٍ رَضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ فَأَحَلَّ حَلالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ وَشَفَّعَهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهِمُ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمْ النارُ"(٢).

وعن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أبشروا وأبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله"؟ قالوا: نعم، قال: "فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً")(٣).

الإشراف على دخول عالم آيةٍ جديدةٍ، هو كالإشراف على دخول مدينةٍ جديدةٍ لم ندخلها من قبل، وسوف نرى فيها مجتمعاً جديداً، أبنيةً جديدةً، ألواناً جديدةً من الطعام والشراب، روائح جديدة نستنشقها لأول مرة، حافلات جديدة نصعدها لأول مرة.

لذلك لا بدَّ من التهيئة للدخول إلى عالمها، ولا بدَّ قبل كل شيءٍ من إتاحة أكبر قدرٍ ممكنٍ من صفاء الذهن، والهدوء، والسَّكينة، والصمت حتى تُدخِلك الآيةُ إلى عالمِها، وإلَّا ستلبث على الباب، مهما قرأتها، دون أن تتفتَّح لك أوراق زهورها، تنسم عليك نسائم دوحتها.

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه ابن ماجه، والترمذي.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه: حديث/ ١٢٢، ١/ ٣٢٩، وابن أبي شيبة: حديث/ ٣٠٠٠٦، ٦/ ١٢٥، والطبراني في الكبير: حديث/ ٤٩١، ٢٢/ ١٠٨، والبيهقي في شعب الإيمان: حديث/ ٢٠١/، ٢/ ٣٥٢.

إذ يُمكن لأي صوتٍ أن يُخرِجكَ بغتةً من بهاء هذا العالم النوراني، فتُصبح حينها كالذي انقَطَعَت به حافلته في تِيه بَيداء.

مع البدء بالكلمة الأولى، تبدأ بالدخول إلى أول حيٍ من أحياء المدينة الجديدة، ومع انتهاء الكلمة الأخير منها، تكون قد خرجتَ من آخر حيٍ من أحياء هذه المدينة، لتنتقل إلى مدينةٍ جديدةٍ، وأحياءٍ جديدةٍ ضمن دولة السورة الجديدة التي أنتَ في رِحابِها.

لا شيء كالقرآن، لا كلمات كالكلمات القرآنية، لا حدائق تحفل بِما تحفل به حدائق القرآن، لا كتاب يكتنز بِما ينفعك، كما يكتنز القرآن.

كل آيةٍ قرآنيةٍ، هي قصّةٌ جديدةٌ تقرأها لأول مرةٍ، قصّةٌ من فصل السورة في كتاب القرآن المجيد.

وأي محظوظ، أي مُنعَمٍ عليه، هو ذاك الذي تتبرَّك عيناه بقراءة كتاب القرآن المجيد، قراءة الازدهار، قراءة التلقّي، قراءة الاستنارة، قراءة الانشراح، قراءة التطهّر.

لو عَلِم الإنسان عظمة فضل القرآن عليه، لصلَّى بعد قراءة كل آيةٍ ركعتيَن شكراً لله.

﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾.

﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾، كلمة رقيقة عذبة، كنسمةٍ ربيعيَّةٍ في بهاءِ حديقةٍ عامرةٍ بأنواع الزهور. والكلمةُ من الغِشاءِ، والغِشاءُ دوماً يكون شَفّافاً ورقيقاً. فانظر إلى بلاغة الجملة وجماليَّتها: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾. ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، هو ذروة الاسترخاء الذهني والعضوي معاً، والعبارة بيانيَّة، وجماليَّة، وتكامليَّة، وتصويريَّة بشكلٍ بالغ الدقَّة والتوافق بين كلماتها، فتجعلك تتخيَّل جماليات غفوات ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ اللذيذة وهي تتسرَّب إلى أجسادٍ مُستَرخيةٍ، وأذهانٍ صافيةٍ، وقلوبٍ مطمئنةٍ، وصدورٍ مُنشرحةٍ، لتستغرق في لفائف نومٍ هانئٍ عميقٍ لا تشوبه شائبة، وقد خيَّم عليهم أمنٌ استثنائيٌ خاصٌ من الله، جلّ شأنه.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾. وهذا الغشاء الذي يلتحّفونه، يُحقِّق لهم - إضافةً إلى ذلك -: ﴿أَمَنَةً﴾، من العدو. فهو يبثُّ إلى قلوبهم طمأنينةً بأن العدو لا يجسر أن يقربهم بأي حالٍ مِن الأحوال. فهذا الغِشاء يُنعسهم، ويُنيمهم، وكذلك يحميهم، فتكون الآيةُ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ الله بـ ﴿ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾، طمأنينة نفسية، واستغراقاً في نومٍ هانئٍ، وكذلك مانعاً من دنو العدو إليكم.

وهذه هي الحِماية الإلهية للإنسان، يمنحها لأهل الصلاح في كل زمانٍ ومكان، بأشكالٍ وألوانٍ مختلفةٍ.

ونحن الآن في الليلة التي تسبق المعركة، وهم في حالة استنفارٍ واضطرابٍ وخلافاتٍ بين الذين يؤيِّدون الرسول في خوض المعركة ومواجهة الجيش القادم إليهم، وبين الذين يقولون بأنهم لم يستعدّوا لهذه المواجهة، فكيف سيواجهون جيشاً قوياً ومتمرّساً، وقد تجهَّزوا كل الجاهزية للدخول في هذه الحرب، في حين أنهم بالأصل قَدِموا لاسترداد أموالهم من القافلة التجارية، ولم يتوقَّعوا بأنهم سيخوضون حرباً مع جيش المشركين القادم إليهم من مكَّة ليفتك بهم ويستأصلهم، وناهيك عن ذلك، فهم نحو ثلاثمائة شخص أتوا للقافة، وليس لخوض حرب، وجيشُ المشركين نحو ألف وقد أتوا خصيصاً لخوض حرب. ولننظر كيف ستقع المعركة، وكيف تكون المعجزةُ بانتصارهم الكبير.

فإذن، قبل كل شيءٍ، وفي ليلةِ ما قبل نهار بدء المعركة، أزال الله من قلوبهم أي خوفٍ من العدو، واستبدله بأمنٍ، ثم غشيهم بأغشية ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ حتى يناموا نوماً طبيعياً هانئاً بهدوءٍ وطمأنينةٍ.

وجاءت كلمة ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، لتنقل إلينا وضعهم النفسي المُستقر، لأن المرتَعب، لا يقربه ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، بل يلبث قلِقاً ومضطرباً وهو يتوقَّع حلول الكارثة عليه في أي لحظة.

وحتى لو أخذته غفوة ونام، فإن نومه لا يكون قد سبقه ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، بل نام لأنه لم يعد قادراً على اليقظة، فيكون قد نال منه الإنهاك بسبب عدم النوم، ولذلك

لا يكون نومه مستمرّاً، بل يكون متقطّعاً، تتناوله بين وقتٍ وآخر نوبات الفَزَع. والنومُ المتقطِّعُ لا يقضي حاجة الإنسان من النوم، وبالتالي لا يحقِّق راحةً للبَدَن، ولا يبثُّ صفاءً للذهن مهما استمرَّ الشخصُ مُمَدَّداً في الفراش، بل يزداد إرهاقاً، بَدَنياً، ونَفسياً، فيكون وجهه محتقناً، وشعره منفوشاً، وأعصابه مضطربةً، كما لو أنه جاء من حرب، وليس من فراش.

في حين إن الذي يكون مستقرّاً، وينام عدَّة ساعاتٍ بشكلٍ غير متقطّعٍ، يكون قد حصل على كفاية جسده من النوم، فينهض بلياقةٍ بدنية، وصفاءٍ ذهني.

هذه هي أجواء هذه الآية التي علينا أن نفضّ أغلفة الكلمات عنها، لتجلو أمامنا هذه اللآلئ النفيسة، والثمار اليانعة.

فإذن، عندما تذهب صباحاً لإنجاز عملٍ ما، وحتى تحقِّقه بشكلٍ جيدٍ، عليك أن تحقِّق لجسدك كفايته من النوم والراحة، فاعطه ما يريد منك، حتى يعطيك ما تريد منه، وعليك ألَّا تُرهقه، ولا تستهلكه في سفائف الأمور. وهو يحفظك، بقدر ما تحفظه مهما تقدَّمتَ في العمر، لأن كل ما بجسدك، هو صالحٌ، ولا يتعرَّض أي جزء منه للعَطَب، مهما مَضَت عليه السنوات، إلّا إذا كان استخدامك له سَيّئاً.

الآيةُ الكريمةُ تُريك هنا كيف أن الله سبحانه وتعالى هيَّأ المسلمين للنصر، فاستمتعوا بنومٍ هانئٍ، ونهضوا بلياقةٍ.

وهنا أيضاً مسألة أخرى، وهي أن تبذل جهداً في سبيل تحقيق مبتغاك، ومهما واجهتك المعوّقات، فعليك أن تتصدَّى لها دون أن تيأس، لأن اليأس من شأنه أن يهدر كل منجزٍ حقّقته خلال الفترة الماضية، فعليك أن تُحافِظ على ما حقَّقته، وكذلك تتقدَّم به، وتكون على استعدادٍ لبذلك الجهد، وتحمّل المشقَّة حتى تصل يداك إلى اللآلئ النفيسة، والثمار اليانعة.

إذن، هؤلاء عندما نهضوا، واجهوا معضلةً أخرى، وهي أن جيش العدو تمكَّن من السيطرة على موضع الماء في منطقة بدر، وهؤلاء يحتاجون إلى الماء للشرب، وللوضوء، ويبدو أن البعض أيضاً قد احتلم في نومه، وأصابته جنابة، فيحتاج إلى رفعها عنه، والمكان الذي ناموا فيه رملي، بينما المكان الذي بلغه المشركون ترابي.

وهنا يمكن للشيطان أن يرى منفذاً، وينشط، فيبث وساوسه إلى البعض عن كيفية أنه يخوض حرباً وهو على جنابة، وهذا من شأنه أن يخفض العزيمة. فما المَخرَج؟ المَخرَج دوماً هو الاستغاثة بالله عز وجل، والإصرار على المواجهة، وعدم الاستسلام.

وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، إذا استغاث بالله سبحانه وتعالى، واتجه إليه بالدعاء. وفي ذلك روى البخاري عن ابن عباس قوله: (قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد"). ويستجيب الله سبحانه وتعالى، ويُنزل مطراً، كما تبيِّن الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ للوضوء ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، برفع الجنابة التي وقعت في النوم.

الآن أصبحنا أمام عاملَين من شأنهما أن يقوّيا الجيش الضعيف، ويُضعِفا الجيش القوي، الأول: النهوض بلياقة بعد أخذ الحاجة الكافية من النوم، في حين الحرمان من النوم بالنسبة للقوي مما أدى به إلى الإرهاق.

الثاني: المطر الذي هطل على أرضٍ رمليَّةٍ، فجعل الحركة سريعة عليها، كون الأرض الرملية، لم تكن سهلة قبل المطر ومن شأنها أن تعيق الحركة، وبالمقابل، فإن المطر الذي هطل على أرضٍ ترابيةٍ، جعل الوحول متراكمة، بحيث تنغرز فيها الأقدامُ، وتُصبح الحركةُ فيها بطيئةً، وبذلك فقد انعكست الظروف الطبيعية التي كانت عليهم، فأصبحَت لهم، والتي كانت للمشركين، فأصبحت عليهم.

﴿وَ﴾ - قد جعل الله ذلك -: ﴿لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فتكون مترابطة ومتعاضدة مع بعضها البعض، بعد أن كانت مشتَّتة. وهذه علاماتٌ بأن الله الذي وعدكم بالنصر، لن يتخلَّى عنكم مهما كانت الظروف، وهو قادرٌ أن يُقلِّبها رأساً على عَقِبٍ بين لحظةٍ وأخرى، فيجعل الأسباب التي تقوّيكم، وتضعفهم، وكذلك تجعلكم في قلوب مترابطة. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

فتمضون بأقدامٍ ثابتةٍ، وواثقةٍ، لا يشوبها تردّد، وأنتم تبلِّغون رسالة الله إلى الناس، دون أن تتسبَّبوا لأحدٍ بأذى، مهما كان كارهاً، أو رافضاً لكم، إلّا الذي يشنّ حرباً عليكم في دياركم، حتى يثنيكم عن ذلك، فلا تقفوا عند ذاك مكتوفي الأيدي، وواجهوهم دون أن تتخاذلوا، أو ترضخوا لسيطرتهم. وإن تراجَعوا، فقدّموا إليهم مصحفاً بيدٍ، ووروداً باليد الأخرى، ودعوهم لله تعالى، إن شاء هداهم، وإن شاء تركهم في ضلالهم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾ [النمل: ٤].

فإن آمنوا تكونون أنتم قد تسبَّبتم في إيمانهم، وإن أصرّوا على كفرهم وعاندوا، فتكونون قد فعلتم ما أمركم به الله من البلاغ، دون أن تتجاوزوا الأمر، فذلك شأن الله مع عباده، دون أن تتدخَّلوا في هذا الشأن.

من هنا تعلم بأن لا استخدام للسلاح قط، وهو يكون معك فقط للدفاع عن النفس، عندما يتقدَّم أحدٌ إليك بالسلاح، وحتى لو كان عدوّك، وتقدَّم إليك بالكلام، فتردّ عليه بالكلام. فالكلام نظير الكلام، والسلاح نظير السلاح.

فعندما تجعل الآخر مضطرّاً ليُخرج سلاحه، كي يكفَّ أذاك عنه، فاعلم بأنك انحرفت عن تعاليم الإسلام، فدوماً أنت الذي تصدّ الأذى، لا أن يُصدّ أذاك، دوماً يكون المصحف عالياً، لا يعلوه شيء، المصحف الذي فيه الخير، والنفع، والتسامح، والمحبة، والأخوّة الإنسانية، وحرية المُعتَقَد.

الباب الثاني عشر
بين الضرب والقتل

[١٢]

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

تبيّن هذه الآية الكريمة، تواصليَّة العِلاقة بين الله، والإنسان من خلال الملائكة، فالملائكة، يفعلون ما يُؤمَرون به من الله سبحانه وتعالى. ومُهِمٌّ للغاية أن نلبث مركِّزين على البقاء ضمن أجواء هذه السورة، لأن خلاف ذلك، يجعلنا ننحرف عن السياق المضموني لجوهر السورة، ونتأوَّل ظاهر الكلمات فحسب.

فعلينا ونحن على مشارف الدخول إلى عالم هذه الآية الكريمة، أن نعلم بأن هذه السورة الكريمة لم تنزل قبل معركة بدر، بل أُنزِلَت بعد الانتهاء منها، فهي بذلك خير وثيقةٍ عنها، توثّق مجرياتها، وتفاصيل أحداثها.

وما هو هامٌّ بالنسبة لنا، هو أن هذه التفاصيل والأحداث، تتكرَّر، سواء على مستوى الدول، أو على مستوى الجماعات، أو حتى على مستوى الأفراد. أي هي ليسَت مقتصرة على أناسٍ دون غيرهم، أو مكانٍ دون غيره، أو زمانٍ دون غيره.

لماذا؟ لأننا أمام كتابٍ تشريعي، تُستَخرج منه الأحكامُ الشرعيَّةُ في كل زمانٍ ومكان، وكتابٍ يُتعبَّد به، وهو كِتابُ الله لِعِباده ليُحسِّن لهم حياتهم، فلا يكتفوا بقراءته فحسب، بل يعملون بِما هو كامنٌ فيه، لأنه تشريع الله تعالى فيهم.

وهذا هو لبُّ الفرق بين الوثائق التي يوثّقها القرآن الكريم، وبين الوثائق التي توثِّقها الكتب. فما توثِّقه الكتب، هو للعبرةِ، والعظةِ، والحكمةِ، والمعرفةِ، وللتأريخِ، أمّا ما يوثّقه القرآن المجيد، فهو إضافة إلى ذلك كتابٌ تشريعيٌ فيه الأحكام الإلهية، وفيه الحلال والحرام، وهو كتابُ عِبادة.

والأمر الآخر أن القرآن ينتقي الوقائع التي تلبث تتجدَّد وتتكرَّر في الناس، وهو بذلك يلبث كتاب الساعةِ في كل ساعة. ذلك أن الله حي، والملائكة أحياء، والناس الذين هم امتداد لأولئك الآباء والأجداد، أحياء، وهذا من شأنه أن يقوّي صلة الإنسان بربّه. فما وقع، يمكن له أن يقع، وكما أن معجزاتٍ إلهيةٍ صَنَعَت أحداثاً استثنائيّة عبر التاريخ الإنساني، فإن ذلك يلبث قابلاً للوقوع، لأن الله، هو جلّ شأنه، والملائكة، هم الملائكة عليهم السلام، والناس، هم الناس.

فإذن، يمكن لحافلةٍ أن تتعرَّض لحادثٍ مروعٍ، ولكن ينجو منها أشخاصٌ بطريقةٍ عجيبةٍ، ولكن كيف يحصل ذلك؟

هذه الآية تعلّمك بأن ذلك لا يحصل من تلقاء نفسه، أو مصادفةً، بل يُنَفِّذ الملائكةُ أمر الله بالنجاة الذي يراه الناس عَجَباً، إذن، لِنَلِج إلى رحابة عالم هذه الآية الكريمة، ونسأل الله تعاظم شأنه، التوفيق.

الشطر الأول من الآية: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾. الخِطابُ هنا موجَّهٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾. وبعد ذلك يُصبِح الخِطابُ موجَّهاً إلى عموم المسلمين، وقد جاء الخِطابُ بصيغة المُضارع، وهذه إشارة إلى الاستمرارية في الوحي، رغم أن الأمر كان قد حصل، والله ينقل إلى رسوله ما قد حصل، ولم يقل جلّ شأنه: (أوحيتُ)، أو (أوحى)، رغم أنه الآن مع نزول الآية، يكون الوحي الذي هو أمرُ الله ﴿إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، قد تم، وهذا إخبارٌ بأنه قد تم بالفعل، وذلك أمسى في حكم الماضي لحظة تلقّي النبي صلى الله عليه وسلَّم هذا الإخبار. ولكن جاءت ﴿يُوحِي ﴾، بهذه الصيغة المُضارِعة، ليعلم الناس بأن الله سبحانه وتعالى، قد أوحى في تلك الواقعة، وأنه كذلك يلبث ﴿يُوحِي ﴾ في كل زمانٍ ومكان، ﴿إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، لتحقيق المعجزات الإلهية في علاقةٍ تواصليَّةٍ مستمرَّةٍ بين الله، وبين الناس، من خلال تنفيذ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ لأوامر الله، تعالى ذكره.

فقد أمر الله ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أن يُعلموا رسوله بأنه مع المؤمنين. ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾. الثبات هو نقيض التأرجح، ويبدو أن الثبات في أرض المعركة قد تأرجح بهم نتيجة كل تلك العوامل.

حينها: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، لن أدع عدوّي وعدوّهم ينتصر عليهم، ليثبتوا، ويواجهوا، ويدافعوا عن أنفسهم، وعن دينهم ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾.

فعلى قدر ما يزهو الكافر، ويتبختَر، يجعله الله تعالى في حالةٍ معاكسةٍ، فيُصبح مرتَعباً، يستبدُّ به الهَلَعُ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يُلقي في قلبه ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾، هذا ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ الذي يوقفه عند حدّه من الجور، والطغيان، والانتهاكات، والكفر، بعد أن يستنفد كل فُرَص الإمهال، لعلَّه يتراجع، ويصلح، لكنه يزداد جبروتاً، وطغياناً، عندها، يذلّه الله عز وجل.

ولم يقل الخوف، بل ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾، الذي هو مزيجٌ من الذعر، والهلع، والقلق، والخوف.

وهذه إشارة إلى مدى قوّة العدو، وأن هزيمتهم تكون معجزة، فإن تكَرَّر ذلك، لا تفقدوا الأمل، ما دمتم على حق، ومادام عدوكم على باطل، ﴿سَأُلۡقِي﴾، السين في الكلمة تأكيديَّة، وهي أقوى من (ألقي). ولا أحد قط من خلق الله جميعاً بمقدوره أن يقول هذه الكلمة الحاسمة الجازمة، إلّا أن يقول: (إن شاء الله). وما دون ذلك، هو وهمٌ كبيرٌ، وهو تجاوزٌ لإمكانات الإنسان المحدودة، وعدم علمه بالغيب، لأنه لا يعلم ما الذي سيحصل بعد قليل.

﴿سَأُلۡقِي﴾، بسين المَقدِرة المطلقة النافذة لا محالة، وهو جلَّت قدرتُه غنيٌ عن التأكيد، وهذا من شأنه أن يجعل المؤمن ثابتاً، ومهما كان الباطل قوياً، فلا يستسلم، ولا ييأس، فذلك امتحان الله تعالى له، وهو القائل: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾. فتسأل الله أن يلقي ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ في قلوب الأقوياء الذين يسعون إلى إلحاق الأذى بك ظلماً وعدواناً، لأنك أضعف منهم، فهُنا يُخبرك الله بأن إيمانك، أقوى من أي قوّةٍ يتمتَّع بها أهل الباطل.

فجاءت السين تأكيديَّة من باب الاستزادة في الثبات بالنسبة للمؤمن الذي يكون على حق، وبثّ إشراقة الأمل إلى نفسه حتى وهو في أحلك الظروف. فوعدُ الله،

يجعل الأمل ينبثق حتى في أكثر النفوس يأساً، وهو بمثابة المصباح الإلهي الذي ينير أي ظلمة، ويجعل حتى الصخرة، تنبت فيها وردة. وهذا الأمل يظل مفتوحاً أمام الناس جميعاً وفق صيغة الجمع: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾.

كذلك في مختلف الظروف الحياتية، فإن الله يردّ الكافر عن المؤمن، ويلقي في قلب الكافر ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ من المؤمن.

فهذا الإمداد المادِّي، والمعنَوي من الله، هو في قمَّة جاهزيَّته، وهو قابلٌ للتحققِ في أي وقتٍ من الأوقات، سواء بالنسبة للجماعات، أو بالنسبة للأفراد، فإن الله ينصر الحق على الباطل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

فمهما كان الإنسان الفاسد نافذاً ومتمكِّناً، فإن للصالح هيبة في قلبه مهما كان متواضعاً في النفوذ والتمكُّن.

فهو لا يجسر أن يُثَبِّتَ نظراته في عَينَي الصالح، لأن الاشعاعات التي تبثّها عينا الصالح إليه، تجعله يحيد بعينيه عنه، وهذا من إمداد الله لِعباده المؤمنين الصالحين.

وهنا عليك أن تكون دقيقاً في هذه المسألة، ولا يذهب بك الاعتقاد بأن الظلم لا يقع، بل هو ممكن الوقوع، وذلك حتى تظهر آياتُ الله في الإنسان من خلال الواقع اليومي المعيشي للناس، ففلانٌ، ظَلَمَ فلاناً، ثم انتهى الظالم نهاية مروعة. فهذه عِبَر تحدث حتى يتَّعظ بها الناس في حياتهم العَمَليَّة، فشخصٌ ما قد اعتدى على أموال شخصٍ آخر، فنرى بأن هذا المال المسروق، يُسبِّب الكارثة تلو الأخرى للمُعتَدي حتى ينتهي بمأساة، والناس يرون آيات الله تتمثَّل أمام أعينهم كي يصلحوا.

ثم إنه يسقط شهداء من الصالحين في الحروب، على أيدي الفاسدين، كما حصل في معركة بدر ذاتها، وذلك حتى تبقى الحياة محافظة على طبيعتها. فهذه حكمةُ الله تعالى في سيرورة صلاح عمارة الحياة، وفي الوجهَين يرضى المؤمن بأمر الله، سواء أَأبعَدَ الظالمَ عنه، أو تمكَّن الظالمُ منه. فقد يتلقّى الأذى بالبَدَن، أو المال،

أو الولد، أو ما شابه، وفق مختلف مستويات الضرر. ففي الأولى: يحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات. وفي الثانية: يحمد الله على كل حال.

﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾. الفاء هنا بمثابة الاستزادة في التماسك بين جُمَلِ الآية، والتعاضد بين معانيها: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾، ﴿فَـ﴾ - استناداً إلى ذلك -: ﴿اضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾. لا يعني ذلك أن تقفوا مكتوفي الأيدي، كون الله قد وعدكم بالنصر، بل تجاهدون وتقفون رجالاً أقوياء على حدودكم حتى لا يقربها جائر.

وكلمة ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾، بمعنى أن تسعوا إلى عوامل القوّة، وتتمكّنوا من الوسائل الدفاعية التي تردّون بها أي جائرٍ يريد النَيل من موطنكم بشكلٍ عام، أومن بيتكم، أو أحد أفراد أسرتكم بشكلٍ خاص، ويدخل ضمن ذلك الحفاظ على لياقة البدن، وألّا ينهك الإنسان طاقته في المجون، وكذلك ألّا يستهلكها بإفراطٍ حتى في المُباحات، فقبل أن يبلغ مرحلة الإرهاق، أو الإنهاك، يتوقَّف، ويأخذ قسطاً من راحة، لأن عمل خمس ساعاتٍ براحةٍ، قد لا يُنهك الجسد بقدر عمل ربع ساعةٍ عندما يكون مُرهَقاً.

جاء في صحيح مسلم: (حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّيْمِيُّ، وَقَطَنُ بْنُ نُسَيْرٍ وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى، أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِيَاسٍ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَمَا ذَاكَ "؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)[1].

فعندما يكون الإنسان يكون مرتاحاً، يكون نتاج عمله جيداً، وعندما يكون مرهَقاً، يكون نتاجه أقل جودة، لأن طاقته المُنهكة لم تعد تساعده في التركيز أكثر من ذلك. ومع التكرار يتعرَّض الجسدُ للعطَبِ، فتستقوي عليه حتى الفيروسات النائمة، التي كانت ضعيفة، عندما كان قوياً، وبدت قوية عندما رأته ضعيفاً، وهذه الخلايا الفيروسية موجودة بطبيعتها داخل أي إنسانٍ، لكنها تكون نائمة مادام يتمتَّع بقوَّته، ويكون جهازُه المناعي قوياً، لذلك عندما يهمل الإنسان نفسه غذائياً، ويحدث نقصٌ في بعض الفيتامينات لديه، تبدأ هذه الخلايا النائمة في التحرّك، فيشعر بشيءٍ من الخلل في التوازن، أو تلتهب لثَّته، وقد ينتج عن ذلك ورمٌ يظهر على الوجه، أو تظهر بعض الرتوش بجانب ضفائر يدَيه، وما إلى ذلك.

وربما يزول ذلك بشكلٍ تلقائيٍ عندما يتناول الشخص تلك النواقص دون أن يعلم بها، أو يعلم ذلك، فيتناول تلك الفيتامينات الناقصة، وإن أهمل ذلك، سوف تستقوي عليه تلك الخلايا حتى توقعه أرضاً، أو تسبِّب له مرضاً، فيضطر للذهاب إلى الطبيب كي يتلقى العلاج.

فشخصٌ يدخل بيتك، ويريد أن يُلحق الضرر بعيالك، ويبث الفساد بينهم، عليك أن تتصدَّى له، وتُبعد أذاه عن عيالك، بمقتضى مسؤوليَّتك عن حمايتهم، فلا تدعه يعيث فساداً بين أفراد عائلتك، وأنت تنظر إليه مكتوف اليدَين، ومشلول اللسان، كأن الأمر لا يعنيك بشيء.

ولكل حالةٍ أسلوبها في إبعاد الأذى، ولذلك وردَت ثلاث كلمات: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث ٤٩٤٣.

ولم ترد كلمة واحدة مثل (فاقتلوهم)، لأن مثل هذه الكلمة كانت ستحدِّد طريقة واحدة، وهي القتل. لكن الذي حصل أن التفاسير أجمَعَت أن جملة ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، تعني قطع الرأس. وجملة ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾، قطع الأصابع.

جاء في تفسير الرازي: (وفي قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قولان: الأول: أن ما فوق العنق هو الرأس، فكان هذا أمراً بإزالة الرأس عن الجسد.

والثاني: أن قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي فاضربوا الأعناق.

ثم قال: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ يعني الأطراف من اليدين والرجلين، ثم اختلفوا فمنهم من قال المراد أن يضربوهم كما شاؤوا، لأن ما فوق العنق هو الرأس، وهو أشرف الأعضاء، والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء، فذكر الأشرف والأخس تنبيهاً على كل الأعضاء، ومنهم من قال: بل المراد إما القتل، وهو ضرب ما فوق الأعناق أو قطع البنان، لأن الأصابع هي الآلات في أخذ السيوف والرماح وسائر الأسلحة، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة).

وجاء في تفسير ابن كثير: (﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ أَيْ اِضْرِبُوا الْهَامَ فَفَلِّقُوهَا وَاحْتَزُّوا الرِّقَاب فَقَطِّعُوهَا وَقَطِّعُوا الْأَطْرَاف مِنْهُمْ وَهِيَ أَيْدِيهمْ وَأَرْجُلهمْ).

وجاء في تفسير الزمخشري: (﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح، لأنها مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزاً وتطييراً للرؤوس. وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق، يعني ضرب الهام).

وجاء في تفسير الطبري: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين، مُعَلِّمَهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف: أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل).

وجاء في تفسير البقاعي: (ولما كان ضرب العنق والرأس أوحى مهلك للإنسان، وكان العنق يستر في الحرب غالبًا، عبر بقوله: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: الرؤوس أو أعالي الأعناق منهم لأنها مفاصل ومذابح.

ولما كان إفساد الأصابع أنكى ما يكون بعد ذلك لأنه يبطل قتال المضروب أو كمال قتاله، قال: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾).

وجاء في تفسير السمرقندي: (ثم علم المؤمنين كيف يضربون ويقتلون فقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يعني على الأعناق ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني أطراف الأصابع وغيرها).

وجاء في تفسير الخازن: (قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحاك: معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة. وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق فتكون فوق بمعنى على ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني كل مفصل. وقيل: أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الإنسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب لأن بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله).

وجاء في تفسير الشوكاني: (قيل المراد بفوق الأعناق: أعاليها، لأنها المفاصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قيل المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب. فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال، بخلاف سائر الأعضاء).

وجاء في تفسير ابن عاشور: (وإنما خصت الأعناق والبنان لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين وضرب البنان، يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع، ومن ثم كثر في كلامهم الاستغناء بذكر ما تتناوله اليد أو ما تتناوله الأصابع، عن ذكر السيف).

وجاء في تفسير المراغي: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي فاضربوا الهام، وافلقوا الرؤوس، واحتزّوا الرقاب وقطّعوها وقطّعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره).

لكن الضرب، هو ضرب، والقتل، هو قتل، والقطع، هو قطع، وقالت الآية بالضرب، لكن عندما يُراد القطع، فيكون الكلام واضحاً، مثل: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

وفي قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء: ٣٤].

الضرب لا يعني القتل، فإذا كان الضرب فوق الأعناق يعني القتل من خلال قطع الرأس، فيكون الضرب مع عدم ذكر الأعناق، هو قتل دون قطع الرأس، مادامت كلمة الضرب بذاتها تعني القتل كما أوردَت التفاسير. والأمر الآخر، أن اتِّباع هذه التفاسير أمرٌ مُحالٌ، لأنَّها تحصر على المؤمن عند نشوب الحرب أن يضرب فقط ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أو ﴿كُلَّ بَنَانٖ﴾.

فإن أصاب ما تحت الأعناق ولو بقليلٍ، فيكون قد خالف الأمر الإلهي، وكذلك إن تجاوز أصابع اليدَين، أو القدَمين.

والأمر الآخر أنه مع مرور الزمن، تغيَّرت أدواتُ الحروب، فأصبحت هناك الطائرات الحربية التي يمكن لها أن تُسقط القنابل على العدو، وكذلك الدبابات والقاذفات والأسلحة الرشّاشة، وما إلى ذلك. هذا في حال الحرب، أما إذا كان المُراد من خلال التمكُّن من العدو وأسره، فكذلك لا يُبيح الإسلام قتل الأسرى، أو التنكيل بهم، بل الإحسان إليهم، وحتى إطعامهم مما يأكل المسلمون، وقد أطلق المسلمون في معركة بدر سراح الأسرى وعادوا إلى أهليهم كما أتوا، دون أن يقطع المسلمون رؤوسهم، أو أصابعهم.

فيمكن في حالةٍ ما أن تُشهِر عليه السلاح، فيلوذ بالفرار، عندها تتركه دون أن تطلق عليه الرصاص، وأنت تُحسن النية، وتسأل الله أن يصرفه عنك، ويهديه، ولعلَّه يُصبح صالحاً، ينتفع منه الناس.

فلا جواز لقتل شخصٍ إلّا في الحالات الحَرِجة، بحيث إنك تجد نفسك بين أن يقتلك، أو تقتله، فالأولوية تكون لاستنفاذ كل الوسائل وفق تدرُّج، بمقتضى تدرُّج الحالة الواقعة. وهذا يكون أيضاً حتى في المداهمة من قِبَل الفرق الخاصة، عندما تحدث حالات اختطاف، وما شابه، فدوماً تكون الأولوية لإنقاذ حياة الجميع.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾. تكـرَّرت كلمـةُ الـضرب، لتعطفهـا علـى جملـة ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾، إذن، الآن: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

فلو كان الضرب في الجملة الأولى يعني القتل من خلال قطع الرأس، لما كان الأمر بحاجةٍ إلى قطع ﴿كُلَّ بَنَانٍ ﴾، أي بتر أصابع اليدَين والقدَمين.

وهذه هي المعضلة التي واجَهَت التفاسير، حيث استناداً إلى تفسير أن الضرب في الجملة الأولى يعني القطع، فهو كذلك في الجملة الثانية، فأجمعت تلك التفاسير أيضاً بأن ضرب البنان، يعني القطع.

وبذلك يُفهَم بأن القرآن يدعو إلى التمثيل بالجثث، وهذا يحدث بالنسبة لبعض الفرق الضالّة التي تتَّبع تلك التفاسير، وتستخرج منها الفتاوى.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ﴾، أي من أعدائكم الأحياء الذين تهجَّموا عليكم في دياركم، فالضرب هنا يكون لشخصٍ يتحسَّس الوجع، لأن الضرب ليس لهدف الضرب أو الانتقام، بل لهدف عدم تكرار الاعتداء، لأنه يعلم بأنه سوف يُضرَب، ويوُجَع إذا كرَّر هذا الاعتداء، وضربُ الأصابع من أكثر المواضع التي توجع، وضربُ اليدَين، أو القدَمين، يكون للتأديب،

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ﴾، أي ﴿مِنْـ﴾ - مجمـوع أعـضاء ﴿هُـمْ﴾ - ﴿كُلَّ بَنَانٍ ﴾، إصبعٍ. و: ﴿كُلَّ﴾، لا يعني ضرب العشرين إصبعاً، بل لك ما تشاء من ضرب الأصابع حتى ترى بأن رسالة التأديب والتخويف قد حَصَلَت بالنسبة لهذا الذي تهجَّم عليك في بيتك لماذا؟ كي يرتدع المضروب عنك ويخافك، وبالتالي لا يُعاود تهجّمه عليك مرة أخرى.

وهذا أمرٌ هامٌّ للغاية، وهو أن هذا الشخص يكون معتدياً عليك، وأنتَ تردّ اعتداءه فقط بأقل ما يمكن من أضرار، بل حتى دون أن تفضحه أو تُشهِّر به، ولا علاقة لذلك بمعتقده الذي هو عليه، ولا حتى أن تتقصَّد الزيادة في ضربه حتى يترك

معتقده ويؤمن، أو تلمح له بأنه إذا آمن، لن تضربه، فهذه الوسيلة تكون منحصرة فقط كي يرتدع عنك.

وقد سُمّي الإيمانُ إيماناً، لأنه قناعة ويقين، ولا يكون نتيجة ضغطٍ من مؤمنٍ ما، فإذا خيَّرتَ شخصاً بين أن يصلّي وبين أن تؤذيه، فيكون قد صلّى لدفع أذاك عنه، وليس عبادة لله تعالى.

فإذن أنت تردع هذا المتجاوز عليك من خلال وسيلتَين هما: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾. وهذا يكون كافياً لأنه قبل ذلك في الجملة التي سبقت هاتين الجملتَين من الآية ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾.

فأنت تستخدم هاتين الوسيلتَين مع شخصٍ مرتعبٍ، هذا ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ الذي ألقاه الله عز وجل في قلبه.

فالأمر هو للتخويف، تخويفٌ معنويٌ من خلال ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ الذي يلقيه الله في قلبه، وتخويفٌ مادِّيٌّ من خلال استخدام الضرب الذي يكون موجِعاً، والأصابع هامة في الجسم، بل يُصبح الجسد شبه مشلول دون أصابع:

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامة: ٤].

والإنسان يعتمد بشكلٍ كبيرٍ على أصابع يدَيه وقدَميه، فدوماً تكون الفرصة سانحة أمام الإنسان حتى يؤوب إلى الحق، ودوماً يمكن أن يخرج مؤمنون من أصلاب الكفار، ويمكن لأشد الناس كفراً أن يؤمنوا.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ

بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ" فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا")[١].

وعندما طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على المشركين عندما أُصيب في أحد، دعا لهم بالهداية: "اللهم اهد دوساً". وفي حديث آخر: "اللهم اهد ثقيفاً".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا"[٢].

فكلَّما كان المؤمن حَسَناً في أخلاقه مع الكافر، كلَّما أفصح له عن فضائل الإيمان، وأثبت له بأن المؤمن أرقى أخلاقاً من الكافر، وذلك من أساسيات الدعوة إلى الإيمان.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث ٣٢٣١.

(٢) رواه مسلم.

الباب الثالث عشر

عقاب الله

[١٣]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

اختُصِرَ العقاب الذي لقيه الكفّار في الآية السابقة: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾، في: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾.

ف ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العِقاب المذكور تَلَقَّوه نظير ﴿أَنَّهُمْ شَآقُّوا۟﴾ عادوا ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي أنزل القرآن بالحق، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، الذي حَمَلَ هذا القرآن وبشَّرَ به.

فهؤلاء ﴿شَآقُّوا۟﴾، اعترضوا، وأنكروا، وليس هذا فحسب، بل جعلوا الذين يؤمنون، يلقون المشقَّةَ على أياديهم، حيث يلحقون بهم الأذى، ويضيِّقون عليهم سُبُل المعيشة حتى يتراجعوا إلى الكفر. فجاءت الكلمة دقيقة تحتمل سعة في تعدّد المعاني.

﴿وَمَن﴾ مِنَ الناس جميعاً، ﴿يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يتدخَّل في شأن ﴿ٱللَّهَ﴾ مع عِباده، ويريد أن يمنع رسوله من نشر الرسالة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. قادرٌ أن يجعل أسباباً يلقى بها عِقاباً شديداً، وتردعه.

الباب الرابع عشر
جزاء الكفر

[١٤]

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝١٤ ﴾

بدأت الآيةُ السابقةُ بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، العِقاب المذكور، والآن تبدأ الآية بـ ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، فتحوَّل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي كان وصفاً إلى ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الذي أصبح راهِناً وواقِعاً. ﴿فَذُوقُوهُ ﴾، تجرَّعوه رغماً عنكم في الدنيا، وكلمة ﴿فَذُوقُوهُ ﴾، متفرِّعة المعاني، فيمكن أن يكون العقاب نفسياً، بدنياً، معنوياً، مادياً.

وكما أن الله الذي توعَّدكم بالعذاب، وقد وقع وأنتم تذوَّقونه الآن، فكذلك ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾، ستكون النار ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة.

فاعلم أن الغاية من هذه الآية الكريمة، أن الإنسان لا يجوز له أن يعتدي على أخيه الإنسان، ولا يجوز له أن يحاربه في معتقده، مهما كان هذا المُعتَقَد، فلا المسلم يعتدي على الكافر ليجعله مسلماً رغماً عنه، ولا الكافر يعتدي على المسلم ليجعله كافراً رغماً عنه.

فإن أجاز الكافر لنفسه التدخُّل في شؤون المسلمين، والاعتداء عليهم، فيكون قد جَلَبَ لنفسه العِقاب الذي توعَّده به الله في الدنيا، والآخرة. وهذا الكلام كلّه جاء في كِتاب الله تعالى، من أجل أن يلتزم الإنسان حدوده، ويرتدع عن الاعتداء على الآخرين، سواء نفسياً، أو بدنياً.

وقد رأينا كيف يتم مقابلة النفسي بالنفسي، والبدني بالبدني، فإن أراد تخويفك بقوّته، فإن الله يلقي (الرَّعْبَ) في قلبه، والأمن في قلبك، ويأذن لك استخدام القوّة لردعه عنك.

الباب الخامس عشر

مواجهة المعتدين

[١٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ ﴾

اصمدوا، وواجهوا الكفّار وجهاً لوجه ﴿إِذَا﴾ زحفوا إليكم في دياركم وأهليكم، وإيّاكم أن ﴿تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾.

فلا تلوذوا بالفرار منهم، ولا تجبنوا، حتى لا يستقووا عليكم، بل واجهوهم، واثبتوا في دياركم، ودافعوا بعزيمةٍ عن دينكم، عن أعراضكم، عن أهليكم، عن أموالكم، ولا تديروا إليهم ظهوركم، وتنهزموا وتتركوا لهم كل شيء.

لأنهم عند ذاك، لن يكتفوا بذلك، وقد عهدوا منكم الجبن، والهزيمة، والخنوع، وسيلحقون بكم حيثما تفرّون منهم، ولن يهدأ لهم بالٌ حتى يفنوكم واحداً تلو الآخر.

إذن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ ﴾.

فلا جواز للهروب من ساحة المعركة عندما يستبيح الكفّار ديار المسلمين من خلال الزحف إليهم، فعندها يكون النفير العام، وحتى الزوجة تخرج للمقاومة دون إذن زوجها، والجميع يكونون في حالة مواجهة وفق الامكانات المتاحة لكل شخصٍ، صغيراً أو كبيراً، رجلاً أو امرأةً، شاباً، أو عجوزاً. والأمر قاطعٌ وجازمٌ من الله، ولا أحد يجوز له حتى أن يلتمس الإذن من أحد، لأن الجميع سواء في المواجهة، وعدم تولِّي ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ للهروب من التصدِّي للعدو.

قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾. إذا رأيتموهم رأي العين يتقدَّمون إليكم، عندها، واجهوهم بشجاعةٍ، ومهما كانت النتيجة، فإنها تكون لصالحكم، أما إذا لذتم بالفرار، فاعلموا، مهما كانت النتيجة، فإنها لن تكون لصالحكم.

الباب السادس عشر
جزاء الهروب من المعُتَدين

[١٦]

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا تأكيدٌ على الثبات للمواجهة والتصدّي لأي عدوان، من أجل الدفاع عن النفس، فأن تُقاوم وأنتَ تردع العدوان عن موطنك، بيتك، عرضك، دينك، نفسك، خيرٌ لك من الهزيمة، وقد أوليتَ ظهرك لكل ما يمكن أن يفعله الغُزاة، دون أن يُحرِّك ذلك فيك ساكِناً. فذلك ليس من القِيَم الإسلامية، ولا من القِيَم الإنسانية، وكأن لا شأن لك بِمَن يتصدّون للغُزاة من بَني جلدتك، وبَني موطنك، وبَني دينك، ولذلك يبلغ التحذير شدَّته في هذه الآية: ﴿ وَمَن ﴾ منكم جميعاً ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ يُدِر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عندما يقع الزحف ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ ظهره - وهنا قبل نَص العِقاب، يأتي الاستثناء، لأن العِقاب هو بالغ الشدَّة: ﴿إِلَّا﴾ باستثناء مَن يكون ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾، ينحرف عن موضعٍ في المواجهة إلى موضعٍ آخرٍ في ذات الموقع، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

وقد يترك الموقع كله حتى يأتي بمزيدٍ من مستلزمات المقاومة، أو إذا تعرَّض المسلمون لهجومٍ في موضعٍ آخرٍ في ذات الوقت، فيمكن ذهاب البعض من هذا الموقع إلى ذاك لمؤازرتهم، فيجوز له عند ذاك فقط أن يترك الموقع ويدير ظهره للمعركة ليس للفرار، بل ﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أخرى من المسلمين تعرَّضَت لشنِّ هجومٍ، لمؤازرتها ومساندتها.

و﴿إِلَّا﴾ دون ذلك: ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ مُنِيَ ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

جاءت كلمة بالغة الشدَّة، لأن لا شدَّة أكبر من شدَّة غضب الله، فشخصٌ ﴿بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأصبحَ مغضوباً عليه، يمكن أن يلقى ما يخطر، وما لا يخطر في

البال من ألوان العقاب في الدنيا.

ولـم تكتف الآيةُ بذلك، بـل: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ في الآخرة، وأيضاً لـم تكتف بذلك، بل: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وذلك أيضاً أسوأ مصير يمكن للإنسان أن يكون فيه في الآخرة.

فنحن إزاءَ آيتَين تحذيريتَين، تنزعـان الجُبنَ مـن قلب المؤمن، وتجعلـه قويّـاً، وشجاعاً، ومقاوماً، لا منهزماً، ومتخاذلاً.

لنقـرأ الآيتَـين معـاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

فكل هذا حتى لا يعطي المؤمن انطباعاً بالنقيصة عن نفسه، بل يعطي دروساً في الشجاعة والبسالة والمقاومة، ويكون قدوة لأبنائه وحَفَدَته.

فلا يكفي أن يكون الإنسان مؤمناً حتى لو كان هذا الإيمان حقيقياً صافياً دون أن تشوبه شائبة، بل على المؤمن أن يكون شجاعاً أيضاً، ويقف مواقف شجاعة إذا تعرَّض لاعتداء، وألّا يقبل على نفسه الذل والمهانة والخنوع. فالكلام موجّهٌ إلى المؤمنين، وقد خصَّتهم الآيتان دون غيرهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

فهؤلاء ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ بشهادة الله تعالى على إيمانهم في مبتدأ الآية الأولى، ولذلك تحوَّلَ الخِطابُ إلى صيغة المفرد في مبتدأ الآية الثانية: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾، واستمرَّ الخطابُ الفرديُ حتى نهاية الآية، لماذا؟

لأن المجموع هو شجاعٌ ومقاومٌ، لكن قد يشذّ بعض الأفراد من المؤمنين عن القاعدة الجهادية، ولذلك جاء الخِطابُ لهم بصيغة المُفرَد. وهذه إشارة بأن هؤلاء قلّة، نسبة إلى الكثرة المُقاوِمة والمُجاهِدة من أجل ردع الاعتداء، فرغم شهادة الله بالإيمان له، فإن الهزيمة جعلته يبوء ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا، ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. في الآخرة.

الباب السابع عشر

رمية الله

[١٧]

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

هذه آية مفصليّة من مفاصل هذه السورة الكريمة، حيث تبيّن بأن الله عز شأنه، يمكن أن يضع قوَّته في أشخاصٍ، فتتحقَّق مشيئة الله من خلالهم. وهنا فإن هؤلاء الأشخاص يكونون فقط أسباباً لمدَّةٍ محدَّدةٍ ريثما ينتهي الأمر الذي يريد الله تعاظَمَ شأنُه.

فترى هذا الشخص تبدر منه بوادر غير عادية، وغير مألوفة بَشَرِيّاً، وكما أن الناس يعجبون لها، فهو أيضاً يعجب لها، لأنه يُدرك أن ما يقوم به، يفوق إمكاناته وقدراته، بل حتى توقّعاته. فترى شخصاً يضع مخططاً لحياته، ولمستقبله، ولكن بعد سنواتٍ، تتحقَّق له أمورٌ ما كان يحلم بها، وما خَطَرَ له قط أنه ذات يومٍ سيبلغها.

مع الدخول إلى بيئة وأجواء هذه الآية المفصليَّة، نحتاج إلى استعدادٍ وتهيئةٍ لذلك، حتى نتلقَّى هذه الحقائق، ونكون أكثر قرباً منها، وأكثر يقيناً بها، وأكثر استيعاباً لها.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾.

اعلموا بأن الواقع الطبيعي في معركة بدر، يقول بأن نحو ثلاثمائة شخص ليسوا على استعدادٍ لدخول الحرب، يصعب عليهم الانتصار على نحو ألفٍ من المقاتلين الذين تجهَّزوا وتزوَّدوا تماماً لخوض حربٍ كل التوقّعات والمُعطَيات تقول بأن النصر سيكون حليفهم، بل حتى الثلاثمائة ليسوا على رأيٍ واحدٍ، والبعض بات يريد تجنّب المواجهة، لأنه بالأصل لم يأت إلى هذا المكان للحرب التي جاء خبر

قرب وقوعها بشكلٍ مفاجئٍ، بل المجيء كان من أجل التعرّض لقافلة قريش التجارية.

لكن فجأةً تغيَّرَت المُعطَيات، وعَلِم قائد القافلة أبو سفيان بذلك، واستطاع أن يغيِّر وجهتها، ويفرَّ بها، وعندما عَلِمَ أبو جهل بذلك، على الفور، جهَّز الجيش، وقاده للدخول في معركةٍ مُفاجئة مع هؤلاء، بل حتى الظروف الطبيعية كانت ضدّهم من خلال الموضع الذي كانوا فيه عند وقوع المعركة.

ولكن حَصَلَت المُعجِزةُ التي أذهَلَتهم، وكذلك أذهَلَت قُريشاً، وكلَّ مَن سَمِعَ بها، حيث استطاعوا أن يقتلوا حتى قادةً من هذا الجيش، ويأسروا الذين استسلموا، ويحقّقوا نصراً مؤزّراً سوف يبقى علامةً بارزةً في المواجهة بين قوتَي الإيمان، والكفر.

وهذا أنموذجٌ قابلٌ للتكرار عبر الزمن في أي مكان، ولأي إنسان. فإذن، عندما يمدّك الله بهذه المكرمات والقدرات الاستثنائية، لا تقل: أنا فعلت، وأنا قمت بذلك. دون أن تذكر الله، بل تذكَّر، واذكر بأن ذلك كان بتوفيق الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في بدر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

ولن ﴿تَقْتُلُوهُمْ﴾ بعد بدر، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. لأن هؤلاء يسعون إلى إطفاء الحق، والتنكيل بأهل الإيمان والصلاح، فلا يأذن لهم الله بذلك، ولكن بشرط أن تقاوموا، وتتشجَّعوا، وتستغيثوا بالله، وتسألوه المَدد، لا أن تولوهم أدباركم وتنهزمون، وتجبنون. ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

فنحن أمام سورةٍ بدريّةٍ بامتياز، ولكنها تتخذ من بدر أنموذجاً للمستقبل الإسلامي، ولمستقبل العلاقة بين المؤمنين وبين ربهم بصفةٍ عامةٍ.

وهي بذلك سورة تأسيسية، تؤسِّس الإنسان المسلم الجديد الذي اصطفاه الله تعالى، ليكون به كمال الدين، وتمام نعمة الله على البشريَّة.

فهؤلاء قد لاقوا أسوأ أشكال العنف الذي مورِس بحقِّهم نتيجة ممارستهم لحريّتهم الشخصية في المُعتَقد، ولذلك بقدر ما لاقوا من ألوان وأشكال العنف، فإن النزوع الإنساني يترسَّخ لديهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلَّم يُعزّز فيهم الحالة الإنسانية. جاء عنه صلى الله عليه وسلم: "من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه"(١).

فالمسلم هو الخُلاصة الكَماليَّة من أبناء آدم عليه السلام، ولذلك، فهو دينٌ عامٌ، يصلح للناس جميعاً، وما دونه ليس عاماً، لأنه لا يصلح للناس جميعاً اعتباراً من نزول القرآن.

إن قول الله عز وجل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. هو قولٌ مفتوحٌ للناس أجمعين، لأن ما أنزل الله من قبل، قد اجتمع في الكتاب الخاتم الذي وصفه الله تعالى بالكمال المُطلَق الذي لا كمال قبله، ولا كمال بعده.

فالنبي عليه الصلاة والسلام غير منفصل عن الأنبياء والرسل من قبله، بل هو متّصل معهم، وقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يقتدي بما كانوا عليه من هدى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. لأنه مكمل لمسيرة دِين الله منذ آدم عليه السلام، وخلال كل هذه الفترة الزمنية، كان هذا الدِّين طَور الإكمال، حتى أتمَّ الله نعمته على أبناء آدم، ورضي لهم ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، وقد أكمله لهم بالقرآن.

---

(١) رواه مسلم.

فبدون القرآن يبقى الدين ناقصاً، ودون الإيمان بالقرآن يكون الإيمان كذلك ناقصاً، بل حتى المسلم سيكون إيمانه ناقصاً دون الإيمان بما أنزل الله من قبل على أنبيائه ورسله، ولذلك جاء عنه صلى الله عليه وسلم: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويعجبون له: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".

فإذن كما أن القرآن أصبح الكِتاب المُصطفى، والنبي هو الرسول المصطفى، فإن المؤمن بهذه الرسالة المُصطفاة، المُتَّبع ما فيها من تشريع، هو الإنسان المُصطفى، وبالتالي هو الإنسان الذي بلغ من الكمال الإنساني، بقيمه، وأخلاقه، وصلاحه، وعدله، وخيره، وتقواه، ما لا يبلغه سواه، فهي رسالة جعلها الله صالحة لإنسان كل زمانٍ ومكان، ولا أحد قط لا تصلح له، ولا يصلح بها.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ما رَمَتْ يَدُك يا مُحَمَّد، ولكن يَد الله رَمَتْ بِيَدِك. وقَد حَصَلَ ذلك استجابة من الله - تعالى ذكره - لرسوله عليه الصلاة والسلام، عندما رأى نفسه مع المسلمين الذين يقودهم، في ضيقٍ شديدٍ، بل وخطرٍ شديدٍ يمكن أن يقضي عليهم جميعاً.

فذلك أمرٌ خارقٌ للطبيعة البشرية، لكنه متوافقٌ مع قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء.

فالطبيعة البشرية تقول بأن حفنة من التراب لا تستطيع أن تخيف جيشاً بأكمله، وتودي به إلى الهزيمة من ساحة المعركة، ولو وضع المشركون هذا الاعتبار، لَما أتوا بالأصل، لأن رجلاً واحداً يمكن له أن يُهزِمهم بحفنة تراب واحدة، فهذا لعلّه لم يخطر ببال أحدٍ بِمَن فيهم رسول الله، ولذلك سأل الله مَخرَجاً من المِحنة، فاستجاب له الله، وأرشده إلى أمرٍ يسيرٍ ومُتاحٍ، وفي مُتناول اليد، فكانت رمية الله بيد رسوله. قيل: (لما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك، اللهم إني أسألك ما وعدتني"،

فأتاه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه" فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه، فانهزموا).

لقد تحقق النصر، ولكنه لم يكن بقوة المسلمين، بل كان من عند الله، ﴿وَ﴾ اعلم يا مُحَمَّد أنك ﴿مَا رَمَيْتَ﴾ حفنة التراب على أعين القوم ﴿إِذْ﴾ عندما ﴿رَمَيْتَ﴾ هم بها، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. ولذلك ما فَعَلَته هذه الرمية، لم تكن بفعل رميتك، بل بفعل رمية الله، وهذا يبقى مفتوحاً عبر الزمن لِمَن يستغيث بالله كي يرى له مَخرَجاً من أمرٍ لا مقدرة له على مواجهته، فيؤازره الله سبحانه وتعالى، ويغيثه بما يشاء من أسباب.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾

﴿وَ﴾ الغاية من مؤازرة الله للمؤمنين، هي أن يحقق لهم نصراً طيباً ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ ليُنصر ويُظفر ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا بالله، وأصلحوا العمل ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ ظفراً طيّباً.

واختُتِمَت الآية الكريمة بخاتمةٍ دقيقةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾. فأي استغاثة من مؤمنٍ، يسمعها الله، وهو ﴿عَلِيمٌ﴾. لا شيء يخفى عن علمه.

الباب الثامن عشر

وهن الكفر

[١٨]

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

بيانٌ وإخبارٌ من الله عز وجل، بأنه ﴿مُوهِنُ﴾ مُضعِفُ ﴿كَيْدِ﴾ تآمرِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ على المؤمنين. فمهما رأيتَ الكافر في قوةٍ ونفوذٍ، يُخبرك الله ويُطمئنك بأنه جعل في بنيته وهناً، ومهما بدا المؤمن أدنى من ذلك، فإن الله جعل في بنيته قوة.

فالوهن مع الإيمانِ، يُشكِّل قوةً، والقوة مع الكُفرِ، تُشكِّل وهناً.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ النصر الذي حقَّقناه لكم رغم ضعفكم، والهزيمة التي جعلنا ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يمنَون بها رغم قوتهم، اعلموا بأن ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ قد وقع من الله.

وهذا مثالٌ رأيتموه وعشتموه، وهو قابلٌ للتكرار مع أي مؤمن، وأي كافر، إذا أراد الكافر أن يعتدي، أو يستقوي على المؤمن.

الباب التاسع عشر
فتح الله

[١٩]

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه آية حاسمة بألّا تضعف أمام أحد، ألّا تضعف أمام سلطة، أو جاه، أو مال، أو منصب، بل يكون ضعفك كله خالصاً لله سبحانه وتعالى.

ومن ثنايا ضعفك أمام الله، تستمدّ قوّتك إزاء كل ما هو دون الله تعاظَم شأنه.

فاعلم أن لا شيء قط يستحق أن تبدو ضعيفاً أمامه، لا مغريات قط، تساوي لحظة ضعفٍ واحدةٍ تبدر منك. واعلم بأنك عندما تضعف أمام شخصٍ، أو أمام مغرياتٍ، فإنك في ذات اللحظة، تستغني عن الله، ومَن يستغني عن الله، فإن الله في غِنى عنه.

فهي آيةٌ بالغة الدقة، وبالغة الدلالات، ومتفرِّعة المعاني، والخِطابُ فيها يجوز أن يكون موجَّهاً إلى المؤمنين، وإلى الكُفَّار معاً. كذلك يمكن أن يكون موجَّهاً إلى المؤمنين فقط، أو إلى الكُفَّار فقط، أو بعضها إلى المؤمنين، وبعضها إلى الكُفَّار. فالمؤمن يمكن أن يرى بأنها موجَّهة إليه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ تطلبوا الفتح من الله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ في بدر.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ عن الخلافات التي نَشَبَت بينكم قَبل بدء المعركة، من خلال تردّد البعض، وبَعدها من خلال تباهي البعض منكم بأنه هو الذي انتصر، كذلك الخلاف على تقسيم الأنفال.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ من كل ذاك الشِقاق ﴿فَهُوَ﴾، الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ إليه، ﴿نَعُدْ﴾ نترككم في خلافاتكم، ﴿وَ﴾ عندها ﴿لَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾. مهما كثر عددكم، ومهما تعاظَمَت قوّتكم، فإنكم تكونون ضعفاء إن لم يكن الله معكم.

والمثال جليٌّ أمامكم عندما كنتم ضعفاء وقلّة، وكانت الظروف كلّها ضدكم، فنصركم الله على جيشٍ أكثر عدداً، وأكثر قوةً منكم، وظروف النصر كلّها كانت معهم.

﴿وَ﴾ كل ذلك حتى تعلموا، وحتى يعلم المؤمنون من بعدكم: ﴿أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين الذين يكون إيمانهم خالصاً لله تعالى.

من جهةٍ أخرى، يمكن أن يكون الخِطابُ موجَّهاً إلى الكُفَّار ليُصحِّح لهم عقيدتهم المُزدَوَجة، ولنظير ذلك، جاء خِطابُ الآيةِ إلى الازدواج، لأن هؤلاء وإن كانوا مشركين، إلّا أنهم يؤمنون بالله، ويعتقدون بأنهم يُدافعون عن دين الله.

وهذا شأن الإنسان المشرك، إن كان يعقد آمالاً على الأصنام، أو على الكواكب، أو على بعض الناس، أو على الجن، فهؤلاء في النهاية، يؤمنون بوجود الله، ولكن هذا الإيمان يكون فاسداً، لأنهم يرفضون الإيمان بأن الله عز شأنه قد أرسلَ محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم أنبيائه ورسله.

ثم إن هذا الإيمان يكون مُزدَوَجاً، لأنهم لا يؤمنون بوحدانية الرب، بل يجعلون له شركاء، ونظراء، من الأبناء، أو البنات، أو الأصنام، أو الجن، أو الكواكب، أو بعض الناس، سواء أكانوا صالحين، أو غير صالحين، وما إلى ذلك من تفرّعات الشرك التي لا يتفق عليها حتى المشركون أنفسهم، لأن كل فئة منهم تقول بأنها على صواب، والأخرى على خطأ، لكنهم جميعاً يتّفقون على عدم وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعدم الإيمان بالقرآن، وعدم الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم، هو رسول الله.

لكن المسلم هو مؤمنٌ موحّدٌ لله عز وجل، ومؤمنٌ بكلِ أنبياء ورسل الله. ولذلك انتهت الآية بكلمة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. لماذا؟

لأن ليس كل مؤمن، هو موحِّد، ولكن كل موحِّد هو مؤمن، والمؤمن الموحِّد يكون مخلصاً في إيمانه لله تعالى وحده، ولا يعرف الازدواج إليه سبيلاً.

فهو مؤمنٌ بوحدانية الرب، وكل أنبيائه ورسله، ومنكرٌ كل ألوان وأشكال الشرك جملةً واحدةً. ولذلك يؤمن بقصص الأنبياء، ويتَّخذ من قصصهم عبرةً ويتَّعظ بها على قاعدة إيمانه الحاسم بأن هؤلاء هم رسل وأنبياء الله، بموجب إيمانه بأن القرآن هو كِتاب الله، لأنه لولا ذلك، لا يستطيع أن يؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم، هو خاتم أنبياء الله ورسله عليهم السلام. في حين إن المشركين لا يؤمنون بأن القرآن مُنزَلٌ من عند الله، ولا يؤمنون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وكذلك لا يتَّفقون فيما بينهم على لونٍ واحدٍ من الشرك، فالذي يصنع وثناً لحيوانٍ، يختلف مع الذي يصنع وثناً لإنسانٍ، كذلك الذي يقول بأن فلاناً من الأنبياء هو ابن الله، يختلف عن الذي يقول بأن الملائكة بنات الله، وهم يختلفون عن الذي يؤمن بأنه يتقرَّب إلى الله من خلال بعض الجن ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠].

إذن هؤلاء، يصلّون، ويصومون وينفقون الأموال في سبيل عقائدهم، ولديهم مواقعهم التي يعتقدون بأنها مقدَّسة، ويسيرون مسافات طويلة حتى يبلغونها.

ولذلك يُروى أن أبا جهل عندما قاد الجيش لخوض المعركة في بدر قال: (اللهمّ أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم). بمعنى ينحني أمام الآخر وينهار.

ثم قال المقاتلون، وقد تقدَّموا إلى الكعبة: (اللهمّ انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا). فكانوا في وهمٍ كبيرٍ بأنهم يدافعون عن الحق، وأن الله ينصرهم، وروي كذلك عنهم قولهم: (اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين). واستناداً إلى ذلك، يجوز أن يكون الخِطابُ في الآية موجَّهاً إليهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾، تسألوا الله

أن ينصركم وأنتم تشركون به، وتحاربون رسوله، وتستهزؤون بِما يُنزل الله من القرآن: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ﴾ مَن يستحقّون ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ بجدارة، فجعلهم الله فاتحين عليكم.

والغايةُ من ذلك والله أعلم، جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ مما أنتم فيه من ضلالٍ بعد أن تلقَّيتم هذا الدرس البليغ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من العِناد والاستكبار. ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، ﴿وَ﴾ في ذلك اعلموا بأنكم ﴿إِن تَعُودُوا﴾ إلى الحق، ﴿نَعُدْ﴾ عنكم، بل سترون من الله الخير، وهو أفضل لكم.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾

لا تظنّوا بأنكم ستعودون، وتعدّون أنفسكم، وتُجَنِّدون أكبر عددٍ من المُقاتلين، وتحصلون على معدّاتٍ حربيةٍ أكثر، وعند ذاك ستنتصرون.

بل كل ما يمكنكم أن تبلغوه، لن ينفعكم بشيءٍ مادمتم تضلّون عن توحيد الله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ﴾ قوة ﴿ٱللَّهَ﴾ مُسانِدة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يكون إيمانهم خالصاً بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، وبهذه القوة المُسانِدة يتحقق لهم ﴿ٱلْفَتْحُ﴾.

ولا يقتصر ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ على الانتصار في الحرب فقط، بل يفتح الله لهم في كل مجالات الحياة، فترى المؤمن يحقق فتحاً في مهنته، في تربيته لأبنائه، في علاقته بزوجته، في صلة رحمه، في العناية بصحَّته، في عقد علاقات صداقة حقيقية مع أصدقائه، في تحسين علاقاته الاجتماعية، في مواقفه، في النفع الذي يقدّمه للآخرين.

ولكن كيف تعرف بأنك مؤمنٌ مخلصٌ، أو أنك مؤمنٌ غير مخلص؟ هنا عليك العودة إلى تعريف الله سبحانه وتعالى للمؤمن المخلص، في الآيات ٢ - ٤: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾.

القراءة المتأنيّة هنا من شأنها أن تفعّل الإيمان في فؤادك، فهذه آيات تفعيلية تحفيزية، ينشرح لها الصدر، وتستكين لها النفس، وهي إلى جانب ذلك آيات علاجية، تربوية فتبيّن لك بأن اسم الله فوق كل شيء.

وعندما تقول: الله أكبر. لا شيء يُشغلك، لا شيء يُخيفك، ولذلك تم فيها ذكر الصلاة، وذكر الرزق، وذكر الإنفاق، وذكر المغفرة.

فإذا تدبَّرتَ قولك: الله أكبر. في الصلاة، ما شَغَلَكَ شيءٌ، ما أخافك شيءٌ، ما أقلقك شيءٌ.

فكل ما يمكن له أن يشغلك ولو لحظة واحدة، فإن الله أكبر منه. وإذا شعرتَ بشيءٍ من الطمع لكسب المال، فإن قولك: الله أكبر. يبيّن لك بأن الله أكبر من أن يبارك لك في رزقٍ حرامٍ، وهو أكبر بمباركته لك في رزقٍ حلالٍ.

وإذا كان بك شيءٌ من البخل، فإن قولك: الله أكبر. يبيّن لك بأنك تُعطى، كما تُعطي، فاعطِ كثيراً، لتُعطى أكثر، فالله أكبر من أي عطاءٍ تعطيه، ومهما اتّسع عطاؤك في سبيله، كان عطاؤه لك أجزل، لأنه الأكبر، وما لديه الأكثر، ولا يجوز لبشرٍ قط أن يكون أكثر كرماً منه، فكلَّما أعطى في سبيل الله، لقي ما هو أكثر من عطائه.

ثم جاءت المغفرة لتبيّن لك بأن قولك: الله أكبر. يعني مناشدتك لله سبحانه وتعالى بأنه أكبر من ألّا يغفر ذنوبك حتى لو كانت كزبد البحر، ومهما كنت مسرفاً على نفسك، ما دمتَ قد تبت وسألته المغفرة. وبذلك فإن حياة المؤمن تكون فتحاً في فتح، وحياة الكافر تكون إخفاقاً في إخفاق، فما يكاد ينتهي من انتكاسةٍ، حتى يُمنى بانتكاسةٍ أخرى، وما ذلك إلّا لأن الله ليس معه في انحرافه عن الصراط المستقيم.

الباب العشرون
الطاعة والاستجابة

[٢٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾

فما دمتم آمنتم، وحتى يتحوَّل هذا الإيمان من قولٍ إلى فعلٍ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. اعملوا بِما يبلّغكم به الرسول من آيات ﴿ٱللَّهَ﴾.

﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾ تعصوا ما يأتيكم به الرسول من عند ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ هذه الآيات، لأن التولّي عنه، يؤدّي إلى عدم العمل بما يأتي به، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وما دمتَ تؤمن بأنه رسول الله، فهذا يعني بأنك تطيع الله من خلال ما أتاك به رسوله، والذي يسمع عليه أن يتفاعل مع ما يسمع، وإلّا سيكون عاصياً لِما يسمع، فإذا أمَرَكَ القرآنُ بشيءٍ، ولم تمتثل له، فإنك تتولى عن الأمر، وبالتالي فإنك لا تطيع ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

فهذه آية تنبيهيّة، تنبّهك كي تؤوب عن أشواك التولّي، إلى زهور الطاعة. وما هو غاية في الأهمية أن هذه الدعوة تلبث مفتوحة مهما تَراكَمَت المعاصي لدى الإنسان، وفي أي مرحلة من مراحل العمر.

الباب الواحد والعشرون
التفاعل مع سماع الحق

[٢١]

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ﴾

ليس السمع لغاية السمع، بل ما الذي يحرّكه السمع فيك، وهذا هو جوهر الإيمان، فيمكن لأي إنسانٍ أن يسمع قول الحق، ولكن الذي يعمل بهذا الحق، هو الذي يكون مؤمناً به، ولذلك فإن المشركين، أو المنافقين عند نزول القرآن كانوا يقولون بأنهم سمعوا القرآن. ولكنه لم يكن سماعاً، رغم سماعهم، لأن ذلك ما كان يحرِّك فيهم شيئاً على قاعدة كفرهم، فبيَّن الله سبحانه وتعالى النقيض الذي ﴿هُمۡ﴾ عليه.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾، لكن الواقع أنهم: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

الآية هنا تجنِّب الازدواج عن المؤمنين، ولذلك قالت: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ مُزدَوَجين ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾. ذلك أن الله يعلم حقيقة إن كنتم تسمعون، أو لا تسمعون.

الباب الثاني والعشرون
العقل والتعقّل

[٢٢]

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فهؤلاء الذين ﴿قَالُواْ﴾ بألسنتهم ﴿سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾: ﴿هُمۡ﴾ فقط يدبّون بأقدامهم على الأرض مثل ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾.

الآية هنا متماسكة مع بعضها البعض، لتقدِّم حكمةً بليغةً، كي يتمتَّع الإنسان بحساسيته، وألّا يكون بارداً وباهتاً تجاه ما يسمع ويرى.

ثم انظر إلى كلمات الآية: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ﴾، ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

فهي توجِّه الإنسان كي يعقل آيات الله، وإذا جعل من نفسه أصمّاً وأبكماً، فيكون بذلك قد جعل من نفسه ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، لأن مشاعره لا تتحرَّك تجاه ما ينبغي لها أن تتحرَّك، ولا يتحرَّك به الإحساس تجاه ما ينبغي له أن يتحرَّك. فكثيرٌ عليهم أن يوصَفوا بالدواب، بل هم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾.

فمن ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ ما تكون مسالِمة نافعة، ومنها ما تكون شريرة، ومنها ما تكون الأ ﴿شَرَّ﴾، وهي أكثر أنواع ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ شرّاً وأذىً، فترى الشرَّ حتى في هيئاتها، وفي نظراتها، كما أنك ترى السِلم في هيئات ونظرات ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ المُسالمة، ولذلك فإن الشرّيرة على الأغلب تكون برّية مفترسة، والمُسالِمة تكون أهلية أليفة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٤٥].

فقد تم وصفهم بالدواب، ذمّاً لهم، وليس إنقاصاً من شأن الدواب، فتبيّن الآية بأن على الإنسان أن يُحافظ على مزاياه الإنسانية التي متّعه الله، وميّزه بها عن الدواب.

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾، في حكم الله، الذي يجعل من نفسه أصمّاً عن سماع الحق وهو يدّعي بأنه سمعه، واستناداً إلى ذلك، يجعل من نفسه أبكماً عن النطق بالحق، رغم أنه ليس أبكماً.

فالآية تحذيرية تحذِّر الإنسان من مغبّة اللاتعقّل، وعلينا أن نُدرك بأن هذا الكلام ليس موجَّهاً للكفار، بل للمؤمنين حتى ترفع من قَدْرهم، وتنمّي فيهم المشاعر والأحاسيس.

لنتمعَّن في الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لقد أكرم الله تعالى الإنسان بنعمة العقل، بحيث يستطيع الإنسان أن يخطو خطوات متقدمة في درجات السلوك والعمل والإنتاج الإنساني حتى يُعرف برجاحة عقله، والعقل يستنير بالدين، حيث يرتقي الإنسان على قدر ما يتمتع به من دين وعقل.

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبلْ، فأقبلَ ثم قال له: أدبرْ، فأدبرَ. فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "الجنة مائة درجة، تسع وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس".

فالعقل نعمة كبرى من النِعَم التي أنعم بها الله تعالى عليك، بل من أفضل النِعَم، وجاءت جارحةُ الأذن قبل جارحة اللسان، لأن الذي ينطق جيداً، عليه قبل ذلك أن يسمع جيداً، فعندما تُحسن السَّمَع، فإنك تُحسن القول، وبالتالي تُحسن العمل في

علاقةٍ متكاملةٍ بين السمع، واللسان، والعقل، ولذلك انتهت الآية المكثَّفة بمعانيها، القصيرة بكلماتها، عند العقل.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمادام الله تعالى قد أسبغَ عليك بنعمة العقل، فعليك أن تعقل به، أن تنتفع به، ألّا تتصرَّف كما لو أنك دون عقل، لأنك مسؤولٌ عن تمتّعك بنعمة العقل. ولذلك ترى بعض أصحاب النفوس الضعيفة، يتعمَّدون التغابي، تتحدَّث معه في أمرٍ، فيردّ بأمرٍ آخرٍ غيره، كما لو أنه لم يسمعه، ويكون قد سمعه جيداً. أو لا تتحرَّك مشاعره أمام بعض المجريات، وهذا منهجٌ يتَّبعه البعض، ويعتقد بأن ذلك ذكاء منه، أو فطنة.

أو تراه يتعمَّد التحدّث بعباراتٍ، والتصرّف بتصرّفاتٍ تعطي انطباعاً بأنه إنسانٌ لا يعي ما يتصرَّف، ولا يعقل ما يقول. فلا غرابة إذا رأيتَ بأن هؤلاء يُصابون في النهاية بعقولهم، وكأن العقل يُعاقِب صاحبه الذي ما عرف قيمته، وما استخدمه الاستخدام الجيد، فيُصاب هذا الشخص بالزهايمر، أو الخَرَف، أو ببعض الأمراض النفسية، أو فقدان الذاكرة، أو الجنون.

فإذا متَّعك الله بسمعٍ جيدٍ، وتدَّعي بأنه ما متَّعك بسمعٍ جيدٍ، فتُصاب بسمعك حتى تدرك قيمته، وإن متَّعك بعافيةٍ، ولكنك تتمارض، فتُصاب بمرضٍ، تكون أنت قد ادَّعيته وجلبته على نفسك، وكذلك الأمر بالنسبة لنعمة الغِنى، إذا ادَّعيتَ الفقر، فينقلب غناك إلى الفقر الذي ادَّعيته وجلبته لنفسك، وما إلى ذلك.

عن مالك بن عوف قال: أتيتُ رسولَ الله وأنا قَشِفُ الهيئة، قال: "هلْ لك من مالٍ"؟ قلتُ: نعم، قال: "إذا آتاك الله مالاً، فليُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته"(١).

---

(١) صحيح ابن حِبَّان، ١٢/ ٢٣٤، رقم ٥٤١٦.

وجاء في حديث آخر: "إذا آتاك الله مالاً، فليُرَ عليك، فإنَّ الله يحبُّ أن يرى أثرَه على عبده حسناً، ولا يحبُّ البؤسَ ولا التباؤس"(١).

فالآية تدعوك أن تتفاعل مع النِّعَم التي أنعم بها الله تعالى عليك، وتستثمرها، وتنتفع بها، وتنفع بها الآخرين، وهذا بمثابة الشكر منك لله، فيديمها عليك، ويبارك لك فيها. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

عليك أن تعقل ما تسمع، تعقل ما تقول، تكون واضحاً في مواقفك، جادّاً في علاقاتك، صادقاً في أقوالك، دون أن تخفي نعمة الله عليك، أو تدّعي نقيضها. فإن علمتَ الحق، وأخفيته، وقد متّعك الله بلسانٍ بليغ حتى تنطق به، لا غرابة إذا انعكس الموقف عليك، فترى من يعلم الحق، لكنه يخفيه، ولا ينطق به حتى ينقذك.

(١) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير)، ٣/ ٤٢٦، والطبراني ٥/ ٢٧٣، رقم ٥٣٠٨.

الباب الثالث والعشرون
فُقدان الخير

[٢٣]

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ﴾، على سبيل الافتراض الذي يؤكّد عدم الاستجابة لأمرٍ إذا جاء، فـ ﴿وَلَوْ﴾ هنا تأكيدٌ على نفي الاستجابة. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾. والله يعلم بأن ليس فيهم ﴿خَيْرًا﴾ ولذلك لم يُسمعهم، وتركهم في الضلال.

ثم جاءت ﴿وَلَوْ﴾ مرة ثانية في مبتدأ الجملة الثانية، استئنافاً لـ ﴿وَلَوْ﴾ التي جاءت في مبتدأ الجملة الأولى من الآية.

﴿وَلَوْ﴾ افتراضاً، وتأكيداً لنفي الاستجابة مرة أخرى ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾.

ماذا يحصل؟ ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن السماع، عن الاستجابة إلى الحق، وليس هذا فحسب، بل ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ منكرون.

فليس هناك أشقى من الذي يُعرّض نفسه لهذا الوصف، فيجعل هذا الكلام عليه، كما ليس أحظى من ذاك الذي يبذل كل ما باستطاعته حتى يُعرّض نفسه لرضى الله، وكلما يرى ثناءً في القرآن على أهل الصلاح، يعمل صالحاً حتى يكون هذا الثناء له.

أرأيتَ إذا تخلّى أبَوَا طفلٍ عنه، ما الذي يمكن أن يحصل له؟ فإن الإنسان عندما يجعل نفسه عرضةً لتخلّي الله عنه، لهو أكثر مشقّةً فيما سيواجهه في حياته، إضافة إلى عذاب الآخرة، كونه كان يُعانِد الله في الدنيا، ويستهزئ بآياته، ويُكذِّب الأنبياء والرسل.

وهذا تنبيهٌ وتحذيرٌ وإرشادٌ حتى لا تقبل على نفسك أن يقول الله فيك: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ فيك ﴿خَيۡرٗا﴾ يا فلان لأسمعك الحق، لماذا؟

لأنك بلغتَ مرحلة من العصيان، وقد ترسَّخ العِنادُ في قلبك إلى درجة: ﴿وَلَوۡ﴾ أسمعك وهداك إلى الحق، لتولَّيتَ عنه، وأعرضتَ عنه. وحِفاظاً على مبدأ الحرّية الشخصيّة في المُعتَقَد، فإن الله يدعكَ لِمُعتَقَدك، ولا يُر غِمك على الهِداية، وهو قادرٌ أن يُرغِمها عليك سواء طوعاً، أو كرهاً.

لكن تلك الهداية تكون باردة وباهتة، ولا تتفاعل معها، لأنك تشعر بأن الله فَرَضَ عليكَ أمراً أنت غير مقتنعٍ به، وبالتالي فإن كل الشعائر التي ستؤدّيها على قاعدة إيمانٍ مُرغَمٍ عليك كهذا، ستكون باردة، وستتكاسَل وتتثاقَل في أدائها. ولذلك فإن الله - تعالى شأنه - حَفظ لكل شخصٍ حرّيته في المُعتَقَد، بل أَمَرَ المؤمن ألّا يُقاطع الكافر، ويلبث على تواصلٍ معه، فإن احتاجك الكافر، تُلبّي حاجته، وتُقدّم المساعدة التي تُسانده في مواجهة ضيقٍ وقع عليه، أو محنة أَلَمت به. لأن كفره بالله، واستهزائه بآياته، لا يُسقطان عنه رابط الأخوّة الإنسانية، والمشاعر الإنسانية في الإنسان تجاه الإنسان، بصرف النظر عمّا يكونون عليه من عقائِد. ولعلّ بعد حين، يهديه الله عَقِبَ ضلاله، ويُضلّك عَقِبَ هدايتك، وحينها أيضاً سيتوجّب عليه أن يُعامِلكَ كما عاملته. فهذه من المبادئ الأساسية لجوهر عالميّة القرآن، أي هو إنساني بامتياز، ويرسّخ العلاقات الإنسانية عامة مع بعضها البعض، لأن الناس جميعاً هم خلق الله.

الباب الرابع والعشرون
تقلّب القلوب

[٢٤]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

افتُتِحَت الآيةُ بياء النداء التي هي تنبيهية، فانتبهوا جيداً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، فإن الله يقول لكم بعد أن آمنتم، وحتى ترتقوا في درجات إيمانكم: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾. تفاعلوا مع آيات الله التي يحملها إليكم رسوله. أي تغيّروا بما تحتويه هذه الآيات، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الله من خلال رسوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

تعلّمك الآية هنا بأن الإيمان هو حياة القلوب، وبذات الوقت أن الكفر هو موت القلوب. ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾، تفاعلوا لأن تفاعلكم يجعل من قلوبكم مهيّأة كي تُبَث إليها إشراقة الحياة الحقيقية. فإذن ما يدعو إليه الله، يحيي قلوبكم من كافة النواحي، ويجعلكم تمتلؤون بالحياة، وبالتالي تستمتعون بها، لأنكم عند ذاك تكتشفون في الحياة ما لم يكتشفه غير المؤمنين، فهذه اكتشافات حياتية كبرى خاصة بالمؤمنين، تكريماً من الله لهم. واستناداً إلى هذه الآية الكريمة، ترى بأن الذين لا يؤمنون، مهما اتّسَعَت لديهم أسباب رَغَد العَيش والحياة السعيدة، مهما ملكوا من نفوذ وإمكانات، فإن قلوبهم تبقى ميتة، مطفأة. والذي ينظر إلى وجوههم بشكلٍ جيد، يلمس هذا الانطفاء، فأحدهم يعيش، ولكنه غير ممتلئ بالحيوية، بل ممتلئ باليأس. وهذا بيان جَلي بأن هؤلاء غير سعداء سعادة حقيقية في قلوبهم، مهما تظاهروا بمظاهر السعادة، والمتوسّم يستطيع أن يميّز الزيف حتى في ضحكاتهم مهما ارتفعت بها القهقهات. في حين إن المؤمن ينتشي انتشاءً حقيقياً

سواء أأظهر ذلك، أو أخفاه، لأن قلبه مفعم بالحياة كونه مستجيب ومتفاعل ﴿لِمَا﴾ يحييه من دعوة الله.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

﴿يَحُولُ﴾، من التحويل، وفي الآية فإن الله - جَلّت قُدرَته - هو الذي ﴿يَحُولُ﴾، أي يحوّل القلوب من أمرٍ إلى نقيضه. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يا مَن آمنتم: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾. وهذا بيانٌ هامٌ يُعلم فيه الله عز وجل المؤمنين بأنهم يمكن أن يخسروا إيمانهم ويرتدّوا إلى الكفر إن لم يـ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لماذا؟ ﴿لِمَا﴾ يحييهم، يحيي قلوبهم من موت الكفر، ويبث إليها حياة الإيمان.

عن عَائِشَة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك" قَالَتْ فَقُلْت يَا رَسُول الله إِنَّك تُكْثِر أَنْ تَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاء فَقَالَ "إِنَّ قَلْب الْآدَمِيّ بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابع الله فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ".

فالإيمان لوحده لا يكفي مهما ردّدتم كلمات الإيمان على ألسنتكم، ومهما كان هذا الإيمان حقيقياً. فالقلوب قابلة للتقلّب، وقابلة للتحوّلات الكبرى، ولذلك عليك أن تروي شجرة الإيمان بمياه الاستجابة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، حتى تثمر في تربة قلبك، وسنة بعد سنة تزداد ثماراً، وتزداد اخضراراً.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾. الحشر، هو التجمّع ﴿وَ﴾ - بعطف على ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ -: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾، إلى الله ﴿تُحۡشَرُونَ﴾. تجتمعون جميعاً من أولكم إلى آخركم، حتى يرى كل واحدٍ عمله، وبالتالي يحصد كل واحدٍ حصاده، ولذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾. يجعل لكم حياة طيبة في الدنيا، وحياة طيبة يوم ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾. فالآية خِطابٌ خاصٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بوحدانية الله، وبخاتمية رسوله حامل القرآن من الله إليهم. وفحوى

هذا الخِطاب الخاص يتألّف من ثلاث جمل، الجملة الأولى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، أمر. الجملة الثانية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، إعلام. الجملة الثالثة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، تحذير.

الباب الخامس والعشرون
اتّقاءُ الفتنة

[٢٥]

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾

الفتنة تفتن الناس فتجعلهم مفتونين، أي مُثارين، وعجينة الفتنة هي الإثارة، مِن هُنا فإن الفتنة مُنبّهة للمشاعر، وميقظة للأحاسيس، ومحرّكة للغرائز. فالمرأة عندما تتجمَّل وتتزيَّن، فإنها تفتن الرجل بجمالها وزينتها، ولذلك نهاها الله أن تفعل ذلك أمام الأجانب، وأذن به أمام زوجها، وأجاز لها أن تفتنه، فتتجمَّل له، وتتزيَّن له، وتفعل ما يمكن له أن ينشرح لها، وينجذب إليها، ويستلطفها، ويتغزّل بمفاتنها، ويستمتع بها.

فهو يحق له أن يستمتع بالنظر إلى جمالها، لأنه بالمقابل عليه أن يغض الطرف إذا رأى امرأة أجنبية، مثلما يغضّ الآخر الطرف عن زوجته عندما يراها في مكانٍ ما.

فالمرأة المؤمنة تحرص كل الحرص حتى لا تتسبَّب ولو بلحظة فتنة واحدة لنَظَر رجل غير زوجها، سواء بثوب، أو بنظرة، أو بحركة، أو بكلمة، لأنها تعتبر نفسها مسؤولة وشريكة في إثم الفتنة.

إذن، فالمرأة يمكن لها أن تثير غريزة الرجل عندما تُظهر له جمالها، فتفتنه، ويصبح مفتوناً بها، وكأنها بذلك تناديه وتستدرجه بطريقةٍ غير مباشرة. والله سبحانه وتعالى يرى، ويعلم، ولا شيء يخفى عليه حتى الخاطر الذي يخطر لها: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]. وليس بوسع الإنسان بأي حالٍ من الأحوال أن يخفي شيئاً عن الله، مثل أن تدّعي المرأة أن لا علاقة لها بذلك، وأنه شخصٌ منحرف وسيّء النية وقد تعرّض لها، أو أنها ترتدي هذه الثياب الملفتة لا لتثير انتباه الرجال، أو تبدي هذه

الحركات، أو تقول هذه الكلمات عن حسن نيّة، ولكن البعض يسيء فهمها. وفي ذلك بيان من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النور: ٣١].

فاتباع هذا البيان الإلهي يجعلها في مأمنٍ عن ذلك، وأيضاً تلقى ثواب هذا الاتباع، وتجاوزه، يجعلها عرضة لذلك، وأيضاً تلقى عقاب هذا التجاوز.

فهذا التجاوز هو الذي أدّى إلى هذه النتيجة التي قد تكون قاسية بالنسبة لبعض النساء في بعض المجتمعات، وقد تكون متفاوتة في مجتمعاتٍ أخرى، لكن في الآخرة، تكون أمام إثم الفتنة، وأمام انتهاك لحدود الله.

وكل هذا في صالح المرأة، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، ففي الدنيا، تُعرَف المرأة بعفّتها، وهذا يؤهّلها كي تكون في منزلةٍ اجتماعية وإنسانية طيّبة، كذلك تكون زوجة صالحة، وأمّاً مثالية في تربية أبنائها، ثم إنها تكون مِثالاً للقِيَم والمبادئ والعفاف، سواء أكانت عمّة، أم خالة، أم أختاً، أم ابنة. وكذلك في الآخرة، تكون في درجات عفيفات النساء عبر التاريخ البشري.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾.

وهذا كلامٌ مُستأنفٌ ومعطوفٌ على الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فانظر كيف اختُتِمَت الآيةُ بـ ﴿تُحْشَرُونَ﴾، تذكيراً بيوم القيامة، ثم اختُتِمَت هذه الآية بـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

فلا تجعلوا أنفسكم عرضة لعقابه الشديد يوم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. ف: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. كلمة ﴿خَآصَّةً﴾ هنا مرتبطة بكلمة ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾. فـ ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ جميعاً، تجنّبوا ﴿فِتْنَةً﴾. جاءت الكلمة مفتوحة على كل الآفاق دون تقييدها بأل التعريف، ذلك أن الفتنة لا تقتصر عاقبتها على القائمين بها، أو المروّجين لها، أو الذين يثيرون نعراتها في الناس، بل إذا وَقَعَت واستفحلت، فإنها تلحق الأذى بالناس جميعا، و﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. فلا أحد بوسعه أن يتحكّم بعواقبها ونتائجها، فقد يستبيح المسلم - إذا استفحلت ﴿فِتْنَةً﴾ ما في المجتمع - دم مسلمٍ وعرضه وماله، لمجرّد أنه ينتمي إلى طائفةٍ محدّدة، أو إلى قوميّة محدّدة. ويمكن بذلك أن ينقسم المسلمون إلى أحزابٍ وكتائب تُعارك بعضها بعضاً، فكتيبة هذا الصحابي، تُقاتل كتيبة ذاك الصحابي، وحزب الحق، يقاتل حزب الإسلام. وعندما يحين موعد الصلاة، يدعون السلاح، ويتجهون إلى قبلةٍ واحدةٍ، ويقرؤون قرآناً واحداً، ويصومون في شهرٍ واحد، يتسحّرون في موعدٍ واحد، ويفطرون في موعدٍ واحد، لكن نار هذه الفتنة، أو تلك، تلبث متّقدة في قلوبهم. لذلك أوجَبَت الآيةُ على الناس جميعاً التصدّي لأي شكلٍ من أشكال أي ﴿فِتْنَةً﴾، يمكن لها أن تتسرَّب إليهم، لأنها وإن كان الذين يثيرونها، هم أشخاصٌ، إلّا أن نتائجها السلبية تعمّ الناس جميعاً، لذلك فاعلموا أنها ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ بعواقبها ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، ﴿لَّا﴾ تقتصر عليهم بشكلٍ خاص، بل تمتد وتحرق كل ما تأتي إليه دون تمييز. عن النبي صلى الله عليه وسلم:"إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّب الْعَامَّة بِعَمَلِ الْخَاصَّة حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَر بَيْن ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ الله الْخَاصَّة وَالْعَامَّة".

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. وهنا تذكير بأن الله يُعاقِب كل الذين أشعلوا ﴿فِتْنَةً﴾، وكذلك الذين سَكَتوا عنها، أو رَوّجوا لها ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: ٤٨].

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

لذلك يتوجّب استنكار الفتنة وفق المُستطاع.

الباب السادس والعشرون

ذِكرُ النِّعمَة

[٢٦]

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾

دوماً عليك أن تعود بذاكرتك إلى مِحَنٍ ألمَّت بك، ونجّاك الله منها، إلى مَرَضٍ شفاك الله منه، إلى ألمٍ نفسي أو بدني، أزاله الله عنك، إلى حاجةٍ، فمنحها الله لك، إلى خوفٍ، فطمأنك الله، إلى أشخاصٍ أرادوا بك الأذى، فصرفهم الله تعالى عنك، إلى ضعفٍ كان بك، فقوّاك الله، إلى إمكاناتٍ محدودة كنتَ عليها، فوسّع الله تعالى عليك.

﴿وَ﴾ - يا أمّة الإسلام جميعاً، ابتداءً من مسلمي مكّة -: ﴿اذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾، لا تنسوا عندما كنتم قلّة، يستقوي عليكم الأقوياء، ويستضعفونكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ويأتي ذلك على مختلف المراحل الزمنية بما في ذلك العصر الحديث، عندما كانت غالبية الدول الإسلامية تحت الاحتلال بسبب استضعاف المحتلّين لهم، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾. تمتلئون رعباً من اختطاف المحتلّين لكم، فيمكن في أي لحظةٍ أن يُطرق الباب على شخصٍ منكم، ويتم اختطافه من بيته، أو يُختَطَف وهو في مكانٍ ما خارج البيت. فالإنسان يكون مسكوناً بهاجس الاختطاف، اختطافه، اختطاف أبنائه، اختطاف زوجته، وما شابه، فيكون الاختطاف حديث النفس بالنسبة للأفراد، وحديث الساعة بالنسبة لعموم المجتمع. ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾، صرف عنكم ذاك القلق، واستبدله بنعمة الأمن، وليس هذا فحسب، بل زاد

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، فجعلكم تنتصرون على محتلّيكم، وليس هذا فحسب، فبعد أن تحررتم، وأصبحتم مستقلّين، زاد الله ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، جعل بلادكم في خصوبةٍ، وعَمار. وقد حصل ذلك بالنسبة للمسلمين الأوائل عندما كانوا ضعفاء في مكّة، يلقون ألوان الاضطهاد، فجعلهم الله في المدينة، وقوّاهم ونصرهم في بدر، ثم عادوا أقوياء إلى مكّة وفتحوها. واعتباراً من ذلك استمرّ المسلمون في ثنائية الانتصار والانكسار، ثنائية الخوف والأمن. والآية دقيقة منذ كلمتها الأولى التي هي بالغة الدقّة كمدخل، والكلمة الأخيرة التي هي بالغة الدقّة كمختَتَم. وفي ذلك بيانٌ بأن الإنسان عندما يذكر الله جيداً، سواء أكان قد حصل معه شخصياً، أو مع أجداده، ثم يشكر الله على نعمة التحوّل الكبرى، فإن النعمة تدوم عليه، ويلبث قوياً، آمناً، منتصراً. لكنه إذا نسي، والنسيان يؤدّي به إلى عدم الشكر، نظير أن الذكرى أدّت إلى الشكر، فإنه عند ذاك يخسر كل ما لديه، ويؤوب إلى ما قد كان عليه، بل يعود المحتلون إلى ما كانوا عليه من احتلالهم له.

والبلاد الإسلامية بعد أن كانت حرّة، وليس هذا فحسب، بل بات المسلمون يحكمون دولاً أخرى بسبب قوّتهم، واستمرّوا في نماءٍ وخصوبةٍ، وسعةٍ، وبَسطةٍ، على قدر تمسّكهم بالعدل، وحفاظهم على القيم والمبادئ الإنسانية، وذكرهم لله، وشكرهم له. لكنهم عندما بَطَروا، وبَطَشوا، وتَمادوا، وطغوا، ونسوا ذكر الله، ونسوا شكرهم له، عاد كلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه، وأخذ منهم الله كل شيء ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]. فعادوا ضعفاء مثلما كانوا، وعاد إليهم المحتلون مثلما كانوا، وعادوا يتعرّضون للخطف مثلما كانوا. واستمرّ ذلك إلى ما نحو نصف قرنٍ مضى، حيث كانت غالبية الدول الإسلامية تحت الاحتلال، وأنعم الله تعالى على المسلمين مرة أخرى بأن حقّق للبلاد الإسلامية الاستقلال دولة بعد دولة، وعاد النماء، والعمار، وأصبح المسلمون يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وازدهرت البلاد الإسلامية، وكثرت الخيرات، واستتبَّ الأمن، وانتعش الناس. لكن مرة أخرى مالوا إلى البَطَر والبطش والطغيان والجور، وأصبحوا يتظالمون

فيما بينهم. وبذلك نسوا الله، وما عادوا يشكرونه، فبدأت تحلّ عليهم الأزمات سنة بعد سنة، وبشكلٍ متدرّج لعلّهم يؤوبون، ولكنهم كانوا يزدادون تمادياً وبطشاً حتى بدأت البلاد الإسلامية تقاتل بعضها بعضاً، ويستنزف بعضها قوّة بعض، وبات المسلمون يختطفون بعضهم بعضاً من بيوتهم، ومن أماكن أخرى، يغتالون بعضهم البعض، يختطفون حتى أطفال ونساء بعضهم البعض، يقصفون أحياءً سكنية بأكملها، وقد تجاوزوا بذلك ما كان الاحتلال يلحقهم به من أذى، حتى باتوا يحنّون إلى الاحتلال، ويتمنّون عودته حتى يفكّ بعضهم عن بعض، ثم إن بطشه كان أقل أذى، وانتهاكاته الإنسانية كانت أفضل. وهنا تغيَّرَت مُعادَلَةُ الاحتلال، فبدل أن يأتوا ويحتلّوا بالقوّة، أصبح المسلمون يستجدونهم للمجيء إلى ديارهم ليستقووا بهم على بعضهم البعض، أو ليرموا لهم بعض عبوّات الماء، أو بعض المعلّبات الغذائية، لأن المسلمين أصبحوا يُحاصرون بعضهم البعض في مدنهم وضواحيهم، حتى تحوّل البعض إلى هياكل عظمية، جوعاً وعطشاً، وانطلق البعض إلى البراري يأكل من خشاش الأرض.

تبيّن الآية الكريمة بأن مفتاح الخروج من أي أزمةٍ، هو ذكر الله، والاستقواء بالله، وشكره، وما دون ذلك لا يكون من شأنه سوى أن يُفاقم الأزمة، ويمدّ في بقائها، ويوسّع من وقع أذاها. وإن كان ذلك على مستوى الدول، فهو كذلك على مستوى الأفراد في هذه الدول، فعلى الإنسان أن يتجنَّب التمادي إذا فَتَحَ الله عليه أبواب وأسباب النعمة والصحة والرخاء والأمن، بل عليه أن يزداد تواضعاً، ويزداد ذكراً لله، يزداد شكراً لِما أنعم به الله تعالى عليه. لأن النقيض يقع حتى على أفرادٍ بشكلٍ خاص حتى لو كانت الدولة كلها في أمنٍ وأمان ورخاء، فيكون العِقابُ فَرديّاً على الذي يبطر ويتمادى، فيعيش بقلقٍ وخوفٍ من مداهمةٍ ما، بسبب حادثٍ وقع معه، ويمكن أن يفتك به فيروس ما، فيجعل حياته اضطراباً في اضطراب، بل يلاحقه البعض من مكانٍ إلى آخر، ويقدّمون بحقّه الادّعاء تلو الادّعاء في المحاكم. وتتسلّط عليه الوساوس، وتحرمه من نعمة صفاء الذهن، فيكون دائم الاحتقان والاضطراب، فلا يكاد ينتهي من أزمة، حتى تواجهه غيرُها.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ﴾ جيداً ولا تنسوا: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ عدداً ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ قوة ونفوذاً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي كنتم فيها ﴿تَخَافُونَ﴾ تعيشون في رعبٍ ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ تتعرّضوا لخطف الخاطفين، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ أمَّنَ لكم المأوى الآمن، والحماية من الخاطفين، ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قوّاكم ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ على الذين اضطهدوكم، ﴿وَرَزَقَكُم﴾ أغدق عليكم ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي تطيب بها حياتكم، وتكونوا بها في رخاء ورَغَد المعيشة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ حتى تشكروا الله، وتقدّروا نِعَمه التي أسبغها عليكم، وتكونوا صالحين، طيبين، نافعين، عادلين، صادقين. وترفلون في نعيم الطيّبات، مادمتم قائمين على ذكركم وشكركم. وتنقطع عنكم، وتنقلبون على أعقابكم إذا بطرتم وطغيتم وتماديتم.

وهنا يُستَخلَص بأن ذكر الله وشكره، حصانة للإنسان من أشكال البَطَر والطُّغيان والتَّمادي، وبالتالي من زوال نِعَم الله تعالى عليه.

وذِكرُ الله وشكرُه، ليس بكلمات تجري على اللسان فقط، بل بتحويل الذكر والشكر إلى سلوك، فتتفاعل مع ما تقول، وتُحيل القول إلى فعل. فتشكر الله من خلال حُسن استخدامك للنِّعَم التي وَضَعها تحت تصرّفك، وملّكك عليها، فتنفع الناس، تُجبر الخواطر، تكرم الضيف، تصل الرحم، تعين على النوائب، تصفح، تكون ميسّراً في بيعك وشرائك، تعيش حميمية انتمائك إلى العائلة البشرية. وعلى هذا النحو، فإنك تلبث ذاكراً نِعَم الله عليك، وتلبث في شكره، فيجعلك الله في زيادة، مادمتَ تجعل نفسك وعيالك في زيادة، وتجعل المحاويج إليك في زيادة. وبذلك تثبت لله تعالى بأنك أهل للنعمة.

الباب السابع والعشرون

براثن الخيانة

[٢٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾

يستمر القرآن في تحسين حياة المؤمنين لهم، وجعلهم صفوة، وكما أن الله سبحانه وتعالى يرقّي أنبياءه ورسله، ويجعلهم صفوة، فإنه تعاظَمَ شأنُه، يرقّي مؤمنيه، ويجعلهم صفوة. بحيث لا يكون هناك مَن هو أكثر وفاءً، أكثر إخلاصاً، أكثر أخلاقاً، أكثر قِيَماً مِن المؤمن، فيكون المؤمنُ في المرتبةِ الإنسانيةِ والأخلاقيةِ الأولى بعمله المبني على إيمانه.

في هذه الآية، يُحذّر الله المؤمنين من الخيانة، ويدعوهم إلى الوفاء والإخلاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، فإن إيمانكم يوجّب عليكم بأن ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي آمنتم بوحدانيته، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ الذي آمنتم برسوليته. وعدم الخيانة، يكمن في منتهى الإخلاص، فتخلص كل الإخلاص لعقيدتك، ولا تكون متذبذباً، تقول شيئاً في مكان، وتقول نقيضه في مكانٍ آخر. فعليك أن تكون مستقيماً، وصريحاً، وواضحاً، لا تجنح إلى الغموض، أو إلى الألغاز، أو إلى الازدواج فيما يخصّ عقيدتك. فهذا هو النصف الأول من الآية الذي يخص الوفاء الكامل للعقيدة. أما النصف الثاني، فهو يخص تحسين التعاملات الشخصيّة، والسلوكيات اليومية للمؤمن: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾. فإن أمنك شخصٌ على سر، أو على شيء مادّي، فعليك أن تحفظ الأمانة، فلا تفشي سره، ولا تنكر حاجته التي أودعها لديك، وسواء في الأولى، أو الثانية: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾. وهذه الخاتمة دقيقة في الآية، وفيها فسحة في حال وقوع شيءٍ من هذا عن جهل، أو دون قصد، فيكون ذلك استثناءً عن القاعدة العامّة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: ٥]. ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

وجاء عَن رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ "(١). وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَال: "إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"(٢).

فلعلّ الإنسان يقول شيئاً دون قصد، وهذا أيضاً يجعل فسحة فيما بين الناس، حتى لا يتسرّعوا في إصدار الأحكام على بعضهم البعض، فيتحقّقوا هل وقع ذلك عن عمد وسبق إصرار وترصّد، أم أنه وقع نتيجة خطأ ما.

ويحدث هذا أحياناً بالنسبة للمرأة التي غالباً ما تكون ضحية حسن نيّتها، وهي بطبيعتها، وبما ينسجم مع طاقات الأمومة لديها، حنونة وعطوفة أكثر من الرجل، فلعلّها تقوم ببادرة خيرٍ تجاه شخصٍ ما، أو تبدي بعض الترحيب والتكريم تجاه بعض الأقرباء، أو الجوار، أو ما شابه، فيستغل شخصٌ ما بادرتها بسوء نيّة وهو يتوهّم بعض الأوهام، فيلبث يلاحق تلك المرأة حتى يفسد عليها حياتها. وهنا بيانٌ بالتريّث، ومعرفة الحقيقة، بعيداً عن ردود الأفعال التي قد تكون جائرة بحق هذه المرأة البريئة. وقد يقف شخصٌ ما موقفاً بحسن نيّة أو عن جهل، فيقول كلاماً ابتغاء صلح، لكن يُستَنتَج من ذاك الكلام إفشاء سرّ، ومن ذلك أيضاً زلّة اللسان، فشخصٌ

---

(١) صحيح البخاري - الدعوات (٥٩٥٠)، صحيح مسلم - التوبة (٢٧٤٧).

(٢) رواه ابن ماجه.

نتيجة موقفٍ ما، أو حدثٍ ما دبر منه قولٌ لا يليق بك، وفجأة يعتذر ويُصحّح قوله، فعليك أن تقبل الاعتذار بحسن نيّة. فجاءت خاتمة الآية شاملة النصفَين، أي سواء أحصل ذلك بالنسبة للعقيدة، أو بالنسبة لتعاملاتكم فيما بينكم، وذلك رحمة من الله بالإنسان إذا بَدَرَ شيءٌ منه سَهواً، أو عن جهل، أو عن حسن نيّة. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، بمعنى ﴿وَأَنتُمْ﴾ لا ﴿تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما بدر منكم. أمّا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ العاقبة، وتُدركون جيداً ما تقولون، أو تفعلون، فذلك يجعلكم خائنين مرّتَين، مرّة خيانة العقيدة، ومرّة خيانة الناس، وقد عصيتم الله الذي خاطبكم بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإن أردتم أن تفعّلوا إيمانكم وتُصبحوا مؤمنين حقّاً، يترتّب عليكم أن ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: (مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَّا قَالَ: "لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ"[(١)]. عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"[(٢)]. والأمانة ثقيلة، وكلمة الأمانة قريبة من الإيمان، والمؤمن هو مؤمنٌ لأنه يؤتَمَن. عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَميناً وشِمالاً"[(٣)]. المؤمن لا يجنح المؤمن إلى الخيانة والتزوير، وهنا ما يمكنك أن تستخلصه من هذه الآية الكريمة وتنتفع به، هو أن الوفاء من علامات كمال الإيمان، والخيانة من علامات نقص الإيمان وتأرجحه.

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) صحيح مسلم (٥٥٧٦).

الباب الثامن والعشرون

فتنة الأموال والأولاد

[٢٨]

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾

كما أن الأموال والأولاد نعمة، فيمكن أن يكونا نقمة، وكما أن الأول ينعم بأمواله وأولاده، فإن الثاني يشقى بأمواله وأولاده. والفرق بين الشخصَين، أن الأول عَقَدَ آماله على الأموال والأولاد، فرأى فيهما قوّته وتمكّنه، وأن الثاني عَلِمَ أن ذلك لا يغنيه عن الله شيئاً، فيلبث في عقد آماله على الله. وهنا فإن الأموال والأولاد قد فَتَنا الأول، وأصبحا بالنسبة إليه ﴿فِتۡنَةٞ﴾ افتُتِنَ بها. فجاء الخِطابُ بصيغة الجمع: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾. احذروا أن ما أنعمنا عليكم من نعمة الأموال والأولاد، يمكن أن تنقلب عليكم إذا أسأتم التصرّف بها، والعِلمُ هو إخبارٌ، أن تُعلِّمَ أحداً بشيءٍ ما، يعني أنك تُخبره، لكن جاء الإعلام بالخَبَر هنا، لأن الأمر يعنيك وهو شديد الأهميّة بالنسبة إليك، فيُخبرك الله تعالى بهذه الحقيقة لتعلمها، وبالتالي تتعلّم منها. أمّا لو جاءت الكلمة بـ (اخبروا)، فليس كل خبرٍ هو هام بالنسبة إليك، فقد يكون خبراً عادياً، وهو عبارة عن معرفة شيء ما كنتَ تعرفه، لكنه لا يأخذ منزلة العِلم. في مبتدأ الآية يُعلِّمكَ الله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾. اخبَروا، وليكن لديكم خَبَر اليقين، ما هو الخَبَر؟ هو: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾. فلا تعقدوا عليهما كل آمالكم. وجاءت كلمة ﴿فِتۡنَةٞ﴾ بليغة ومعبّرة عن قوّة المعنى وأهميّته بالنسبة لحياة الإنسان، لأن الفتنة متحرّكة، مثل فتنة المرأة، فتنة النَّعَرات الطائفيّة، فتنة الشيطان، وما إلى ذلك. فيمكن أن تأخذ الإنسان كل الأخذ وتُهَيمن عليه، فيمضي مفتوناً وهو ينقاد بأمرها، يمضي مفتوناً بامرأة فَتَنَته وهيمَنَت عليه بفتنتها، أو يمضي

بفتنة نعرة طائفيّة فَتَنَته وهَيمَنَت عليه. والمفتون في جميع الحالات، وما يمكن أن يتفرّع عنها، يكون مُندَفعاً تحت سطوة ردّ الفِعل، كون الفتنة تُدَغدغ أكثر الأوتار حساسيّة لدى الإنسان، فتستفزّ حساسيّته بذلك، وتُحرّك لديه خلايا نزعات نائمة لتتفاعل مع وقع الفتنة وتتجاوب معها، فيُصبح آنذاك في حالة ردّة الفعل، تجاه فعل الفتنة. وحاله في ذلك كحال المَسحور الذي يكون في حال ردّ فعلٍ تجاه تفاعلات السحر الذي سُحِر به، وكحال الثمل الذي يكون في حال ردّ فعل تجاه تفاعلات الخمر الذي خُمّرَ به. فجاء الشطر الثاني من الآية المؤلّفة من شطرَين ليُبيِّن بأن ذلك كله يمكن أن يزول في غمضة عين، فلا تنجرّوا خلف الأهواء والمُغرَيات، ولا تُجَرجِركم الفِتَن إلى مُستَنقعات براثنها. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، التي هي مبتدأ الشطر الأول من الآية، وكذلك هي مبتدأ الشطر الثاني منها، ولكنها لم تُكتَب: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. أي ﴿وَ﴾ بعطفٍ على: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾: ﴿أَنَّ الله عِندَهُ﴾، لديه وتحت إمرته بشكلٍ ثابتٍ غير قابلٍ للزوال:

﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. يؤجر به الذي يتّقي فتنة الأموال والأولاد، وسائر تفرّعات الفتنة. وكما أن الشطر الأول فيه إخبارٌ وإعلام وتنبيه، فإن الشطر الثاني فيه بشارة كبرى من الله جلّ شأنه بـ ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. أجر ماذا؟ أجر اتّقاء الفتنة، أجر الصبر على الفتنة، أجر عدم الانقياد بأمرة الفتنة. فذلك من مقومات شخصيّة الإنسان المؤمن الحق، وبذلك يُرَقّيه الله تعالى في درجات الكرامة، سواء في الدنيا، أو في الآخرة. فهؤلاء هم أصفياء الله في كل زمان ومكان.

جاء في الحديث القدسي: "يَا ابْن آدَم اُطْلُبْنِي تَجِدْنِي فَإِنْ وَجَدْتنِي وَجَدْت كُلّ شَيْء وَإِنْ فُتُّك فَاتَك كُلّ شَيْء وَأَنَا أَحَبّ إِلَيْك مِنْ كُلّ شَيْء".

الباب التاسع والعشرون
ثواب التقوى

[٢٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

وهذه أيضاً بشارة كبرى من بشارات الله للإنسان، وهذه الآية تُطمئن القلب، وتشرح الصدر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، اعلموا بأنكم ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، تتجنّبوا انتهاك حدوده، عندئذٍ يُكافئكم الله، ويُكرمكم بأن ﴿يَجۡعَل﴾ من عنده ﴿لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ تفرّقون به بين الحق والباطل بتوفيقٍ من الله. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].

فالتقوى تُحصّنك، فـ ﴿يَجۡعَل﴾ الله لك بها ﴿فُرۡقَانٗا﴾. ﴿وَ﴾ ليس هذا فحسب، بل ﴿يُكَفِّرۡ﴾ عنك سيّئاتك التي اقترفتها و﴿يَغۡفِرۡ﴾، فيمحوها عنك كما لو أنك لم تقترفها، لأنك أصبحتَ في مقام التقوى، فيقطع الله بينك وبين ماضيك السيّئ. أمّا حَسَنات الماضي، فيُبقيها لك من ذاك الماضي الذي فَصَلَكَ عنه بسيّئاته فقط. ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥]. فلا ذنب يمكن أن يكون حاجباً بين الإنسان وبين التوبة، بل لعلّ ذنباً ارتكبه الإنسان، يجعله ينتبه إلى عظمة الله الذي ستره، ولم يفضحه في الدنيا، فيتوب ويسأل الله المغفرة في الآخرة، كما أنه ستره في الدنيا.

وذكّرَت نهايةُ الآيةِ الإنسان بفضل الله عليه: ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ**﴾. على الإنسان، ومن فضله عليكم، أنه ﴿**يُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾، يسترها عنكم في الدنيا، ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾، يمحوها ويزيلها في الآخرة. وهذا يجنّب الإنسان اليأس الذي من شأنه أن يجعله قانطاً، ومستمراً في الذنوب، فيجدّد للإنسان حياته ويبدأ صفحة جديدة من خلال التوبة.

عن أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عليه وسلّم عَادَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عليه وسلم: "هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ"؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "سُبْحَانَ اللهِ لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلا قُلْتَ: **اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**"؟ قَالَ فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ)[1].

(١) رواه مسلم.

الباب الثلاثون
مَكرُ الشر ومَكرُ الخير

[٣٠]

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾

المَكر، هو المَكيدة، وما يتم التخطيط له مُسبَقاً للإيقاع بشخصٍ ما عن غفلة، فيُصدَم ذاك الشخص، ويتفاجأ، هو يتلقّى ما مُكِر وأُعِدّ له من شخصٍ مَكَرَ به. والآية، تحذيريّة حتى يأخذ الإنسانُ حذره خاصّة من أولئك الذين يكنّون له عداءً، سواء أكان هذا العداء لشخصه، أو لمعتقده. والخِطابُ في الآيةِ هو من الله جلّ شأنُه، إلى رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. يحيكون لك المكيدة سراً حتى يباغتوك بها: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ ﴾، يعتقلونك ويجعلونك ثابتاً، سجيناً في مكانٍ مغلق حتى تتوقّف عن نشر الرسالة، وبذلك يوقفون نشاطك.

﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ ﴾، يداهمونك في مكانٍ ما ويغتالونك.

﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ ﴾، يخطفونك من مكانٍ ما، وينفونك من موطنك. ويبدو أن الآراء تعدّدَت في هذه المَكيدة التي حاكها ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الاختلاف يشير إلى عوامل القرابة وتداخل المصالح، فهو قرشيٌّ أصيلٌ في مكّة، وله أقرباء سواء من جهة الأب، أو من جهة الأم، أو حتى من جهة زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، لِما لها، ولقومها من منزلة اجتماعية واقتصادية. وبذلك تكون هناك عوامل النسابة مع شخصيّاتٍ نافذة، فكل هذه العوامل بدأت تؤخَذ بعين الاعتبار بين مَن يقترح نفيه. وهذا أمرٌ قد وقع سابقاً عندما كان في مكّة، وفي بدء نشر الرسالة، ونحن الآن مع سورةٍ بدريّةٍ بامتياز،

أي: مَدَنيّةٍ بامتياز. فجاء مبتدأ الولوج إلى رحابة الآية الكريمة بـ: ﴿وَإِذْ﴾، وقد جاءت إخباريّة، فيُخبره الله تعالى، وبعد كل هذه السنوات، في الوقت المناسب والمكان المناسب، بما قَد حَصَل، ولأوّل مرة، بمعنى: أُخبرك يا مُحَمَّد بِما كان يُحاك ضدّك، ﴿وَإِذْ﴾ ذاك كان ﴿يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقد انقسموا إلى ثلاثة فِرقٍ، وثلاثة ألوانٍ من إيقاع الأذى بك: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، وكل لونٍ أكثر قسوة من الآخر. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾، تَكَرَّرَت الكلمة، في ذلك بيانٌ بأنهم كانوا يستمرّون في المَكيدة، ويصرّون عليها، ويتفاوضون فيما بينهم ليجمعوا على رأيٍ من الآراء الثلاثة. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾، يصرّون ويزدادون إصراراً على المكر، والله يراهم ويسمعهم. وهنا تأتي عنايةُ الله بذاتِ الكَلِمة: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾. وهي عبارة بالغة القوّة، وبالغة الحذر الشديد، وإلى جانب ذلك، بالغة الطمأنينة، فتجعل المؤمن يزداد إيماناً، ويزداد إيماناً بالله، ويزداد معرفة به، ويزداد شعوراً بقرب الله منه. وعندها يبلغ درجاتٍ متقدّمةٍ من اليقين بأن قوّة الله اللامحدودة تؤازره.

ولكن ما المغزى من هذا الكلام الإخباري الذي يُخبر به الله تعالى رسوله، ويُخبر عموم الناس في كل زمانٍ ومكان، وبالتالي ما الذي يمكننا نحن الذين نقرأ الآية الآن، أن نعتبر به، وهذا هو المهم، وهذا من أقوى الدوافع التي تجعلنا نقرأ القرآن. قلنا بأن هذا الكلام هو تذكيري، وإخباري، والسورة تبيّن بأن النصر الإعجازي الذي حققه المسلمون، لم يكن منهم، وإنما من الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

إذن، فقد مَكَرَ الله بهم، وكَمُنَ المَكرُ في استدراجهم لِما أعدّ لهم، فأولاً أنه جلّ وعلا، قد أخرج رسوله من أوساط الماكرين بسلامٍ وأمان. ثم إن مشيئته قَضَت أن يخرج المسلمون مع رسولهم لاعتراض القافلة، ثم إنه لم يمكّنهم من الاستيلاء على هذه القافلة. فكانت النتيجة أن هؤلاء أعدّوا جيشاً كبيراً، أي: حَشَدوا كل ما يستطيعون من قوّة حتى يأتوا إلى قتال المسلمين، وكل الوقائع والمؤشّرات تبيّن بأن مجموعة قليلة من الذين تركوا ديارهم في مكّة منذ نحو سنتين، مع بعض الذين ناصروهم، لا يستطيعون مواجهة جيشٍ قويٍ وكبير تم إعداده بشكلٍ جيدٍ لخوض المعارك. وهنا كَمنَ مكر الله من خلال استدراجهم ليجرّبوا قوّتهم الكبيرة مع قوّة الله في معركة بدر الكبرى. وقد جاءت خاتمة مذهلة لتبرّر هذا الاستدراج الذي هو ردٌّ على المَكر، فهؤلاء ما كانوا يمكرون بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، بل يمكرون كي يوقعوا الضربة بآيات الله ومنعها من الانتشار. فإذا جرى المكر بمقترحٍ من المقترحات الثلاثة، وحتى لو استمرّ مَحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم في تلقّي الوحي وفق تنفيذ إحدى المقترحات، فإنه سيلبث لديه دون أن يتمكّن من إبلاغه. ولذلك كان كل مقترح أكثر خطورة من المقترح الآخر، ففي: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، يتوقّف نشر الرسالة مهما تلقّى من الوحي، لأنه مُعتَقَل وسجين. وفي: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾، مَن سيتلقّى تتمّة الوحي، وهو آخر الأنبياء والرسل.

وفي: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾، رغم أن هذا الخَيار جاء في المرتبة الثالثة من المكر، أي نسبة الإجماع عليه أدنى، إلّا أنه ليس سهلاً، وكلمة ﴿يُخْرِجُوكَ ۚ﴾، مفتوحة على كل الآفاق، فلعلهم أرادوا أن ﴿يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ إلى بقعةٍ بعيدة جداً، تبعد آلاف الأميال بين أناسٍ لا يجيدون التحدّث بالعربية، أو ﴿يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ إلى صحراء تلقى فيها مصيرك. وهذه كلها احتمالات يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم قد أخذها بعين الاعتبار، وهو يتلقّى الآية من جبريل عليه السلام. إن الله يُخبرك يا محمّد: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فإذن، كان مكرهم مع الله سبحانه وتعالى، من خلال تصدّيهم لنشر رسالة دين الإسلام المكملة والخاتمة إلى العالمين، فجاء مكرُ الله تعالى شأنه، لهم ليكونوا في المواجهة المُباشرة مع الله، وليجرّبوا كل ما لديهم من قوّةٍ مع جزءٍ يسيرٍ من قوّة الله في ساحة المعركة التي شاءها الله وفق الأسباب التي أدّت إليها بالنسبة للطَّرَفين، لأن المسلمين أنفسهم لعلّهم ما كانوا ليأتوا إلى معركةٍ كهذه لا شيء على أرض الواقع يؤهّلهم للنصر فيها، بل هي مُجازَفة، وهذا ما رآه البعض من المسلمين الذين قالوا بعدم المواجهة. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾. لأنّه ليس البدء بالمَكر، بل هو ردٌّ على المكر من خلال الاستدراج في سبيل إحقاق الحق، ولذلك فهو مكرٌ قد نَجَم عنه الخير، ولذلك: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾. وقد تبيّن لنا بأن مكر الله كان فيه الخير، وبعد كل هذه السنوات الطويلة، رأينا الخير الذي عَمَّ العالم نتيجة نشر الإسلام، ونشر القِيَم والمبادئ والأخلاق الإسلامية، وما يتحقّق للإنسان سنة بعد سنة، اعتباراً من اليوم الأول الذي أُنزِلَت فيه أولُ آيةٍ، لم يتحقّق له في القرون الماضية، وما بَلَغَه الإنسان من رفاهٍ وعَمارٍ وانتعاشٍ وازدهار، لم يبلغه في القرون الماضية. ولذلك فإن مكر الكفّار كان مكر سوءٍ لأنه لم يكن لصالح البشريّة، بل لتبقى البشريّةُ في مستنقعات الظلم والجهالة والأوثان والوأد والعبوديّة، وما إلى ذلك من أشكال الاضطهاد التي كان الناس يتعرّضون لها على أيدي بعضهم البعض. فرأينا أن مكرَ السوءِ جاء أولاً، فجاء مكرُ الخيرِ ليحدّ من امتداد أذاه على الممكور بهم، ومكرُ السوء هو الذي تسبَّبَ لنفسه بوجود مكر الخير، ولولا مكرُ السوء، ما كان مكرُ الخير، لأن هذا اللون من العِقاب يقتصر على الماكرين مكر السوء فحسب.

فإذن: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ مكر سوءٍ، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ مكر خير، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾. حيث يستدرج الظلّام الماكرين ليكونوا ضحايا مكرهم، فلا أحد بوسعه أن يقف حائلاً بين الله وبين ما يريد من خير لعباده، وإن لبثوا وقتاً، وتمكّنوا من النفوذ، فإن ذلك الوقت يكون قصيراً، ويرى الله لهم مخرجاً باستدراجهم حتى يجعلهم عبرة، ويستمرّ خير الله على عباده.

الباب الواحد والثلاثون

التَّعنّت

[٣١]

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

فقد أبلَغَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات التي أُنزِلَت عليه من عند الله عز وجل، لكنهم يقفون على موقفٍ مُسبقٍ يأبون التزحزح عنه، ولذلك يتذرّعون بأي ذريعةٍ حتى يلبثوا في موقفهم ولا يتزحزحوا عنه. ولذلك عندما ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، كل ما يعنيهم منها هو أن يرفضوها، ويزدادوا ثباتاً في موقفهم المسبق، حتى أنهم: ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ دون أن يجعلهم استكبارهم المسبق ليعترفوا بأنها آيات الله. فـ ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾، ولكننا لا نشاء أن نقول مثله، لأن ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي تقولن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، مجرّد كلمات قالها الأوّلون، وأنتم تردّدونها. على هذا النحو لا يقبلون التزحزح قيد أنملةٍ عن استكبارهم على آيات الله.

تعرّفك الآية على هذه الفئة من المستكبرين على آيات الله، حتى أن هذا الاستكبار يؤدّي بهم إلى التعنّت الذي يجعلهم يأبون الخروج من ظلمات الكفر، إلى إشراقة الإيمان، من صقيع الشرك، إلى دفء التوحيد. القائل لعلّه شخصٌ واحد، ولكن بسكوت الجماعة الموالية له، وموافقتها على ما يقول، يكون لسان حال هذه الجماعة التي تكون قد فوّضته ليكون معبّراً عن موقفها. ولذلك جاء الجمع: ﴿قَالُوا۟﴾. وهنا ليس بالضرورة أن يكون الجميع موجوداً في ذات اللحظة، ولكنه أعلن موالاته لِما يقول. من هنا فإن زعماء الجماعات، يُعبّرون عن الموالين لهم فرداً فرداً، سواء بحضورهم، أو بغيابهم، فإذا انتمى شخصٌ إلى تنظيم، فيكون

موالياً ومؤازراً له، وموافقاً على ما يصدر عن زعيم هذا التنظيم، كون عضويّته إلى التنظيم هي في الوقت عينه تجعل من لسان الناطق باسم التنظيم، ناطقاً عن ألسنة كل أعضائه. ولذلك عندما يصدر من تنظيمٍ ما توجّه مُنحَرف، فيتحمّل جميع الأعضاء مسؤوليّة ذلك، باستثناء مَن أعلن انسحابه من ذاك التنظيم فور سماع نبأ الانحراف، وبراءته منه. فلا بدّ من الحذر الشديد من الانتماء إلى تنظيماتٍ وأحزابٍ، لأن العضو يفوّض لسانه إلى لسان الناطق باسم هذا التنظيم، أو ذاك، فيقول عنه ما يشاء، ويتصرّف عنه ما يشاء. وإن كان تحمّل المسؤولية في الدنيا، فكذلك في الآخرة، لأن ما يخرج عن أي جهة تنظيمية، إنما هو لسان حال أعداد المنتمين إليها بمقتضى موافقتهم على ذلك سواء بالتوقيع، أو حتى الموافقة الشفوية باللسان. فـ ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾. قاله شخصٌ، ولكن وافقوا جميعاً عليه، ولذلك ﴿قَالُواْ﴾، أجمعوا على القول بلسان القائل.

الباب الثاني والثلاثون

التمادي في العصيان

[٣٢]

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

للمرة الثالثة تحل ﴿ وَإِذْ ﴾ في مُفتَتَحِ ثلاث آياتٍ مُتتاليات، ومِمَّا يُمكنك أن تتعلّمه من هذه الآية الفاصلة، أنها تُعرّفك على بنية الإنسان الكافر، وتفكّك لك شخصيّته لتُعرّفك على الخفايا التي يضمرها. وهذا يضعك أمام المُسَبّبات التي تؤدّي إلى الكفر، وهذا أمرٌ في غاية الأهمّية، لأن الآية وهي تُقدّم لك المُسَبِّبات، فهي في العين ذاته تُحذّرك منها، وتقدّم لك نماذجاً وقَعَت في شرك هذه المُسَبِّبات، فأوصلَتها إلى ما وصَلَت. فَمَن هؤلاء، وإلى أي حدٍّ يُمكن لهذه المُسَبِّبات أن تبلغ بالإنسان المُتَّبع لها؟

في هذا المِحوَر، يكمن مضمون هذه الآية التي فيها القفلة، قفلة ﴿ وَإِذْ ﴾: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾. اعترافٌ ضمنيّ بإيمانهم بالله، وجاء القول على ألسنتهم، ويذكره الله مَنسوباً إليهم، وليس هذا فحسب، بل يبدون في الآية بأنهم أصبحوا على مشارف أن ما يبلغهم من القرآن - الذي هو في الحال، قيد النزول -: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾. وتبقى عبارة ﴿إِن كَانَ ﴾ متأرجحة بهم دون أن تجعلهم يثبتوا في الإيمان بهذا ﴿ٱلْحَقَّ ﴾ الذي جاءهم: ﴿مِنْ عِندِكَ ﴾، ﴿ٱللَّهُمَّ ﴾. ﴿وَ﴾ استناداً إلى ذلك ﴿قَالُواْ ﴾ عن يقينٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾. وهذا يُظهر بأنهم بلغوا يقيناً بأن ﴿هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾، ولكنهم يأبون المُصادَقة على هذا اليقين، لأن هذه المُصادَقة تجعلهم يتخلّون عن مُعتقداتهم السابقة، وبالتالي، يعتنقون الإسلام،

ويتّبعون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم. والذي يحول بينهم وبين ذلك، هو عامل الاستكبار الذي يجعلهم في حال عدم مصادَقة على الإيمان بهذا الحق من جهة، ومن جهة أخرى، عدم تصوّرهم أنهم يتنازَلون عن معتقداتهم، ويتّبعون مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم، بكونه رسول الله إليهم. لكن هذا ليس كل شيء، وهم يعلمون أن هذا ليس كل شيء، فيأتي الشطر الثاني من الآية، ليفصح مزيداً من التركيبة النفسيّة التي تتوه نفسيّاتُهم المُستَكبرة في متاهاتها: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهذا ينمّ عن ذكاء، فهم قد أفصحوا عَمّا يجول في خواطرهم، أولاً: أنّهم يؤمنون بالله، ويؤمنون بأنهم عِباده، وأنه ربّهم، وذلك من خلال قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾. وهذا معناه: يا الله الذي أنت ربنا، ونحن عبادك: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾. وهذا اعترافٌ بـ ﴿إِن﴾: ﴿هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾. لكن يشوبه تردّد، فَخَرَجَت الكلمات مُربكة، كما لو أنها ردّ فعلٍ على أمرٍ وقع، لكنهم يأبون الاعتراف بوقوعه.

وعبارة ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريدون أن يدفعوا بها اليأس عن أنفسهم، ويُظهروا أنهم على صواب في عدم تصديق هذا الواقع. فعلى قدر كلماتهم الذكيّة التي أورَدَتها الآيةُ كاملةً، فهي مُلتبِسة، تُشير إلى حجم ما بقائليها من التباس، وبذلك يمكننا أن نقترب أكثر إلى حقيقة ما أوصلَهم إليه استكبارُهم: يا إلهنا، فمادتَ تقول بأن ما يأتي به محمّد ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فجاء الإنكار أيضاً بطريقةٍ ملتبسة وغير مُباشرة، وهذا أيضاً ينمّ عن ذكاء الإنسان الكافر بشكلٍ عام، لأن الآية تُظهر الجانب الاستكباري في نفسيّة الكافر، فهي تركّز على نزعة الاستكبار، وليس على أشخاصٍ بذاتهم، لأن الأشخاص يذهبون، وبذهابهم ينتهي مفعول هذه الآيات التي كانت خاصّة بهم، ولكن النزعات تبقى، وتستمر عبر الأجيال البشرية، وبذلك يبقى القرآن متجدّداً أمام كل جيلٍ جديد، لأنه يرى فيه الجديد الذي يخص ما به من نزعات سلبية، وكيفية الوقاية منها وفق إرشاداتٍ سليمة ومضمونة النتائج. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

ولذلك ترى بأن القرآن لا يذكر أسماء المتسبّبين في نزول آياته إلّا بشكلٍ نادر جداً، ولكنه يذكر المُسَبّبات التي تُسبَّبَت في النزول، سواء أكانت أقوالاً، أو أفعالاً، لأنها هي التي تبقى سارية في الإنسان. فهذه الآية الكريمة، تُقدّم تحليلاً دقيقاً لبُنية الإنسان الكافر الذي يرفض القرآن، ويستهزئ بالمؤمنين وبالشعائر التي يؤدّونها، ويسيء الأدب في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو في ذكر صحابته الكرام رضوان الله عليهم. فهؤلاء هم الذين تُخاطبهم الآية، وهم الذين تعرّف المؤمن على كينوناتهم، وتقدّم له كل هذه التفاصيل الدقيقة عن بُنياتهم النفسية، لأنهم يحملون ذات المفاهيم التي كان يحملها أولئك، ويُعبّرون عن ذات المُعتقدات، وأحياناً يلفظون ذات الكلمات، أو كلمات تعبّر عن ذات المعاني، وذات المواقف: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الصافات: ١٧٦].

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ [الذاريات: ٥٩].

وما هو هامٌ أن الله يهدي من عباده مَن يشاء، ويُخرجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، فدوماً لا يغيب عنك الاعتقاد واليقين بأن الله يمكن أن يهدي هذا الضال أو ذاك إلى صراطٍ مستقيم، وتدعو له بالهداية، وتتحدّث له بكلمٍ طيّب. وفي مختلف الأزمنة رأينا كثيراً من أئمّة الكفر والإلحاد، وقد هداهم الله تعالى إلى الإيمان، وأصبحوا من دعاة الإيمان. كذلك الأمر بالنسبة للنساء، فامرأة كانت متبرّجة، هداها الله إلى الحشمة، أو كانت منحرفة، فأكرمها الله وهداها الله إلى العفاف. ولذلك يكون الستر أكثر جدوى من التشهير عندما ترى شخصاً في معصية، فتستره وأنت تتوسّم فيه الإصلاح. جاء في حديث ماعز أنّه جاء إلى أبي بكر الصِّديق، فقال له: (إنَّ الآخر زنى - يريد نفسه - فقال له أبو بكر: هل ذكرت هذا لأحد غيري؟ فقال: لا. فقال له أبو بكر: فتُب إلى الله، واسْتَتِر بسِتر الله فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده. فلم تُقرِره نفسه، حتَّى أتى عمر بن الخطَّاب، فقال له مثل ما قال

لأبي بكر، فقال له عمر مثل ما قال له أبو بكر. فلم تُقْرِره نفسه حتَّى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: إنَّ الآخر زنى. فقال سعيد: فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرَّات، كلُّ ذلك يُعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتَّى إذا أكثر عليه، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال: "أيشتكي، أم به جِنَّة"؟ فقالوا: يا رسول الله، والله إنَّه لصحيح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبِكْر أم ثيِّب"؟ فقالوا: بل ثيِّب، يا رسول الله، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرُجِم).

وفي رواية: (أنَّ رجلًا اسمه هَزَّال، هو الذي أشار على ماعز أن يأتي النَّبي صلى الله عليه وسلم فيخبره، فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم يا هَزَّال، "لو سَتَرْته بردائك، لكان خيرًا لك".

الباب الثالث والثلاثون

تأجيل العقاب

[٣٣]

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾

لا يستجيب الله لهم، ولا يُعاجلهم، كرامة لوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فِيهِمْۚ﴾، ولعلّ هذه الكرامة تلبث، ويجعلها الله تعالى لأهل الصلاح في كل زمانٍ ومكان. فترى حيّاً بأكمله، يقيه الله بعض الأضرار كرامة لشخصٍ صالحٍ فيه، وترى بيتاً يقيه الله الأذى، نتيجة وجود شخص له كرامة عند الله فيه، ولذلك عندما يخرج أصحاب الكرامات من هذه الأماكن، ترى الضرر تلو الضرر يقع على تلك الأماكن. عن حذيفة بن اليمان أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبيّ من صبيانهم في الكتاب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة". فأهل الصلاح لهم كرامات عند الله، ويمكن لأي إنسانٍ مهما كان ماضيه سلبياً، أن يتوب ويصلح، وتكون له كرامات من الله تعالى نتيجة توبته وصلاحه.

في هذه الآية الكريمة مانزال في سرد ما قد مضى، والغاية من ذلك، حتى يستطيع الإنسان أن يبني حاضره، ويستشرف آفاق مستقبله على أنقاض الماضي، فيكون على علم ودراية بِما قد حَصَلَ في الماضي، واستناداً إلى ذلك، يكون عمله في الحاضر، ويكون تخطيطه للمستقبل. فبيان هذه الوقائع أمام مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، يجعله على درايةٍ، وهذا يُزيده وعياً ونضجاً، فيؤسّس الحاضر، وبذات الوقت يضع قواعد مستقبل الأمة الإسلامية.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾، مشترطٌ ببقائه في وسطٍ فاسد، وذلك بمثابة تأجيل إيقاع العِقاب الذي يستحقّونه، بل هم أنفسهم طالبوا فيه واستعجلوه.

ولكن الله ويمهل أهل الفساد حتى يُخرج منهم أهل الصلاح كما أخرج محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضوان الله عليهم، من مكة إلى المدينة. فهي مرحلةٌ للغربلة تكون فيها فرصة جيدة أمام الذين يتنازلون عن تعنّتهم، ويتوبون، وقد حصل ذلك، ويحصل على مدار الزمن. فالإسلام، أول ما يفعل، هو أن يكسر شوكة الاستكبار في قلب الإنسان المستكبر، ويجعله متواضعاً، وعندما يتواضع، يمدّ خطواته نحو الصلاح، ولذلك كان الكفّار يتعالون على الإيمان بأن محمداً الذي يخبرون جيداً تواضعه، هو رسول من عند الله، فهم الجبابرة، والوجهاء، والقادة، والزعماء، والأثرياء، إذا آمنوا، فإن هذا الإيمان يعني أن محمداً أرفع شأناً منهم، ولذلك عليهم أن يتواضعوا أمام نبوّته التي لا شيء قط يعلوها. ولذلك رفضوا أن يكون كبيرهم ومرشدهم، وقد عهدوا فيه التواضع سواء معنوياً أو مادياً. ولم يكتفوا بذلك فقط، بل باتوا يرفضون كل مَن يؤمن به: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلا يريدون التصديق، وهذا اعتراف صريح منهم بأن الإيمان منّة من الله تعالى على الإنسان، ولذلك رأوا بأنهم الأولى بذلك، إذن وحتى يبقوا في استعلائهم، وقفوا هذا الموقف الرافض. وهذا شأن كل الذين يتعالون على المؤمنين، ويستهزؤون بشعائرهم.

ومن هنا يمكنك أن تستنتج بأن الإسلام يُعالج هذه العُقدة في الإنسان، عُقدة الشعور بالنقص، فيكون علاجها من خلال التواضع حتى يتماثل للشفاء، في حين إن الغير مؤمن، يسعى إلى علاجها من خلال الاستكبار، وكون العلاج لا يكون سليماً، فإن تداعيات هذه العقدة أيضاً تتفاقم عليه، فتلبث هذه العقدة في تضخّم واتّساع حتى تودي بصاحبها إلى نهاية مذلّة ومشينة. فالتأجيل هو إمهال من الله سبحانه وتعالى، يمكن أن يغتنمه الإنسان كي يتوب ويصلح، رغم أن الكافر يظن بأنه يتحدّى الله سبحانه وتعالى، عندما يستهزئ بآيات الله، أو يُكذّب الرسل والأنبياء، أو يستكبر على المؤمنين، ثم يطلب على الملأ أن يوقع عليه الله العِقاب في الحال. فقد يستجيب الله ويُعاجله، وقد يمنحه فرصة للتوبة، فيعفو عنه. فهذا الشكل من أشكال التمادي واردٌ، وحتى لا يُصدم الناس بذلك، فيُخبر الله بِما قد

حصل، وأن ذلك قابلٌ للحصول في أي وقتٍ ومكان. عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: (انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه الصلاة والسلام فلم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يرفع ثم رفع فلم يكد يسجد ثم سجد فلم يكد يرفع ثم رفع فلم يكد يسجد ثم سجد فلم يكد يرفع ثم رفع وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك ثم نفخ في آخر سجوده ثم قال: "رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرك" ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته وقد أمحصت الشمس).

وهذا في الوقت عينه بمثابة التنبيه والتحذير لأهل الإلحاد والكفر بألّا يتمادوا، لأن التمادي أمام حاكمٍ يودي إلى عقابٍ، رغم القدرات المحدودة التي يمتلكها الحاكم، والله أحكم الحاكمين. كذلك يمكنك أن تتعلّم من هذه الآية الكريمة بأن الإنعاش الذي يغدق به الله تعالى على أهل الإلحاد والكفر، فذلك حتى يمنحهم فرصة كي يتراجعوا ويثبتوا لله بأنهم أهل للهداية، أو يزدادوا طغياناً ويثبتوا بأنهم ليسوا أهلاً للهداية، فيكون في الوجهَين قد مُنِحوا وقتهم الكافي، وفُرَصهم الكافية.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، الاستغفار هو حصانة من إيقاع العذاب، أن تستغفر الله، يعني أن تندم على ذنبٍ ارتكبته، وتسأل الله تعالى المغفرة. وهذه دعوة من الله إلى كل مذنب، بل وأن العذاب قد يؤجَّل عن الذين لا يستغفرون أيضاً، كرامة للذين يستغفرون، كونهم يعيشون معهم في بيتٍ واحد، أو في حيٍ واحد، أو في مدينةٍ واحدة، أو في دولةٍ واحدة. فمادام الإنسان يستغفر، فإنه يكون قد ندم على ما بَدَرَ منه إن كان قولاً، أو فعلاً، وبذلك يُرفَع عنه العذاب الذي يستحقه، ويكون قد اغتنم فرصة الإمهال.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا

أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة"[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة يقول: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور"[٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلّ هَمٍّ فَرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"[٣]. عن عبد الله بن بُسْرٍ قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ في صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفاراً كَثِيراً"[٤]. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء"[٥]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ"[٦]. عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضِي الله عنْهُما قَال: قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "منْ لَزِم الاسْتِغْفَار، جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مخْرجًا، ومنْ كُلِّ هَمٍّ فَرجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"[٧]. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي، وأبو داود، والحاكم.

(٣) سنن أبي داود، وابن ماجه.

(٤) سنن ابن ماجه.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه أبو داود.

بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها"[١]. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده"[٢].

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث ٢٧٥٩.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٣٠٨.

الباب الرابع والثلاثون

ولاية التقوى

[٣٤]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

هذه الآية مُتداخلة مع الآية السابقة، ففي الآية السابقة كان النبي صلى الله عليه وسلم فيهم، ولكن الآن قد خرج من بينهم مُهاجراً إلى المدينة، ثم إنهم تفرّدوا بـ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ويُمارسون فيه طقوسهم الوثنية، فيطوفون فيه عراة، رجالاً ونساءً، وغدوا يمنعون المسلمين من دخول البيت لأداء المناسك. ثم إنهم صدّوا النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته عام الحديبية، ومنعوهم من البيت. ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ للمشركين، جاءت بـ ﴿مَا﴾ وهي هنا استفهامية وإنكارية: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾. وهذه الآية تُعيدك إلى أجواء آية: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾. ليُحافظ السياق الروائي للسورة على تعاضده وتماسكه، ويبقى خيط عنصر التشويق مستمرّاً في السورة الكريمة، حيث كل آية تتكامل بما قبلها، وما بعدها من آياتٍ ضمن بيئة وشخصيّات وأحداث السورة. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فَمَن هم حتى ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، أي شيء يمكن له أن يحول بينهم وبين تعرّضهم لعذاب الله.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾، لا شيء ﴿لَهُمْ﴾ لا شيء يستثنيهم من تلقي العذاب. وهذا الكلام موجّه لأي شخصٍ يعتقد، أو يتكهّن بأن الله لا يعاقبه رغم استمراره في المعاصي. فما الذي لديك حتى لا تلقى عقاب معاصيك، ولماذا تعتبر نفسك استثناءً عن القاعدة، وإذا حصل أن الله تعالى قد سترك كثيراً، ومتّعك بالصحة كثيراً،

وأعطاك الأمن والرخاء كثيراً رغم كثرة معاصيك، فلعلّ ذلك كان كرامة لشخصٍ تقي لك علاقة قربى به، لأبيك، لأمك، لابنك، لابنتك، لزوجتك، أو لشخصٍ لك علاقة حميمة به، مثل امرأةٍ تحبك، أو صديق، أو جارٍ، أو شخصٍ محتاجٍ اعتدتَ أن تساعده بين فترة وأخرى. فلعلّ أحداً من هؤلاء، أو من غيرهم يدعو لك، فيتقبّل الله دعاءه، ولعلّ الله عز وجل، يمهلك، ويمهلك، ويمهلك، ولم يعاجلك بالعقاب، لم يكشف ما اقترفتَ من آثام، وسَتَرَكَ، بل حتى وإن كشفكَ أشخاصٌ، فيجعل الله أسباباً لهم كي يُخفوا ما رأوا منك، ولا يُبدوه. فعليك أن تُراجِعَ نفسك، أن تقعد مع نفسك، وتسترجع كل ذاك الماضي ليَتَبَيَّن لك بأنك لستَ أهلاً لِما أنت فيه من نِعَم مهما كانت درجات ومقوّمات هذه النِّعَم، إذا كان الله قد عاقبك بذنوبك التي ارتكبتها، وبتجاوزاتك التي تجاوزتها.

عند ذاك تُبيّن لك قراءتك المتأنيّة للآية، بأن ذلك لن يدوم مع دوام تماديك وتجاوزاتك على حدود الله التي طالما حذّرك منها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾. هؤلاء ليسوا جديرين كي يكونوا ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧].

فلك عبرة في الذين سبقوك في انتهاك حدود الله، ولا تدّعي أنك من أولياء الله، أو تتولّى عن الحفاظ على المراكز الدينية.

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فَمَن يتّقي الله، فهو وليه، ومَن يحافظ على حدود الله، ويحافظ على بيوت الله، ويُحسن إليها، ويكون خاشعاً ومتأدّباً وهو يدخلها، فهو المستحق لتمثيل هذه القِيَم والشعائر الدينية، معنوية كانت أم مادّية. عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد الْأَنْصَارِيّ عَنْ أَنَس بْن مَالِك رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: (سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَوْلِيَاؤُك؟ قَالَ "كُلّ تَقِيّ" وَتَلَا رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **[إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ]**). فبالتقوى يرتقي الإنسان إلى منزلة الولاية، ثم اختُتِمَت الآية بقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. فيعلم بذلك الذين ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا البيان التفصيلي التوضيحي من الله جلّ شأنُه. وقال بالأكثرية، فمهما كثر المذنبون والعصاة والمنتهكون لمحارم الله، فإن الله غفور رحيم، سواء بالنسبة لحالاتٍ فردية، أو حالاتٍ جماعية، أو لشعوبٍ بأكملها. وقد حصل بعد نزول هذه الآية أن اعتنقت قوميّات بأكملها الإسلام، وخرجت من الضلال إلى الهدى، رغم أن اللغة العربية ليست لغتها، بل لا تجيد حتى القراءة باللغة العربية، وفي ذلك: سبحان الله الذي يهدي من يشاء، ويضل ومن يشاء. فقدّم هؤلاء خدمات طيّبة للمسيرة الإسلامية بعد مُحَمَّدِ صلى الله عليه وسلم، في شتى ألوان وفروع العطاء والإنتاج، من القاعدة الإسلامية التي هداهم الله إليها. إذن، فأولياء ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ لا يقتصرون على قومٍ محدّد، أو على موضعٍ محدّد، بل يقتصرون على التقوى، ومهما كان هذا المتّقي الذي هداه الله، وأينما كان، فله هذه الولاية. ولذلك فقد ترى شخصاً بالقرب من هذا المسجد، لا يدافع عنه، بل ترى شخصاً على بعد آلاف الأميال، ولكنه من هناك يدافع عنه سواء مادّياً أو معنوياً. فالمسألة هنا تعني العقيدة التي تبيّن الآية بأنها ليست خاصّة بِمَن هم على مقربةٍ من ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الذي هو رمزٌ للعقيدة، بل هو لسائر الناس في كل زمانٍ ومكان. ولذلك ترى بأن الناس من مختلف بقاع الأرض عندما يتّجهون إلى القبلة، يشعرون بأنهم على مقربةٍ منها، وأن المسافات مهما كانت بعيدة، فإنها تزول فيما بينها وبينهم.

الباب الخامس والثلاثون

الصلاة المزدوجة

[٣٥]

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ما يمكنك أن تتعلّمه من هذه الآية الكريمة، أن ليست كل صلاة هي حقاً صلاة، فقد يؤدّي بعض الناس بعض الحركات ضمن طقوسٍ معيّنة، ويقولون بأنهم يُصلّون، ولكن للصلاة شروطها حتى تكون صلاة. قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾. أي ما يُصدرون من حركاتٍ وأفعال وأصوات ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾. وكلمة ﴿مُكَآءً﴾ جامعة للكثير من الحركات، لكنها في جملتها شبيهة بالرغاء، فتعني الصفير، والتصفيق، والزعيق، فكانوا يطوفون رجالاً ونساءً وهم يشبكون بين أصابعهم. وهم قومون بذلك في وقت صلاة المسلمين، فيعلوا بهم المكاء، ولعلّ ذلك يتسبّب في عدم التركيز على الصلاة بسبب تداخل الأصوات وارتفاعها، فوصف الله جلّ شأنه كل هذه الحركات بـ ﴿مُكَآءً﴾ وهناك طائر يعيش في منطقة الحجاز يُسمّى (المَكّاء)، والجمع (مكاكيء). ثم عُطِفَت عليها كلمة أخرى دقيقة وبليغة وبيانية تعبّر عن الحال: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾. وهي كلمة رنينية، فيها شيء من الصدى، والصدى مُتداخل لا معنى له، ثم إنه زائل، كذلك ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ فيها شيء من الصدّ، مثل مَن يريد أن يصدّك عن عملٍ ما تبتغي القيام به، فترى هذا الصدّ من الذي يريد أن يحول بينك وبين عملك. من هنا فإن الآية كاملةً معطوفة على سابقتها التي تضمّنَت كلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾، ومهم جداً أن نعود إليها لنرى كيف يتعاضد ويتماسك السياق في السورة ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

ثم جاءت الإضافة البيانية: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

فإذن ما يبدر من هؤلاء على أنها صلاة، لا شيء من عبادة الصلاة فيها سوى اسمها فتتكامل الكلمتان مع بعضهما البعض في الجملة القرآنية: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾. فالصلاة الحقيقية المستوفية لشروط العبادة، هي من نصيب المتّقي، والمسجد وأي مسجد من مساجد الله، ينتفع منه المتّقي لأنه يستشعر هيبة الدخول إلى بيت الله، كما لو أن الله سبحانه وتعالى يستقبله فيه، فمقام البيت، من مقام صاحبه. فإن لم تكن ترى الله وأنت تدخل بيته، فهو يراك، وهو ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]. ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: ١٦]. إذن فعلى المصلّي أن يستوفي شروط الصلاة ظاهراً وباطناً حتى تكون صلاة، ﴿وَمَا كَانَ﴾ صلاة أي مصلٍ في أي مسجدٍ، إن لم تكن مستوفية لشروط الصلاة الشرعية: ﴿إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، وبذلك: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾. ونهاية هذه الآية، بيانٌ توضيحيٌ لمبتدأ الآية السابقة ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾. والآن: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ جزاء مكائكم وتصديتكم.

الباب السادس والثلاثون

الحسرة

[٣٦]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد ستِ آياتٍ مُتتالياتٍ معطوفاتٍ بـ ﴿وَ﴾، تُفتَتَح هذه الآيةُ الكريمة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ الاستئنافية، ولذلك، من المُستَحسَن أن نستذكر الآيات الست، ونعود إلى قراءتها، تلافياً لسهو شيءٍ منها، وهذا هامٌ جداً قبل النقلة الاستئنافية هذه. فإذن، هي آياتٌ وصفيّة، تصويريّة، والآن يمكننا أن نقرأها ونتلقّاها باستيعاب أكثر، ذلك أن كل قراءة جديدة هي استزادة في الاستيعاب: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾. الآن يتم وضع هؤلاء في مواجهة أعمالهم، لتقوم هي بمحاسبتهم، فبعدما تبيَّن في الآيات الست: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، سواء في مكّة، وقد أُنزِلَ هذا البيان فيهم، أو في أي وقتٍ آخر، أو مكانٍ آخر. كون الكلام ليس موجّهاً إلى أشخاصٍ، وليس مقتصراً على بقعة جغرافية، أو على فترةٍ زمنية، بل هو

مفتوحٌ يشمل جميع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، سواء الذين تسبّبوا في هذا التنزيل، أو الذين سيأتون من بعدهم، وينتهجون نهجهم. فهؤلاء ﴿يُنفِقُونَ﴾. ونتنبه هنا بأن الكلمة جاءت بصفةٍ مُضارعيّة، والتضارع، يشير إلى الترادف والاستمرار: ﴿يُنفِقُونَ﴾. علماً بأن هؤلاء كانوا قد أنفقوا، كون الآية أُنزِلَت بعد وقوع السبب، لكن فعل المُضارع يشير إلى إمكانيّة استمرار ذات الفعل الذي تسبّب في التنزيل، فكلّما يُكرّر شخصٌ ذات الفعل في أي زمانٍ ومكان بعد ذلك، يكون قد جعل نفسه مثل الشخص الأول الذي قام بذات الفعل، ونَزَل فيه البيان الإلهي. فالعقاب هو، هو، لأن فعل العصيان هو، هو، كما أن الثواب بالنسبة للمؤمن هو، هو، لأن فعل الطاعة هو، هو.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ وهدفهم من الإنفاق: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جاء الصدّ في هذه الآية، بعد وروده في الآيتَين السابقتَين، وإن كان الورود في الآية الأولى يبيّن أحقّيتهم لتلقّي العِقاب، وأنّهم ليسوا أهلاً ليكونوا أولياء الله، وفي الثانية بطلان صلاتهم. فهنا تضعك الآية أمام حصيلة هذه الأعمال الشائنة التي يقومون بها: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾. الفاء المُفتتحة للكلمة دقيقة جداً، وتشير إلى أمرٍ مستقبلي سوف يحصل لهم، فتكون بمعنى (فسوف). فكما أنهم في أي وقتٍ وأي مكانٍ: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. أي: يجعلون هذا المال الذي رزقهم الله به، عائقاً أمام شرع الله، ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ به ﴿عَن سَبِيلِ﴾ صراط ﴿ٱللَّهِۚ﴾ المستقيم. ﴿فَـ﴾ - بعهدٍ قاطعٍ من الله تعالى -: ﴿سَيُنفِقُونَهَا﴾ رغماً عنهم فيما يكرهون. بمعنى سيحلّ عليهم طارئٌ ما يجعلهم ينفقون فيه أموالهم كرهاً، ولذلك فروع، مثل غرامة كبرى يتلقّونها، أو إصابتهم بمرضٍ يستنفذ تلك الأموال، أو تعرّض ممتلكاتهم لحريق، أو يلقون تهديداً، فيضطرّون إلى الإنفاق بغية زوال التهديد. وما يشاء الله تعالى من أسبابٍ تجعل وعده نافذاً فيهم.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. بعد أن يتم الإنفاق الطّوعي ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، والإنفاق الكرهي تحقيقاً لوعد الله، بما يشاء من أسباب، وعندئذ تنفذ

أموالهم، وبعد ذاك الغِنى الذي كانوا فيه، يُصابون بالإفلاس ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ - تلك الأموال التي أساؤوا استخدامها -: ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. فيتحسّرون على ذاك الغِنى الذي كانوا فيه، ويتحسّرون على رَغَد العيش الذي كانوا فيه، مثل أن يقيموا في بيتٍ من البيوت التي خسروها، أو ما كانوا يأكلون من طعام، أو يلبسون من ثياب، أو يركبون من مراكب، وما إلى ذلك من ألوان النعيم الذي كانوا يرفلون فيه. فالآن ﴿تَكُونُ﴾ تلك الأموال الطائلة ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، وكل ما فعلوا، وأنفقوا أموالهم من أجله لم يؤدّ إلى نتيجة. وتستأنف الآية الكريمة بـ ﴿ثُمَّ﴾ ثانية لتعطف ما يليها على ما يلي ﴿ثُمَّ﴾ الأولى ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾. فكل ما يفعلونه، وما ينفقون أموالهم الطائلة من أجله، لن يؤدّي إلى نتيجة، كما أنها لم تؤدّ إلى نتيجة بالنسبة لسالفيهم.

قال مقاتل والكلبيّ: (نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلاً: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبيه ومنبه ابنا حجّاج، وأبو البحتري بن هشام، والنضر بن الحرث، وحكيم بن حرام، وأبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب. وكلهم من قريش وكان يطعم كلّ واحد منهم كل يوم عشر جزائر).

إذن، يأتي تحذير الله للصادّين عن سبيله، وبذات الوقت للعاملين في سبيله، بكلمتين: ﴿ثُمَّ﴾، مهما طال إمهال الله لهم، لا بدّ أن ﴿يُغْلَبُونَ﴾. فتكون الغَلَبة لأهل الصلاح الذين يعملون جاهدين في سبيل الله، ويجعلون أعمالهم خالصة لوجهه تعالى، وابتغاء مرضاته. وقد تكلّل ذلك للعاملين في سبيل الله بفتح مكة، وغُلِبَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكانوا ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وهذا لا يعني أن يستريح المؤمن لهذه البشرى الإلهية، بل عليه أن يجاهد كي يحافظ على ما يحققه له الله سبحانه وتعالى. ومعركة أحد فيها بيانٌ بأن الكفار يمكن لهم أن ينتصروا، لأن المسلمين أنفسهم قد يتسبّبون في حلول الوهن عليهم بسبب تشرذمهم وانشقاقهم، لأن ذلك يكون من عوامل القوة لأعدائهم. ولذلك قال

أبو سفيان يوم أحد: (يوم بيوم والحرب سجال). فالمسلم المنتصر عليه أن يحافظ على قوته حتى لا يُنتَصَر عليه. وجاءت خاتمة الآية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾. فلم يُغلَبوا في الدنيا فحسب، ولن تقتصر حسرتهم على خسارة الدنيا فحسب، بل ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ حيث يلقون حصيلة تماديهم على أهل الصلاح، لصدّهم عن الحق، وثنيهم عن صلاحهم، سواء بالاستهزاء بشعائرهم، أو برفع الأصوات والزعاق، أو بتدبير المكائد لهم، أو بإنفاق الأموال لإعاقتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾. وكما تحقق وعد الله في الدنيا، فإنه يتحقق في الآخرة. وما هو غاية في الأهمية، أن الآية تضعك في قلب الواقع الذي سيكون، وتمنحك مطلق الحرية في الانتماء إلى زمرة العاملين في سبيل الله، أو زمرة الصادّين عن سبيله.

الباب السابع والثلاثون
الميزة بين الخبيث والطيب

[٣٧]

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولكن ما الغاية من منحك الحرية الشخصية؟ يكمن الجواب في هذه الآية: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾. ﴿لِيَمِيزَ﴾ بين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ و﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، وأنهم بالفاء الوعديّة ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾. وهؤلاء دون غيرهم ﴿تَكُونُ﴾ تلك الأموال ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وهم كذلك ﴿يُغْلَبُونَ ۗ﴾. وإضافة إلى كل ما يحصل لهم في الدنيا، فإنهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. لماذا؟ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾. ليجعل الخبيثين يمتازون بما يلقون من منغّصات، حتى يتعرّف الناس جميعاً على حقائقهم، وكذلك حتى تكون لهم فرصة كي يتراجعوا من الخبث إلى الطيب. وهذا أمرٌ بالغ الأهمية تكشفه الآيةُ لك، فترى شخصاً لا يكون وقّافاً عند حدود الله، ويعمل الخبائث، فيلقى ما ينغّص عليه حياته، سواء في صحته، أو زوجته، أو ولده، أو ماله، أو علاقاته الاجتماعية، وما إلى ذلك. فتكشف لك الآية أن كل ذلك من رحمة الله به، حيث لا يعاجله بالعقاب الذي يستحقه رغم تماديه في الأعمال الخبيثة، بل يمهله، ويريه عائدية بعض نتائج أعماله الشائنة عليه، وفي ذلك إشارة بأن ما يأتي سيكون أعظم، فكلّما يزداد تمادياً في الخبث، يزيده الله من المعاناة لعلّه يتّعظ. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٨]. والله هو الذي يمدّه بكل مقوّمات الحياة، وهو قادرٌ أن يمسكها عنه في الحال. الأمر الآخر هو أن هذه المساحة الزمنية

المقترنة بإشارات الله إلى أهل الخبث، من شأنها أن تجعل أبناءهم وحفدتهم ينتبهون إلى ذلك ويتّعظون به، ولا يحذون حذوهم في الخبث، فتكون بذلك فسحة ليخرج طيّبون من أصلاب خبيثين. وهذا أيضاً من أشكال الميزة ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ومن جهة أخرى فإن ذلك يكون عظة للطيّبين أيضاً وهم يرون النتائج الوخيمة التي يجنيها الخبيثون من خبثهم، فيزدادون طيباً على طيب، ويتجنّبون ما أمكنهم الوقوع في شراك الخبث. فهذه الآية الكريمة كفيلة لإخراج أي خبيثٍ من خبثه مهما اتُّسَعَت به خبائثه، إذا قرأها بشيءٍ من التدبّر: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾. فهي ميزة الله بين الطيبين، وبين الخبيثين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]. وكما تحصل التصفيات في الآخرة، فإنها كذلك تحصل في الدنيا، ويعيش الطيّبون في المراتب الأولى من الحياة، ليجني كلٌّ حصاده، ويتحقّق وعد الله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]. إذن بعد أن يجعل الله الميزة بين الخبيثين، والطيّبين، فإنه سبحانه: ﴿يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾. بعد أن يتوب منهم مَن يتوب، ويتّعظ مَن يتَّعظ، ويخرج مَن يخرج من أصلابهم من الطيّبين: ﴿يَجْعَلَ﴾ يضم ما تبقّى من ﴿ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ ككتلةٍ واحدةٍ، ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ يجعل مصير هذا المُتراكَم ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾. ثم اختُتِمَت الآيةُ الوعظيّة التنبيهيّة بثلاث كلماتٍ معبّرات، أولاها اسم الإشارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، إشارة إلى ميزتهم الخبيثة التي أصرّوا عليها رغم كل الفرص التي أتاحها الله لهم كي يتطيّبوا بها ويصلحوا. ثانيها ﴿هُمُ﴾، التأكيد إلى المجموع الذي رَكَمه الله ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، حتى

أمسى ككتلة واحدة دون أن يُستَثنى من هذا المُتراكَم أحد، فكما لو أنه لُصِق ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. ثالثها ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. الخسارة الجسيمة التي مُنيوا بها في الدنيا، وكذلك في الآخرة. وجاءت كلمة الخسارة دقيقة، لأن الذي يُنفق ماله، عليه أن يبتغي الربح في ذلك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦]. فقد امتاز هؤلاء بالخسران الأكبر.

الباب الثامن والثلاثون

فرصة التوبة

[٣٨]

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

رغم كل ما فعلوا فإن رحمة الله سانحة أمامهم حتى لا يتحوّلوا إلى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، بكل أشكال وألوان الخسارة، وبكل ثقل وقوّة الخسارة الجسيمة. لأجل ذلك: ﴿ قُل ﴾ يا مُحمَّد، وقولوا يا أمّة مُحَمَّد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ في كل زمانٍ ومكان: ﴿إِن يَنتَهُواْ ﴾ مِمّا هم فيه من كفر ويصلحوا: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾. مهما تعاظَمَت ذنوبهم، ومهما تمادوا واتّسعوا في أشكال وألوان الكفر، فذلك كله يتحوّل برحمة الله إلى ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ويُمسَح عنهم جملةً واحدة، كما لو أنها لم تكن. فاعلم أن ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ بالغة الدقّة والقوّة والشموليّة، أي: يُرفَع من صحائفهم كل ما فعلوه دون أي استثناءٍ البتة. ورحمة الله مفتوحة على سعتها حتى يبدؤوا انطلاقة جديدة نحو حياةٍ طيّبةٍ، دون أن يُشغلوا أنفسهم لحظة واحدة بكل ما اقترفوه من ذنوب في السالف، مهما تعاظَمَت، لأن الله تعالى قد تعهّد ﴿لَهُم﴾ بخطابٍ خاصٍ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ وهي مغفرة مفتوحة وشاملة كل ذنب. ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾، يُعاندوا ولا يغتنوا هذه الفرصة الثمينة، ويأبوا الرحمة والمغفرة، ويستكملوا نهج المعصية والتمادي حتى يتمسّكوا بخبثهم ولا يتزحزحوا عنه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. فيكونوا قد اختاروا لأنفسهم العقاب الذي بيّنه الله لهم سواء في الدنيا، أو في الآخرة، وبذلك يمتّع الله سبحانه وتعالى، الإنسان

بحرّيته في الاختيار. وجاءت كلمة ﴿سُنَّتُ﴾ معبّرة عن الحال، فـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، كما في نهاية الآية السابقة، قد سنّوا سنّة الخبث أمام الذين يستنّون بسنّتهم الخبيثة هذه، ويصبحوا من مريديهم، فيحيون سنّة الخبث بممارستهم وتمثيلهم لها.

وبذلك فكلّما ينتهي جيلٌ جديدٌ، فإنه ينضم إلى الأولّين، ليخلفه في ذلك جيلٌ جديدٌ آخر، يُمارس ويمثّل ويحيي سنّة الخبث. عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"(١).

والآية تبيّن بأن الخبيثين ينتشرون في كل زمانٍ ومكان، والله سبحانه وتعالى يجعلهم دوماً في ميزةٍ عن الطيّبين. وكما أن ذلك يحصل في الدنيا، فكذلك يحصل في الآخرة. فتعلّمك الآيةُ بأن الشخص الخبيث يمكن أن يظهر لك في أي وقتٍ مهما كان غريباً عنك، بل لعلّك لم تلتق به، فيخبث بك عن بُعد، وهو لا يخبث بك كشخص، لأنه لا يعرف شخصك، بل يخبث بسنّة الطيب فيك، فيريد أن يثنيك أن طيبك، لأن هذا الطيب هو نقيض لسنّة الخبث فيه. فإذن سنّة الخبث فيه، تخبث بسنّة الطيب فيك، سنّة الخبث فيه تُعارك سنّة الطيب فيك.

وإلى جانب ذلك، تبيّن لك الآية وترشدك بأن الخبث أيضاً يمكن أن يظهر لك حتى من أقرب المقرَّبين إليك، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يدع ذلك يلبث مع الطيب مهما كان متوارياً، فقد فرّق الله بين نوحٍ وبين زوجته، وكذلك ابنه، عندما أوقع العِقاب، وأنجى الطيّبين، وكذلك بين لوط وزوجته، وأظهر ما كان عليه أخوة يوسف، وبيّن ما كان عليه أبو لهب وزوجته، وكذلك فرّق بين فرعون وبين زوجته، فهو الطاغية في الخبث، وهي الكاملة في الصلاح، فوقع العِقاب عليه، وأصبح مثلاً

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث ١٠١٧.

للطغيان، وأنجى زوجته آسيا، لتُصبح مثالاً للمرأة الكاملة في صلاحها، بل الله سبحانه وتعالى يبرى حتى الحيوان إذا كان بريئاً، فقد أبرأ الذئب ممّا اتُّهِمَ به من قِبَل أخوة يوسف، رغم أن هذا الذئب مجهولٌ، ولكن الله أظهر براءته.

بذلك فإن صفحات القرآن المُشرقة تنير أمامك السبيل، وتزيدك وعياً، وتحذّرك، وإن وقع لك شيءٌ من ذلك، فحتى تتفادى الصدمة، لأن ذلك أمرٌ قابلٌ للوقوع. والخبث لا يقتصر على زمنٍ، أو على أشخاصٍ، بل له حضوره في كل زمان، وفي كل جيلٍ بشري، ولذلك جاءت كلمة ﴿سُنَّتُ﴾ بكل هذه الدلالات المفتوحة، لأن السنّة هي الاستمرارية، فما دامَت ثمّة ﴿سُنَّتُ﴾، فهناك مَن يستنّ بها، سواء ﴿سُنَّتُ﴾ الطيب، أو ﴿سُنَّتُ﴾ الخبث. ونظير ذلك ممّا تعلّمك إياه الآية، هو أن تُحسن الظن بالناس جميعاً، حتى يثبتوا العكس، فشخصٌ تتوسّم فيه خير، يتبيَّن بأنه كان يضمر لك شرّاً، وشخصٌ تتوسّم فيه شرّاً، يتبيَّن بأنه كان يضمر لك خيراً. فذلك عهد الله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾. وعهد الله تعالى نافذٌ، والميزة حاصلة ولو طال أَمَدُها، فقد تكون في عملٍ وأنت مرتاحٌ فيه، وتجني منه أرباحاً ومكانة في المجتمع، ولكن طبيعة هذا العمل تؤذيك، لأن فيه شيءٌ من الخبث، سواء الخفي، أو المُعلَن. ومادمتَ طيّباً، فإن الله تعالى يجعل سبباً حتى يصرفك عن هذا العمل، فيكون بذلك قد صَرَفَ الخُبثَ عن الطيبِ. قد يكون لك صديقٌ حميم، ولكن الله يجعل سبباً ليفرّقك عنه، ليصرف خبثه المضمور عن طيبك. قد يهديك الله إلى عملٍ، ترى أنه لا جدوى منه، ولكنه يكون عملاً طيباً خالياً من الخبث، رغم ما به من تواضع. قد تتعرّف على شخصٍ متواضعٍ في منزلته وإمكاناته، ولكنه يكون خلاصة في الطيب، فتتطيَّب بطيبه بِما ينفعك، ويحقّق فيك توازناً، تفتقده لدى سائر الذين لك معرفة بهم، ومع الزمن والتجارب، تجلو الحقائق.

الباب التاسع والثلاثون

شروط القتال

[٣٩]

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

آياتُ القِتال في القرآن، بالغة الدقّة، وقد أسرفَ بعض أهلِ التفسير، والعِلم، والفقه، والفتيا، في تفسير وتأويل هذه الآيات، وذلك في مختلف الأزمنة. ولكن المعضلة أن البعض فيما بعد وحتى وقتنا الحالي يبدو مردِّداً لِما قيل قبل ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، فليبث مردِّداً هذا القِيل، والقَال، مهما استجدَّت مُستجدّات، وكأن الزمن قد وقف عند ذاك الشخص الذي قال ذاك الكلام في تلك الظروف.

ولعلّ أولئك الذين قالوا بذاك القِيل والقَال، لو كانوا في هذا الزمن، لغيَّروا كثيراً ممّا قالوا، فهم قد قالوا ذلك استناداً إلى المُعطَيات التي كانت مُتاحة لديهم.

فالترديد، يعني قصر معاني القرآن على حقبةٍ زمنيةٍ مُحَدَّدةٍ، وقطع الصِّلة بينه وبين المُنجَز البشري. والقرآنُ هو قرآنٌ، لأنه يمتلك مقوِّمات وأساسيَّات التفاعل مع مختلف الأحقاب والقرون والأجيال البشرية، وإلّا لا يكون قرآناً، لأنه يكون قد قُرِئ، وقد فُسِّر، وانتهى الأمر.

فهو لم يعد يتضمَّن جديداً يمكن اكتشافه فيه، وبالتالي ستكون قراءته مكرَّره، لا تحرِّك شيئاً في الإنسان.

لكن القرآن هو قرآنٌ، لأنه يُقرأ قراءة تفاعلية جديدة في كل زمن، وما يمنحه مشروعية الاستمرارية في القراءة، هو أنه يمتلك الجديد الذي لم يُكتَشَف من قبل، والقراءة الجديدة بالنسبة لأي جيلٍ جديدٍ، هي السبيل الوحيد لاكتشافه.

أمّا الترديد لِما قد قيل، فمن شأنه أن يتسبَّب في حلول الكوارث على الناس، لأن بعض التفاسير، وبعض الفتاوى جاءت في ظروفٍ ما، مثل الحروب بين المسلمين وغيرهم، وبعض الحالات الطارئة.

من جهةٍ أخرى فإن هذا المفسّر أو المفتي، لا يكون متمتِّعاً بسعة الاطِّلاع على المُنجزات العلمية والأدبية والثقافية، وهذا أيضاً يأتي على بعض الأئمّة والخُطباء والدُّعاة، فلا يكاد أحدهم أن قرأ أكثر من بضعة كتبٍ في مجالٍ محدَّدٍ، ومن زمنٍ محدَّدٍ، وبالتالي اقتصرت وضاقت ثقافته في تلك الكتب. فلا عجب أن تراه متشدِّداً، منغلقاً، جهماً، مستكبراً، وهو يردِّد: هذا حلال، هذا حرام. من باب ترديد ما قرأه في تلك الكتب، وهو بذلك يكون مقطوع الصلة بينه وبين الزمن الذي يعيش فيه، فهو يكرِّر الخِطاب الذي كان موجَّهاً إلى أناس ذاك الماضي السحيق، ووفق الواقع الذي كانوا فيه.

ونتيجة هذا التداخل، تنفرز نزعةُ التطرّف خاصةً لدى بعض الفئات الشابة التي ترى بأن كل شيء بات فاسداً من حولها، فيكون بذلك الصِدام بين المسلمين أنفسهم تحت ذريعة التكفير، وبالتالي فإن ذلك يستنزف قوّتهم، ويؤدِّي إلى استقواء الآخرين عليهم للحصول على خيراتهم.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾.

الجُملة مُتداخِلة ومُتشابِكة في نسيج بعضها البعض، ولا يجوز بأي حالٍ من الأحوال فصل أي كلمةٍ منها عن الأخرى. فكلمة ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ ﴾، تقترن وتنحصر بكلمة ﴿فِتۡنَةٞ﴾.

ويُستَنتَج من ذلك: امنعوا الفتنة. والفتنة هي التحريض على القتل، أي: امنعوا المحرِّضين على القتل، وأوقفوهم عن التحريض إلى سفك دماء الناس. فهو قِتالٌ مشروطٌ، ولا بد لهذا الشرط أن يكون مُحَقَّقاً، أي يكون واقعاً بالفعل، ويتكرَّر وقوعُه، فيجيز الله سبحانه وتعالى للحاكم أو القاضي أن يُصدر أمراً بتوقيف هذا المُحَرِّض، حتى يوقف نشاطه التحريضي ﴿وَ﴾ بالتالي: ﴿يَكُونَ﴾ يبقى ﴿ٱلدِّينُ

﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ خالصاً وبعيداً عن فِتَن الطائفية، والمذهبية، والإثنية، والقومية. فالجميع يلتقون عند كلمة الله، لأن الجميع يدينون بدين الله، وهذا ما يُحقِّق أمن وسلامة المجتمع البشري كافة.

لكن هل ﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ﴾، لغاية ﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ﴾، فحسب؟

كلا، بل لغاية أن ﴿لَا﴾ تستشري الفتنة، وتستمر في تفكيك المجتمع واستنزاف طاقاته وخيراته، بل كي يحافظ المجتمع على تماسكه وسلامته، والاتفاق على الإجماع بأن ﴿ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾.

وعندها فقط لا يستطيع أحدٌ أن يقتلَ أحداً وهو يدَّعي غطاءً دينياً. الأمر الآخر هو دقَّة الكلمة، ودوماً فإن عدم التوقّف عند دقَّة الكلمات القرآنية، يودي إلى مفاهيم خاطئة، وأحياناً مُعاكسة تماماً للمَقصَد القرآني.

ف ﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ﴾، تختلف عن (واقتلوهم). فأنت عندما تقول: لقد قاتلتُ حتى حقَّقتُ هدفي. لا يعني ذلك بأنك قتلتَ، بل إنك جَهَدتَ وجاهدتَ ما باستطاعتك حتى بلغتَ هدفك.

ولذلك جاءت ﴿فَإِنِ﴾ مشترطة بـ ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾، أي أدَّى عقابكم لمُثيري الفِتَن إلى صلاحهم وتوبتهم وتعهّدهم بألّا يعودوا إلى ذلك، عند ذاك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

وفي ذلك إشارة إلى منحهم فرصة أن يصلحوا ما أفسدوه، وإطلاق سراحهم، وعبارة ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ تعني الأحياء، ولا تعني الأموات. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ بعد تلقِّي العقاب من خلال وسائل ﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ﴾، التأديبيَّة، وليست القتليَّة، لأنه لو جاء: (واقتلوهم)، لانتهت الآية عند: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾. لأن المقتول كيف له أن ينتهي، لكن المُعاقَب يمكن له أن ينتهي، ولهذا: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، بعد الاعتقال والتأديب، لأن الاعتقال يحدث على الأغلب من خلال المُداهَمة، والمُداهَمة لا

تكون للقتل، بل للتوقيف. وهذا مرتهن بـ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾. فلا نيَّة للحاكم أو القاضي أو المُداهِم في القتل، بل النيَّة في الحجر على الذي يحرِّض على القتل، لعلَّه يتوب. ولكن قد تنجم حالة قتل ما نتيجة المُداهَمة، ليس على مثيري الفتنة فقط، بل حتى على المُداهِمين أيضاً.

فبدأت الآيةُ بـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، أي تداهمونهم وأنتم على أتم الاستعداد للقتال، فلعلَّهم يُقاومون بالسلاح، وشيءٌ قريبٌ من هذا جاء في سورة البقرة ١٩٣ التي هي أيضاً مَدَنيَّة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾.

أمّا إذا استسلموا سلميَّاً، فيكون التأديب. ﴿فَإِنِ﴾ ندموا على ما بَدَرَ منهم وتعهَّدوا لكم بأنهم لن يعودوا إلى ذلك، وقد غُرِّرَ بهم، والآن ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾ ممّا كانوا فيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ صلاحاً، أو عودة إلى الفتنة، ﴿بَصِيرٞ﴾. فيشاء الله بعد ذلك ما يشاء بحقهم.

الباب الأربعون

ضبط النفس

[٤٠]

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

اعملوا بما يأمركم الله، ولا تتجاوزوا أوامره الواردة في الآية السابقة حتى ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، نكثوا بعهدهم معكم، رغم إفراجكم عنهم، فلا تبتدعوا أحكاماً من عندكم، ولا تتأوّلوا تأويلات، ولا تجتزؤوا آيات وكلمات الله، حتى تردّوا من منطق نعرات طائفية، أو مذهبية، أو مُعتَقَدية، فتكونون عند ذاك مثلهم، تزيدون الفتنة فتنة، وتواجهون الفتنة بمثلها.

وحينها تستفحل فيكم نيران الفتنة، فحتى تتجنّبوا ذلك، اتّبعوا إرشاد الله في الآية السابقة، وأن الله بيَّن لكم أنه ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فقبل أن ترونهم، فإن الله يراهم، فلا تنجرّوا خلف ردود الأفعال، والاحتقانات، والاستفزازات، فكل ذلك ليس للمؤمن، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ جيداً وكونوا على يقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾، يرشدكم إلى النِعَم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾. يرشدكم إلى النصر المؤزَّر إذا اتَّبعتم إرشاده.

الباب الواحد والأربعون
استحقاقات أموال الخزينة العامة

[٤١]

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾

مع هذه الآية الكريمة، ندخل إلى رحابة عالم آيةٍ مَفصّليةٍ، غنيّةٍ، تعليميّةٍ، إنسانيّةٍ، حقوقيّةٍ، تآلفيّةٍ.

آية تجعل قارئها يضع كل ثقته في القرآن، وبكل ثقل، حيث يسمو التشريع الإلهي فيها ويرتقي بالإنسان في بناء عائلةٍ بشريّةٍ مشتركةٍ، لا يشعر فيها كلُّ شخص إلّا وهو أخٌ للآخر، وما ينفع الآخر، ينفعه، وما يضر الآخر، يضرّه، مهما كان هذا الآخر، مهما كان معتقده، مهما كان لونه، مهما كان عرقه.

ما يهم هو أنه إنسان، وهذا لوحده يكفي كي يكون أحد أفراد هذه العائلة التي تدعو هذه الآية إلى تشكيلها.

فإذن، الآية منهجٌ إلهيٌّ لأجل حياةٍ بشريَّةٍ سعيدةٍ، طيّبةٍ، جميلةٍ، نافعةٍ، ممتعةٍ.

وأي انحرافٍ عن مسار هذا المنهج، يدفع الناس ثمنه الباهض، بكل ألوان وأشكال الخسارات الجسيمة الفادحة. فنحن مع هذه الآية الكريمة، نكون مع تأسيس دعائم جمهورية الإسلام الإنسانية الكبرى التي يعيش فيها الناس جميعاً بسلام، ورخاء، وأمان، بصرف النظر إن كانوا مسلمين، أو غير مسلمين، إن كانوا بهذا اللون، أو ذاك، بهذه القومية، أو تلك، بهذه اللغة، أو تلك، بهذه العقيدة، أو تلك. فَصِفَة الإنسانية لوحدها تؤهِّل صاحبها بالانتماء إلى هذه الجمهورية، ويتمتَّع بكامل حقوقه فيها، ويؤدِّي واجباته نحوها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾. الكلمة الأولى التي هي مفتاح الدخول إلى تفاصيل هذه الآية، هي كلمة مستنيرة، تعبق بين ثناياها كل مقوِّمات الاستنارة، فنور العلم، هو نقيض ظلمة الجهل.

اعلم، أي تخلَّص من كونك لا تعلم، والكلام موجَّهٌ للمسلمين لإرشادهم كيفية تأسيس دعائم هذه الجمهورية على قاعدة أن الله جل شأنه، ما أرسل خاتم أنبياء ورسل الإسلام ﴿إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم نأتي إلى أسباب رفاهية الناس ضمن الجمهورية، وحصول الناس على حقوقهم الماليَّة فيها، وعوامل رفاهيتهم، وتفعيل مشاعر الروح العائلية المشتركة فيهم.

والكلمة الثانية جاءت لمزيدٍ من التمهيد كي يتهيَّأ القارئ لِما يأتي من بيان الله، ﴿أَنَّمَا﴾.

وقد جاءت متَّصلة، وليست متفرِّقة (إن ما).

والفرق شاسعٌ بين الفصل والوصل في ﴿أَنَّ﴾ التي هي الأخت الكبرى لأخَواتِها، وبين ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة. فعندما تقول: (إن) فذلك يسبق قولك لشيءٍ (ما) تود قوله. ولكن ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ التي تَبَوَّأت بدء الكلام، جَعَلَتك تتهيَّأ أكثر لِما سيكون بعد ﴿أَنَّمَا﴾، لأنه كان يمكن الاستغناء عن ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وتبدأ الآيةُ بـ ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾.

فـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ هنا تجعلك تتأنّى شيئاً وتتهيَّأ وأنت تنتقل إلى الكلمة الثانية: ﴿أَنَّمَا﴾. فتتشوَّق للآتي: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾.

إذن البيان يخص المال، وهو مالٌ عامٌّ، أي المال الذي تضع الدولة يدها عليه، ويكون تحت تصرّفها.

وكلمة ﴿غَنِمۡتُم﴾، تشير إلى مالٍ أتى دون عمل، أي حصادٌ تحصده دون أن تكون زرعته، رصيدٌ تسحبه من المصرف دون أن تكون أودعته، فغنمت به.

إذن الكلامُ موجَّهٌ إلى الملوك، والأمراء، والرؤساء، أو أي شخصٍ يُصبح هذا المال تحت أمرته، فيكون الكلام موجَّهاً إليه شخصياً بصفته الاعتبارية.

فهذا المال العام، لا يجوز لأحدٍ أن يستأثر به لنفسه، أو يبتدع بشأنه أحكاماً دون حكم الله الوارد في الآية المفصلة لكيفية تصريف هذا المال، وللأولويات التي يُصرف هذا المال بموجبها.

فإذن، هو مالٌ يمكن أن تحصل عليه خزينة الدولة من حربٍ ما، ولهذه الحرب شروطها، وأَولى هذه الشروط، أن يكون المسلمون في ديارهم، فيتم شن حرب عليهم من أعداء الإسلام، ولا يجوز أن يكون أعداء الإسلام في ديارهم، فيشن المسلمون الحرب عليهم تحت أي ذريعةٍ كانت. أو يأتي هذا المال نتيجة صفقاتٍ سياسيةٍ شرعيةٍ سواء بين دولٍ إسلاميةٍ وإسلاميةٍ، أو إسلاميةٍ وغير إسلاميةٍ. أو يأتي على شكل هباتٍ من دولٍ إسلاميةٍ، أو غير إسلاميةٍ، لترسيخ مصالح مشتركة شرعية.

ثم كل ما من شأنه أن يُزيد خزينة الدولة مالاً بشكلٍ شرعيٍ، مثل المصانع، والمعامل، والمخابز، والشركات، والمؤسسات الحكومية المُنتِجة والمُربِحة.

فهذا كلّه يصبح تحت أمرة قائد الدولة وحاكمها، فإلى هؤلاء، وإلى مَن يفوّضونهم من الوزراء، ومَن يفوّضهم الوزراء من محافظين، ومَن يفوّضهم المحتفظون من مدراء، ومَن يفوّضهم المدراء من موظَّفين بأمرتهم وفق كل مستويات تحمّل مسؤولية هذه الأمانة المالية الثقيلة. فجاء مفتتح الآية بصيغة الخِطاب الجَماعي الشامل الذي لا استثناء فيه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ جميعاً يامَن قَبِلتم تحمّل هذه المسؤولية المالية، بأن هذا المال أصبَحَ أمانة الله في عهدتكم، ﴿وَ﴾ - على ذلك -: ﴿اعْلَمُواْ﴾، وخذوا أمر تصريفه من الله: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾، أي ﴿شَيۡءٖ﴾، كبيراً كان أو صغيراً، مالاً كان أو عقاراً، أو ذهباً، أو حيواناً، أو زرعاً، أو متاعاً، وما إلى ذلك مما له قيمة مادّية أو معنوية،: ﴿فَأَنَّ﴾ بجزمٍ وحسمٍ قاطِعَين -: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾. يُؤخَذ خُمس هذا المال ليُنفَق على الشعائر الدينية، من بناء مساجد، أو فرشها، أو

إنشاء مراكز تحفيظ القرآن، أو طباعة المصاحف، أو كتب الحديث، أو المؤلّفات الخاصة بعلوم القرآن والحديث. أو تخصيص قنوات متلفزة، أو محطّات إذاعية شرط أن تكون كاملة للقرآن والحديث، أو علومهما، دون أي دعاية تجارية، أو غير ذلك مما يمكن أن ينتفع به أشخاص، أو تنتفع أحزاب، أو جماعات، أو هيئات. لأن هذا الخُمس هو خالصٌ بتمامه وكماله لشعائر الله، بالدرجة الأولى في ذات الدولة، وإن زاد، في ديار المسلمين، وإن زاد في ديار غير المسلمين.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾. في عَهده، فإن الله أحلّ له أن يأخذ - ما نسمّيه في زماننا راتباً - من بيت مال المسلمين، أو ما نسمّيه في زماننا، خزينة الدولة. والمعنى قريبٌ من بيت مال المسلمين، فهذه الخزينة تعود منافعها إلى كل مَن هو في الدولة من عامة الناس، فتوفّر لهم المدارس والأساتذة، والمستشفيات، والأدوية، وسيارات الإسعاف، والإطفاء، ورجال الأمن، والقُضاة، وما إلى ذلك من الذين يقبضون الرواتب من خزانة الدولة، ولا ينتجون مالاً، بحكم عملهم الخَدَمي غير الإنتاجي، ولا يعود بمالٍ لهذه الخزانة.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. ما أُتيح لنا الاطلاع عليه من تفاسير من مختلف العصور، أجمَعَت بأن هؤلاء هم من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنها قصّرَت ﴿غَنِمْتُم﴾، على غنائم الحرب، وهذا استئنافٌ لمنهَج تلك التفاسير في تفسير هذه السورة الكريمة، حيث امتلأت هذه التفاسير بسفك الدماء، وقطع الرؤوس، والتمثيل بأعضاء غير المسلمين، مثل قطع أصابعهم، أو أياديهم، أو أرجلهم، وسلبهم أموالهم، بل حتى استباحة أعراضهم. وهذا ما لم يقله القرآن الذي نقرأه هذه القراءة الحديثة، وفق المُنجزات الكبرى الهائلة التي حقّقها الإنسان، وغالبية هذه المُنجزات التي يتمتّع بها المسلمون، لم ينجزها المسلمون، بل أنجزها غير المسلمين، سواء من اليهود، أو النصارى، أو الملحدين، وما إلى ذلك من عقائد مختلفة. ثم هذا الانفتاح الهائل بين شعوب الأرض، وهذه التقنيات الحديثة التي قرّبَت كثيراً بين الإنسان والإنسان. وبالتالي لا بدَّ أن ينتج من ذلك فهمٌ معاصرٌ

حديثٌ للقرآن، لأن هذه المُنجزات مهما عظمَت وكبرَت، فإنها لم تستطع أن تحيل القرآن إلى شيءٍ من الماضي، بل بَيَّنَت وأكَّدَت مدى حضور وتفاعل القرآن في نسيج هذه المُنجَزات، وأن القرآن هو بمثابة القلب النابض لكل هذه المُنجزات. فتبيَّنَت أمام المُنجِزين أنفسهم، وأمام العالم أن هذه المُنجَزات البشرية الكبرى، هي قراءة علميَّة عَمَليَّة حديثة لهذه العلوم التي كانت كامنة في القرآن، وهذه المُنجَزات ذاتها أفصَحَت عن هذه القراءة القرآنية العَمَليَّة الحديثة، وبالتالي لم يعد مجدياً أن نغلق أبوابنا ونوافذنا أمام العالم في وقتٍ أخَذَت المعارف والمُنجَزات البشريَّة تتلاقح مع بعضها البعض. فكان أن نَتَجَ عن ذلك إيمان شخصيَّاتٍ علميَّةٍ، وفكريَّةٍ، وأدبيَّةٍ، وفنِّية، من مختلف أنحاء العالم بالقرآن، وأشهروا إسلامَهم على المَلأ، بعد تاريخٍ من الإعراض عن الإسلام، فاستطاع القرآن أن يجلبهم للإسلام. وكان ذلك طبيعيَّاً لأن منجزاتهم ذاتها، هي التي وضَعَتهم أمام هذه القراءة العلميَّة للقرآن، فعادوا إلى الأصل القرآني، إلى المصحف ليؤمنوا بأنّه مُنزَلٌ من عند الله ليؤمنوا به، ويستمدّوا منه السَّكينة النفسية لأوّل مرةٍ، ويجعلوه منهاجاً لسائر مقوِّمات حياتهم. وتمخَّضَ عن ذلك أن الكثيرين تأثَّروا بهم، واقتدوا بهم، وحذوا حذوهم إلى هذا التنزيل الحكيم، لأن هؤلاء مشاهير، ولهم جماهير عريضة يتفاعلون معهم، ويثقون بهم.

وأمام هذه الحقائق الانتقالية الكبرى، لم يعد مجدياً أن يتم اتِّباع تلك التفاسير بقطع الرؤوس، وسلب الكفّار أموالهم، واستحلال نسائهم، والتمثيل بأبدانهم، أو تفخيخ سككهم الحديديَّة، أو تفجير متاجرهم، أو متنزَّهاتهم الآهلة بالناس الذين يستمتعون بالحياة فيها، أو خطفهم من ديار المسلمين عندما يحلّون سيَّاحاً.

ولكن ما تزال بعض الجماعات تعمل وفق تلك القراءات التفسيريَّة السابقة للقرآن، حتى لو كان بعضها يعود إلى ما هو أبعد من ألف سنة ماضية، بل حتى بعض المفسّرين الحديثين، يتحوَّلون فقط إلى مردِّدين لتلك التفاسير التي قِيلَت وفق ما كان مُتاحاً في ذاك الزمن.

فما عادت تلك القراءات صالحة لأبناء هذه الأجيال الجديدة، خاصَّة بعد حلول ثورة هذه المُنجَزات التقنيَّة الانتقاليّة الكبرى، التي قَرَأت القرآن قراءة جديدة، واكتشَفَت فيه ما لم يكن مُكتَشَفاً في السابق، وبالتالي تغيَّرَت بُنية العلاقة بين الإنسان والإنسان. فبعد أن كان المسلمون يُهيمنون على العالم بعلومهم، ومنجزاتهم، وآدابهم، واقتصادهم، وجيوشهم، وتقدّمهم، أصبَحَت غالبيَّة مقوّمات حياتهم تستَند إلى منجزات غير المسلمين، سواء التنقّلات، أو وسائل التواصل، أو الأدوية. فأصبح أي مقتدرٍ مسلمٍ، لا يثق بالعلاج في ديار المسلمين، بل يذهب ليلقى العلاج في بلاد غير إسلامية، بعد أن كان العالم يتلقَّى العلاج المجدي من المسلمين، بل حتى التقنيات، والأثاث، والثياب، ووسائل الركوب، وما إلى ذلك، تكون الأولويَّة والأفضليَّة فيها للمنتجات الغير إسلامية. والإجازات الجامعية في مختلف المجالات، يكون موثوقاً بها إذا كانت من جامعات غير إسلامية.

وفي الوقت الذي باتوا يتخلَّصون فيه من الأميَّة التقنيّة، تتفاقم أعداد الأميَّة التعليمية لدى المسلمين، فلبث المسلمون يفتكون ببعضهم البعض نتيجة المذاهب، والفرق، والأحزاب، فباتوا يبرعون في استخدام الأحزمة المتفجّرة، وبعض التركيبات الكيماوية، والغازات السامَّة، ليفتكوا ببعضهم البعض بشكلٍ جماعيٍ، والتهجير بشكلٍ جماعيٍ، فبات المسلمون يتوسَّلون إلى غير المسلمين لينقذوهم من الويلات التي يلحقها المسلمون بهم، ويقبلونهم لاجئين في ديارهم.

ورغم كل ذلك ما تزال تلك التفاسير معشعشة في مخيّلات البعض، مثل أن نهاية سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٧]. تعني أن ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ هم اليهود، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم النصارى. وهذا ما يجعل المسلم المُعاصر يعيش في تناقض، فكيف يثق بـ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، حتى في الإجازات الجامعية، وكيف يهرب من المسلمين، ويلمس العدل في بلاد ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. وكيف يكون جاراً لـ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. كيف يعمل معهم في دائرة، أو أي عمل آخر، بل يكيف يتزوَّج امرأة مغضوب عليها، سواء من

اليهـود، أو النـصارى، كيـف تكـون أم أبنائـه ضــالَّة، وكيـف يكـون أبنـاؤه أحفـاد ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، كيف لهم أخوال، وخالات من هؤلاء. والمفارقة أن القرآن يسمح له بالزواج منها، دون أن يرغمها كي تترك عقيدتها.

لذلك بدأ البعض يشعر بالازدواجية مع هذه التفاسير، والازدواجية لا تكمن في القرآن الذي هو كله مستقيم لا عوج فيه، ولكنه في هذه التفاسير عن القرآن.

فهـؤلاء يفتكـون ببعـضهم الـبعض، ويعتـدون علـى أعـراض بعـضهم الـبعض، ويخطفون أطفال بعضهم البعض، ويبيعون الناس في الأسواق، ويقطعون الرؤوس، ويشوِّهون الأجساد، ويسيؤون إلى كرامة الإنسان، ويزرعون الألغام في الطرقات.

وليتهم تركوا الناس في عذاب الدنيا فقط، بل حتى لو أراد مسلمٌ أن يذهب إلى بيت الله لينشرح صدره، وقد هرب من المعاناة، والحصار، ونقص كل مقوِّمات الحياة، والرعب، حتى يلمس ولو نصف ساعة من الصفاء بينه وبين ربه، فيرى الخطيب، يتوعَّده بأقسى ألوان العقاب في الآخرة، وما إلى ذلك من التهديد والوعيد بأشكال وألوان الانتقام منه.

فيخرج وقد اسودَّت الدنيا أمامه، وتحطَّمَت معنوياته، ولم يعد قادراً حتى على تدخين سيجارة واحدة مهما كان معتاداً على التدخين، لأنها تعرِّضه لغضب الله الشديد، وبذات الوقت يرى أن غالبية المسلمين يبيعون السجائر في محالِّهم. ولذلك بدأ البعض من المسلمين، يدعو إلى تخفيف المظاهر الإسلامية، وحذف المواد الإسلامية من المناهج، فكان أن أجَّج ذلك البعض الآخر، وبدأت مسألة التكفير.

والحقيقة فإن المسلم هو قويٌّ بالقرآن، بل العالم كله هو قويٌّ بالقرآن، والقرآن هو خير حَكَمَ بين الناس أجمعين، وهو الذي يهدي الناس جميعاً إلى صراطٍ مستقيمٍ. أمَّا تلك القراءات القديمة التي كانت منذ أف سنة، أو أقل، أو أكثر، ففيها ما هو مفيد، لكن وبحكم الزمن فليس كلها تصلح لكل الأزمنة، فيؤخَذ منها ما يصلح، ويُترك ما لا يصلح، لأنها ليست مؤلَّفات مقدَّسة، بل هي اجتهادات وفق

معطيات الواقع الذي كان فيه مؤلِّفوها، ولو أتينا بهم إلى هذا الزمن، وهذا الواقع، لغيَّروا في تفاسيرهم، وحذفوا منها كثيراً، وأضافوا إليها كثيراً.

وإلى جانب ذلك، فهذا من شأنه أن يعطي صورة سلبيَّة عن الإسلام لغير المسلمين، كون هذه الانتهاكات تظهر على وسائل الإعلام، وهنا وجد أولئك العباقرة من المشاهير الذين اعتنقوا الإسلام، وتحدَّثوا عن عدالة الإسلام، واقتدى بهم مَن اقتدى، أن يفصلوا بين التعاليم السامية للإسلام، وبين الأفعال الشائنة التي يرتكبها المسلمون نتيجة بعض العوامل، مثل التخلّف، والجهل، والفقر، والارتفاع المريع في نسبة الأميَّة، واستبداد الحُكَّام بهم، وما إلى ذلك. فكان ذلك من أكبر عوامل استمرارهم في نشر القيم والمبادئ والأخلاقيات والعلوم القرآنية، الأمر الذي لم يُزحزح ثقة الناس بهم، وباتوا يستنكرون الأعمال المشينة اللا إنسانية التي تصدر عن بعض أهل التطرّف من المسلمين. فهؤلاء هم قلَّة، وقد تطرَّفوا عن جوهر القرآن، وبالتالي سقط عنهم حق تمثيله.

إذن إنها جناية بعض التفاسير غير الصالحة التي تمخَّض عنها تراكمٌ فقهيٌّ غير صالح، فتمخَّضَت عنه فتاوى ضالَّة. فتكلَّل ذلك بوجود جماعاتٍ إسلاميةٍ ضالَّةٍ، تغذَّت بفتاوى ضالَّة، وبالتالي فَمَن يحمل في بَدَنه الضلال، لا بد أن يبحث عَمَّن يُفرِّغه فيه. فأصبح هناك ضحايا لهذا الضلال، سواء من المسلمين، أو غير المسلمين. سواء أكانوا نساءً، أو رجالاً، سواء أكانوا شيوخاً، أو أطفالاً، سواء في ديار المسلمين، أو غير المسلمين.

فما يهمّ هو تفريغ هذا الضلال بأي شكلٍ من الأشكال، وقد بات كالسمّ في البَدَن، فلا عجب أن ترى هؤلاء يتراكَمون على بعضهم البعض في أقبية هذه الجماعات، كلٌّ ينتظر دوره، كما لو أنه يقعد على لغمٍ موقوتٍ، فمتى يحين الدور، والوقت المناسب، والمكان المناسب الذي يكون التوجّه إليه للتخلّص من براثن هذا السم.

ولذلك ترى بعض هذه العمليّات تكون سريعة وفاشلة، ويتم إحباطها بسرعة دون سبق تخطيط، لأن المنفِّذ ما عاد يطيق صبراً، ليتخلَّص من كابوس الانتظار

وتداعياته المفزعة عليه ليلاً، ونهاراً، وساعةً، بساعةٍ. فلا يتم تنفيذ كثير من العمليَّات وفقما خُطِّطَ لها، أو أن المنفِّذ الملغوم، وفي ذروة لحظات المواجهة المُريعة تلك، قد تنتابه مشاعر إنسانيَّة ما، وهو يجول بنظره بين الأطفال والنساء، وإلى سائر الموجودين في مختلف أعمارهم، سواء في سوقٍ شعبيٍ، أو مَجمَعٍ رسميٍ، أو مسجدٍ، أو كنيسةٍ، أو مطعمٍ، أو حفلةٍ. فقد تكون لديه خلفيَّة معرفيَّة طيّبة، قد تكون لديه علاقة إنسانية حميمة مع شخصٍ ما، أو ما يزال يحتفظ ببعض المشاعر الإنسانية تجاه الآخرين، فتراه يتردَّد ويرتبك، حتى يتم إحباط العملية، أو يفجِّر نفسه قبل أن يصل إلى قلب الهدف، لأن كل تلك المشاعر الإنسانية التي استيقظَت للتو في ذروة تلك اللحظات الحاسِمة، قد حالت بينه وبين ذلك، وكأنه بذلك يريد أن يُعاقِب نفسه على هذا الانجرار.

فترى بأن عمليَّة ما قد أدَّت فقد إلى مقتل منفّذها، دون أن يُصاب أحدٌ بأذى، وما إلى ذلك من حالات متفرّعة واردة. ولذلك لا بدَّ من تعزيز سلوك القراءة في البيوت، خاصة بالنسبة للأطفال، القراءة المتنوِّعة التي تعزِّز وترسِّخ المشاعر الإنسانية لدى العائلة.

فالقرآن في المرتبة الأولى، والحديث في المرتبة الثانية، واختيار بعض الشروحات والتفاسير المستنيرة عن القرآن التي تُنتقى بعناية، لأنها مفيدة للغاية، وبعض الكتب الأدبية من مختلف أجناسها، ومتابعة بعض المجلّات والصحف الجيدة، بعض المسلسلات والأفلام النافعة، مما ينمّي المشاعر الإنسانية، وكل ما من شأنه أن يرسِّخ القيم والمبادئ والأخلاق وحب العمل والإنتاج والنجاح لدى أفراد العائلة.

فلا يكفي أن يأتي الأب بنقودٍ إلى البيت فقط، بل عليه أن يأتي بكتبٍ أيضاً، وعليه أن يجلس مع أبنائه، ويتحدَّث إليهم، ويسمعهم، ويعرف أين يكونون عندما يخرجون من البيت، يعرف مَن هم أصدقاؤهم. ودور الأم كذلك يكون فعّالاً خاصة بالنسبة للبنات، وكذلك بالنسبة للأبناء. فعلينا التمسّك بكتاب الله وسنّة رسوله، لأن ذلك وحده من شأنه أن يجنّبنا الضلال بكافة أشكاله وألوانه وتفرّعاته، ذلك أن

كتاب الله يبقى مفتوحاً لاكتشاف الجديد منه، وكلّما اكتُشِفَ فيه جديدٌ، تجدّد القرآن، وبالتالي لا بد أن تتجدّد قراءته وفق هذا المكتشَف الجديد، وعلى هذا النحو يلبث القرآن متجدّداً ومتضمّناً الجديد لتكون لكل جيل بشري جديد حصّته في جديد القرآن، دون أن ينفذ جديده، لكن بالمقابل على كل جيلٍ أن يسعى ويجدّ ليقرأه قراءة جديدة، وإلّا ستلبث قراءته مُكَرّرة، ويلبث في مفاهيم ذاك الماضي السحيق، وهو بذات الوقت يعيش تفاعلات الحاضر المختلف تماماً عن تفاعلات ذاك الماضي. ومن هنا يبدأ ينظر بسوداوية إلى واقعه، ويرى أن كل شيء بات فاسداً، ويشعر بيأسٍ في الإصلاح، وعلى قدر ما يرفض هذا الواقع، فإن هذا الواقع أيضاً يرفضه، بقدر ما يعيش في قطيعةٍ عن واقعه، فإن واقعه أيضاً يعيش في قطيعةٍ عنه. إذن، القرآن هو كتاب الواقع، في كل واقع، كتاب الساعة، في كل ساعة.

فما قاله المفسّرون كان هو الجديد الذي اكتشفوه، وذلك لا يلبث الجديد الذي لا جديد بعده، لأن ذلك يعني أن القرآن لم يعد فيه الجديد الذي يمكن اكتشافه. فالقرآن هو كتابُ الحياةِ الجديدة بكلٍ مقوّماتها وإشراقتها، كتاب تفاعلات الحاضر، في كلٍ حاضر، وكل مُنجَزٍ بشريٍ لا بدّ أن له جذره في القرآن. وهذا لا يتحقّق دون أن تقرأ الأجيال البشرية القرآن قراءاتٍ جديدةٍ، وتكتشف فيه علوماً جديدة، وتبيِّن بالأدلّة والثبوتيّات المرجعية القرآنية لكل ما تحقّقه الحضارة البشرية من منجزات. وإلّا سيلبثون على ما اكتُشِفَ في القرآن منذ عشرة قرون، أو أكثر، أو أقل، ويلبثوا يُراوحون في المكان على أرضيّة تلك المفاهيم التي قالها أولئك المفسّرون. وعندها يتراكم الغُبار على المصاحف في البيوت، والمساجد، والمكتبات، ولا تُفتَح إلّا في رمضان لبضعة أيام، أو بعض المناسبات. وهذه نتيجة طبيعية بالنسبة للذين يتّبعون ذاك المفهوم الشديد الضيق عن القرآن.

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾. إذن، ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، لا تقتصر على قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا يدخلون ضمن ذلك بمقتضى ظاهر الآية، عن أبي هريرة قال: (قدمت درة بنت أبي لهب إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إنّ الناس يصيحون بي ويقولون: إنّي بنت حطب النار، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغضب شديد الغضب، فقال: "ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي ألا ومن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله"). وقد حصل ذلك، حيث أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلّم، والآية لا تشترط الفقر، فحتى لو كان غنياً يكون له استحقاقه. عن جبير بن مطعم أنه قال: (أتيت أنا وعثمان بن عفّان رسول الله نكلّمه فيما قسم من الخمس بين بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله: قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً، وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال: "إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد"). لكن لعلّه يدخل ضمن ذلك الذين يُشاركون النبي صلى الله عليه وسلّم بناء دولة الإسلام، أو نشر الدعوة، أو الجهاد في مواجهة المعتدين، كما حصل في بدر، وهم صحابته رضوان الله عليهم. من هنا يجوز أن يكونوا ممّن شملهم ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي كانوا مقرَّبين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لماذا؟ لأن الحكم سيبقى مفتوحاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد صحابته رضوان الله عليهم. واستناداً إلى ذلك، يحصل المُقرَّبون من حاكم الدولة، والعاملون معه على هذا الاستحقاق المادي، نظير قيامهم بهذه الأعمال، حتى يؤمّنوا احتياجاتهم واحتياجات عيالهم، وألّا يأخذوا الصَّدَقة والزكاة ما داموا يقبضون الرواتب التي تقضي حاجاتهم.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، جاءت قسمة ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ بعد ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. وهذا بيانٌ بأن لـ ﴿الْيَتَامَى﴾ حقٌّ في هذا المال العام، ولذلك لم يُذكَروا في الزكاة، عندما ذكر الله ثمانية أصنافٍ من المستحقّين: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]. حتى تغنيهم - تلك القسمة التي أمَرَ بها الله استحقاقاً مشروعاً لهم - عن الزكاة والصدقات. فلهم رواتبهم من خزينة الدولة تنفيذاً لأمر الله، حتى لا تتداخل الأمور ببعضها،

فيُعطى بذلك استحقاقُ شخصٍ لشخصٍ آخرٍ غير مستحق، ذلك أن شرع الله سبحانه وتعالى، حكيمٌ ومنضبطٌ ودقيق. فذلك يجنّب اليتيم السؤال، أو ينتظر الزكاة، أو الصدقات، فقد عفاه الله من هذه المشاعر التي قد تنتابه عندما يمدّ يد السؤال، ولعلّه يقول: (لو لم أكن يتيماً لكنتُ في غِنى عن ذلك). فالله عز وجل، يخصص له قسمة تكفيه وتزيد عن كفايته. وإذا نظرنا إلى هذا التشريع الإلهي الحكيم، سنرى أن ذلك يكون لصالح عفاف المرأة الأرملة أيضاً، فلعلّها تكون صغيرة السن، وتريد تربية أطفالها دون أن تتزوّج، وتشعر بجرحٍ في مشاعرها عندما ينفق أشخاصٌ عليها وعلى أطفالها كزكاةٍ أو صدقات. ولعلّ ذلك يفتح باباً أمام بعض الداخلين إلى بيتها، ولعلّ بعض الذين يعطونها، يوسوس لهم الشيطان بوساوس ما. فهي صغيرة، ولعلّها جميلة، وبذات الوقت، جائعة ومحتاجة إلى أدنى مستلزمات المعيشة، أو حتى لا تجد مدفأة في الشتاء، أو دواءً لأطفالها، وما إلى ذلك مما قد يطرأ. ولعلّ ما تتلقّى من الزكاة أو الصدقة، لا يقضي احتياجاتها، أو تأتي بشكلٍ متقطّعٍ في فترات زمنية بعيدة، فتبقى عينها على السنة لتدور بسرعةٍ حتى تُحصّل ما يمكن أن يكفيها سنة كاملة. فقد نظر الله عز وجل، إلى ما يمكن أن تؤول إليه حالُ هذه المرأة الأرملة مع أطفالها، فعفاها من كل هذه المشاعر، وهذه الألوان والأشكال من الحاجة، ورفَعَ من شأنها ليجعلها مع أطفالها صاحبة راتب، وصاحبة حق بموجب القسمة التي خصّها الله بها، لتعيش حرّة كريمة. والآية تحذّر من الإخلال بالحكمة التي يكون عليها هذا التشريع الإلهي تحت أي ذريعة كانت، لأن هذا الإخلال ينجم عنه الإخلال، كما أن الانضباط، ينجم عنه الانضباط. فقد أكرم الله تعالى الأرملة وأطفالها بهذه القسمة، حتى لا يطرق بابها مَن في قلبه مرض، ولا تطرق باب مَن في قلبه مرض، وتعيش مستورة، عفيفة، مستغنية، وهي تربّي أطفالها.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، جاءَ المسكينُ هنا رغم أنه وَرَدَ في الزكاة، فلماذا وَرَدَ المسكينُ مرتَين، ولم يرد الفقير رغم أنه كان أول المُستَحقين في آية الزكاة؟ المسكين، هو الفقير الدرويش المغلوب على أمره، إنه محتاجٌ من ناحية، وبه دروشة من ناحية أخرى، وإضافة إلى ذلك فهو يسأل، يبيِّن حاجته ويُظهرها، ويطلب المساعدة. لكن

الفقير الذي جاء ذكره في المرتبة الأولى في بيان الزكاة والصدقات، هو نقيض ذلك، فهو محتاجٌ، لكنه عزيز النفس، ويخفي حاجته، ويُظهر أن أموره جيدة حتى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. فالمسكين هو محتاجٌ بالفعل، وهو فقيرٌ، وهو مستَحقٌ، لأنه يسعى إلى تلبية حاجته المعيشية الضرورية، ولا يسعى إلى الاستكثار، كما الأمر بالنسبة لبعض الذين يمتهنون التسوّل. فقد جَعَله الله مستحقاً مرتين، مرة من الزكاة والصدقات، من خلال المزكّين والمتصدّقين، ومرة من خزينة الدولة، من خلال الذين يمتلكون صلاحيات أوامر الصرف، فيأمرهم الله ألّا يردّوه إذا جاء سائلاً، وأن يصرفوا له قسمته من ميزانية الوزارة، أو المحافظة، أو المؤسَّسة، أو ما شابه.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، ﴿السَّبِيلِ﴾ هو الطريق، و﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، هو الذي يكون كثير التواجد على الطرقات، وقد يتعرّض لبعض الطوارئ، مثل أن يفقد محفظته التي تحتوي على نقوده، أو يتعرّض لمرضٍ مفاجئ، فيستنفد العلاج ما بحوزته من نقود، أو ينقطع عن المال، ولا يملك ما يعود به إلى البيت. فـ ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، هو ذاك الشخص الذي جاء من مدينةٍ إلى أخرى، أو من دولةٍ إلى أخرى، وبغتةً وجد نفسه مقطوعاً من النقود، لا يملك أن يأكل أو يشرب، أو ينام، أو أجر العودة إلى بيته. وهذه حالاتٌ نادرة، لذلك جاء الجَمعُ بصفة المُفرَد، واقتصر المفرد عليهم وحدهم دون غيرهم من المذكورين. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، أي أبناء السبل في كل زمان ومكان، وجاء مفتوحاً دون اشتراط، فلا يُشتَرَط أن يكون من عقيدةٍ ما، أو لغةٍ ما، أو عرقٍ ما، أو ديارٍ ما. فـ ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ في بلاد المسلمين له هذا الاستحقاق، سواء أكان مسلماً، أو يهودياً، أو نصرانياً، أو أي عقيدةٍ كان عليها، فهذه حالة إنسانية امتيازية خاصة في ديار المسلمين دون أي اعتبارٍ آخر. وإذا كان ذلك يحدث في العهود الماضية بسبب صعوبة وبطء وسائل الاتصال بين المقطوع في غربة، وبين أهله، أو معارفه، وقد انتفع من هذه القسمة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ بأعدادٍ

هائلةٍ خلال كل تلك القرون الماضية. لكن وفي زماننا أصبح ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ نادراً بسبب تيسير التواصل بين الناس مهما كانوا بعيدين عن بعضهم البعض، ويمكن تحويل الأموال مهما كانت المسافات بعيدة، ويتم استلامها في غضون دقائق معدودة. لكن لا شيء لا لزوم له في القرآن، والحالة تبقى قائمة وممكنة، فيمكن أن يخرج شخصٌ من بيته باحثاً عن عمل أو علاج، أو مصلحة ما، وفجأة تنفد نقوده في الغربة ولا يملك ما يعود به إلى أهله، ثم إنه لا يجد أحداً يرسل له شيئاً، فعندها يجد قسمته في ميزانية المدينة التي يكون فيها، من خلال بعض الدوائر، فيصرف له آمر الصرف هذا الاستحقاق، ولذلك يتم تخصيص شيءٍ للصرفيّات الطارئة ضمن الميزانية السنوية للمدن ودوائرها الحكومية. فقد حفظ الله تعالى لهذا المقطوع حقه، وأودعه كأمانة في خزينة الدولة، وذلك يجنّبه السؤال الذي قد يُعرّضه للحَرَج. ثم إن الله قد خصّه باستحقاقٍ آخرٍ في الزكاة، فيمكن له أن يطلب استحقاقه الشرعي الذي كذلك أودعه الله تعالى له أمانةً في أموال المُزكّين، كما يجوز للمتصدّق أيضاً أن يعطيه الصَدَقة. وهذا من شأنه أن يمتّن أواصر المشاعر الإنسانية لدى الناس جميعاً في أي بلدٍ إسلامي، بصرف النظر عن أي اعتبارٍ آخر سوى اعتبار الأخوّة الإنسانية. وأمرٌ آخر وهو أن ذلك لا يقتصر على الرجال فحسب، كونه جاء بصيغة المُذكَّر، بل يشمل كذلك كل امرأة دون استثناء عندما تُصبح في ظرفٍ ما ابنة سبيل، فترى حقوقها المشروعة هذه، فتستردّها دون منّةٍ من أحد.

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فهل حقاً ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فـ ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ حقاً ﴿بِٱللَّهِ﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿ءَامَنتُم﴾ بـ ﴿مَا أَنزَلۡنَا﴾ من مؤازرةٍ ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ محمّد، ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ اليوم الذي وقعت فيه معركة بدر. و﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ من أسماء القرآن، وبذلك فإن ﴿يَوۡمَ﴾ بدر بكل ما وقع فيه من معجزات، كان ﴿يَوۡمَ﴾ القرآن بامتياز. حيث كانت المواجهة بين الله سبحانه وتعالى، وبين أقطاب الشرك والكفر، فكان النصر لله جلّت قدرته، ولم يكن للمسلمين، لأنهم ما كانوا مؤهّلين لهذا النصر بأي حالٍ من أحوال الوقع الذي كانوا عليه. ولذلك أخبر الله تبارك وتعالى، بأن هذا النصر هو نصره. و﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ هذا قد أحدَثَ انشقاقاً عظيماً في صفوف

المشركين، فقد أصابهم الذهول من الذي حدث، فكان انكساراً عسكرياً وانكساراً معنوياً. فقد تجلّت لهم الحقيقة بكل سطوعها، لأنهم يؤمنون بالله، وقد اتّجه قائدهم أبو جهل بالدعاء إلى الله لينصرهم، ولديهم اعتقادٌ بأنّهم على حق، وأن محمّداً صلى الله عليه وسلّم ليس على حق، ويدّعي النبوّة. لكن الخلاف بين الإيمانَين، أنهم يُشركون مع الله آلهة، في حين إن دعوة محمدّ صلى الله عليه وسلّم هي توحيدية، متّبعاً كتاب الله الذي يتنزّل عليه، ويبيّن له الحق. فبدأ الصِّدامُ بين الإيمانَين، ويوماً بعد يومٍ يزداد تَصاعُداً وشدّةً، حتى بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مرحلةً لم يعد فيها قادراً على البقاء والمواجهة، بعد ثلاث عشرة سنة من الصراع، ونزول ما يزيد عن ثلاثة أرباع التنزيل الحكيم على أرض مكّة، فكان اللجوء الذي عُرِفَ بالهجرة النبوّية إلى (يثرب) التي سيغيّر النبي صلى الله عليه وسلّم اسمها إلى (المدينة). وسوف يتواصل ما تبقّى من التنزيل الحكيم بالنزول عليه وهو في المدينة، بما بات يُسمّى بالآيات المدنية، وما أُنزِل في مكّة، سوف يُسمّى بالآيات المكّية، ويتكامل التنزيل إلى آخر آية في المدينة إلى اليوم الذي يُبشّر به الله تعالى الناس: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. فقد تكامل دين الله كلّه منذ آدم، بالقرآن. ولذلك يبقى القرآن محفوظاً في عناية الله دون أن يأذن لأحدٍ بتحريفه، لأن لا كتاب سيأتي لتصحيحه، ولا نبي سيأتي بكتابٍ جديدٍ لبيان الحق. ولذلك وقع التحريف فيما سبق، وقد أذن الله بهذا التحريف، لأن هناك ما سيأتي، ويبيّن الحق.

وهي آياتٌ مَدَنيَّة لا لأنها أُنزِلَت في المدينة فحسب، بل لخصائص باتت تمتاز بها هذه الآيات في نَص الأحكام والشرائع، بعد أن رَسَّخَت الآيات المكّية قواعد وثبوتيّات الإيمان. أي هي دعوة بِدائيّة إلى الإيمان، وبعد أن تَفاعَلَت هذه الدعوة في الناس واستجاب لها مَن استجاب، عندها تم بيان الحلال والحرام لأشخاصٍ أصبحوا مؤمنين على أرض الواقع لأول مرّة بهذه الآيات القرآنية. وعلى ذلك بدأت الأحكام والتشريعات بالتدرّج حتى أكمل الله تعالى للمسلمين دينهم، وأتمّ عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً. فما عاد المَدَني ملتزماً بالموقع الذي يكون فيه متلقّي الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقت التنزيل، بل بالخصائص التي

يمتاز بها عن المكّي، فأصبح بإمكانك أن تُقسّم التنزيل إلى قسمين: القسم التأسيسي لقواعد الإيمان بالنسبة للآيات المكّية، والقسم التشريعي للتفاعل مع هذا الإيمان بالنسبة للآيات المَدَنيَّة. فأينما كان الموقع الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعتباراً من اليوم الأول للهجرة إلى المدينة، فقد أصبح مَدَنياً. وقد حصل بعد فتح مكّة وعودة النبي إليها، أن أُنزِلَ شيءٌ من القرآن عليه، فذلك أيضاً يُعدّ مَدَنياً رغم أن النبي تلقّاه وهو في جوف الكعبة.

فذاك اليوم كان علامة فارقة لبيان الفرق بين الشرك، والتوحيد، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء التوحيد الذي دعا به رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا بذاته من شأنه أن يُزيح الشكوك حتى من قلوب بعض المؤمنين الذين كانوا يتردّدون في مواجهة جيش المشركين القادم إليهم، فكان يوماً فارقاً بامتياز، حتى أسماه الله عز وجل ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾. عن رِفاعَةَ الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي" فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ"[(١)]. وإذا نظرنا إلى تاريخ نزول

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) وأحمد (١٥٠٦٦) والحاكم (١٨٦٨) والطبراني في الكبير (٤٥٤٩).

القرآن، نرى بأنه توافَقَ مع ذات اليوم الذي وقعت فيه معركة بدر، فقد بدأ نزول القرآن يوم السابع عشر من رمضان، ووقعت معركة بدر أيضاً في السابع عشر من رمضان.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، أي﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ الذي ﴿ٱلْتَقَى﴾ فيه جَمعُ المسلمين بقيادة محمّد رسول الله صلى الله عليه وسم، الذي يؤمن بالله على قاعدة التوحيد، وأن محمّداً هو رسول الله، وأن القرآن هو من عند الله عز وجل، بِجَمعِ مشركي مكّة بقيادة أبي جهل، المؤمن بالله كذلك، لكن على قاعدة شركية، وكذلك عدم الإيمان برسوليّة محمّد صلى الله عليه وسلم، وعدم الإيمان بأن القرآن هو من عند الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهنا تَنبيهٌ مُستَقبَليٌ للناسِ فيما بعد، فكما أن الله قَدِرَ على كل تلك المعجزات، فإنه قادرٌ عليها في أي زمانٍ ومكان: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. فإذن على إيمانكم هذا أن يقودكم إلى تطبيق شرع الله في المال العام وفق ما نَصّ الله، في الحال ودون تباطؤ أو ذرائع: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وإن انحرفتم عن ذلك قيد شعرةٍ، فإن ذلك ينال من صدق إيمانكم ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. وكذلك ينال من صدق إيمانكم بقدرة الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، في أي زمانٍ ومكان.

وبذلك يتجلّى لك بأن دولة الإسلام الواقعية التي أرست دعائمها الآيات القرآنية، لا أحد يتسوّل فيها، ولا أحد يسرق، ولا أحد يعتدي على عرض أحد، لأن كل ساكنٍ من سكّان هذه الدولة قد اكتفى بِما مَنَحَته هذه الدولة من حقوقه. أمّا إذا رأيتَ الطُّرقات تكتظ بالمتسوّلين، والسرّاق، والزناة، فاعلم بأن خللاً يحدث في تطبيق شريعة القرآن، وهذا الخلل ينتجم عنه ذاك الخلل الاجتماعي. وأن الذي يتسبّب في إحداث هذا الشرخ في الشريعة العادلة، مهما كانت درجات مسؤوليّته،

فإن ذلك ينال من إيمانه بالله وما أنزل على عبده ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. فإذا تمّ توزيع لحوم الأضحيات بشكلٍ معتدلٍ، سوف يشبع الفقراء لحماً، لأن كل بيت سينال كَمّاً من اللحم يحتفظ به في ثلّاجة البيت، وقد يستخدمه نحو ستة شهور، ولا تجد عائلة واحدة تقيم في بيت بالإيجار، ولا تجد عائلة لا تملك على الأقل نفقات شهرٍ قادم. وعندها سترى الناس في مواسم الزكاة والصدقات يحملون أكياساً مثقلة بالأموال، وهم يجوبون الطرقات، ويطرقون الأبواب بحثاً عن فقيرٍ يمكن لهم أن يعطوه. فيعتذر الكثيرون من الأخذ، ويقولون بأن لديهم الذي لا يجدون مَن يعطونه. وعندما تبقى هذه الأموال عند أصحابها، فإنهم ينشؤون جمعيّاتٍ خيرية، يخصّصون فيها رواتب شهرية للفقراء، وبين حينٍ وآخر يزوّدونهم بِسلعٍ، وثيابٍ، وأدوات منزليّة، ويحدث أن يشتروا بيتاً لِمَن لا يملك بيتاً، أو يزوّجوا شخصاً لا يملك الصِّداق، وما إلى ذلك من أشكال وألوان التآزر الاجتماعي.

الباب الثاني والأربعون

وعد الله

[٤٢]

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

مدخل هذه الآية جاء على شكلٍ تذكيري، لِتَذَكُّر ما قد سبق، وربطه بالحاضر، فلا تكن ابن الحاضر فقط، سواء أكان هذا الحاضر سلباً، أو إيجاباً. فدوماً عدّ إلى ما قد مضى وتذكَّر أفضال الله عليك، واربط ذلك بالحاضر الذي أنت فيه، واستشرف من ذلك معالم المستقبل. وهذه التذكرة بذاتها تعزّز لديك قاعدة حُسن الظن بالله، وفي تُربة هذه القاعدة تزدهر زهور الأمل، والتفاؤل، وصفاء الذهن، وانشراح الصدر، والاعتدال. فالله جل شأنه، لديه كل ما تريد، وكل ما لا يخطر لك أن تريد، ولا شيء قط إلّا ويخضع لمشيئة الله ويأتمر بأمره. فدوماً ثمّة زيادة عن حاجتك، وعَمّا يمكن أن تذهب إليه أمنياتك، ولذلك أن ما كنت تسأل الله أن يحقّقه لك، كان قليلاً جداً، قياساً بالزيادة التي لم تكن تخطر لك، وقد زادك الله بها كَرَماً منه.

﴿إِذْ﴾ الظرفيّة هنا تعيدك إلى الزخم الذي وقع ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ﴾ في الآية السابقة، وكذلك من حيثيّات ذلك اليوم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وهذا مرتبطٌ بشكلٍ ظرفيٍ بـ ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾. فتذكّروا جيداً: ﴿يَوْمَ الْتَقَى﴾ جمعُكُم القليل، بجمع المشركين الكثير، عند ذاك: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾. وجاءت ﴿أَنتُم﴾ دون (كنتم) رغم أن الحَدَث عن نزول الآية أصبح ماضياً، وهم كانوا على ذلك، والآيةُ تَصف ما قد جرى في بدر. لكن ﴿أَنتُم﴾، تقرّب المسافة، وتجعل تذكّر ما قد وقع أكثر قرباً، فتخيّلوا ذاك الماضي بتفاصيله وعيشوه كما لو ﴿أَنتُم﴾ فيه الآن. وهذا الكلام يبقى مفتوحاً أمام الناس عامة لتذكّر نِعَم الله السابقة عليهم، فكم من محنةٍ غلبكَ الله عليها، كم خطرٍ أنقذك الله منه، كم شخصٍ أراد بك أذىً، فنجّاك الله، وكل ما لقيته كان بأعجوبةٍ وبشكلٍ غير مألوف. فاعلم أن ذلك قد حصل بتدخّل إلهي خاص واستثنائي، لأن كل المُعطَيات التي كانت مُتاحة أمامك، لم تكن لتؤهّلك إلى هذه النتيجة المذهلة، وما تذكرة الآية، هو أنموذجٌ لجوهر العلاقة بين الإنسان وربه.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾. يومها: كنتم ﴿أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ﴾ بالضفّةِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ القريبة على مشارف وادي بدر. ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ البعيدة عن الوادي، لأنهم قدموا من مكّة، ووادي بدر هو بعيدٌ عنهم قياساً بقربه من المدينة، فكانوا عندما أصبح المسلمون ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، من الدنو أي: القرب، أصبحوا هم ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾، من القصو، أي: البعد.

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ القافلة التجارية القادمة من الشام ويقودها أبو سفيان بن حرب مع أربعين رجلٍ ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ في منخفض الوادي، لأن أبا سفيان عندما عَلِمَ بقدوم المسلمين إلى القافلة، غيّر الوجهة وأصبح في الأسفل. فإذن أصبح الموضع الذي كان فيه المشركون، قاصياً، بعيداً عن المسلمين، لكنه مكانٌ يتوفّر فيه الماء، فأصبح أمام المسلمين أن يُسارعوا ما استطاعوا حتى يتخلّصوا من الطريق الرملي المُعيق، وكذلك حتى يحصلوا على حاجتهم من الماء. في حين أن جيش المشركين الذي كان على أرض ﴿الْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ مزوّدٌ بكلِ الاحتياجات من طعامٍ وشراب، وكانوا عند الحرب يأتون مع أموالهم وما يملكون من أشياءٍ نفيسة، وكذلك مع نسائهم ويجعلون ذلك في الرتل الخلفي لهم، حتى يتشجّعوا أكثر

للحرب، ويبذلوا ما باستطاعتهم حتى يتركوا نساءهم وممتلكاتهم التي معهم، وهذا كله إضافةً إلى سهولة الطريق وتوفّر الماء.

الآية كما نرى، وصفيّة ترسم المشهد، جيش المسلمين يقف على مشارف الوادي، وجيش المشركين يتقدم إليهم من بعيد، وقافلة التجارة غيّرَت مسارها عندما عَلِمَ قائدها أبو سفيان بقدوم المسلمين، ثم أرسل إلى مكّة بشكلٍ عاجل لأخذ العِلم بالطارئ الذي وقع، وطلباً للمؤازرة، فكان قدوم الجيش وقد خطّط قائده أبو جهل للقضاء على المسلمين الذين بالأصل لم يقدموا لخوض الحرب، ولم يتجهّزوا لها، بل كانوا يـ ﴿وَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ﴾ لهم. ولكن هنا، ما الذي كان من شأنه أن يحصل لو ذهبوا إلى ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي: إلى القافلة التجارية الخالية من شوكة الحرب التي يُمكن أن يُشاكوا بها؟ كانوا سيقعون فريسةً بين ما يمكن للأربعين شخصاً أن يُقاوموا، وفي ذروة انهماكهم بذلك، كان سيقدم إليهم جيش المشركين الذي كان ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، ويجهز عليهم في الوادي.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي ﴿لَوْ﴾ حصل بينكم وبينهم اتفاقٌ على موعدٍ مُحَدَّدٍ لبدء الحرب، لوقعَ خلافٌ بينكم، وما حصلت هذه المواجهة وفق هذه المُعطَيات على أرض الواقع. فكل شيءٍ بدأ يظهر في سيرورة الأحداث ساعة بساعة بشكلٍ مفاجئٍ وخارق للطبيعة البشريّة، وقد أخذت هذه الأحداث الغريبة تُذهل الكفّار والمسلمين معاً، فما يحدث هو أمرٌ غير طبيعي وغير اعتيادي. هكذا وبشكلٍ مفاجئ انقَلَبَت كل الموازين، فأنزل الله سبحانه وتعالى مطراً جعل الرمال تتماسك مع بعضها البعض، ليُصبح الطريق سالكاً بيسر، وقد توافرت المياه من غزارة المطر. أما في الطرف الآخر فقد انقلب كذلك كل شيءٍ إلى ضدّه، فالمطر الغزير جعل الطريق الترابي السهل وعراً بسبب تراكم الوحول. وهذا أدّى إلى نتيجتَين، الأولى: سرعة المسلمين في التقدّم نحو المشركين، وبطء المشركين في التقدّم، حتى ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ ووقعت المواجهة بينهما، وتَشابَكا مع بعضهما البعض، ثم بدأت المعجزات تتوالى، مثل نزول الملائكة، ورمية الله سبحانه وتعالى

من خلال الرسول صلى الله عليه وسلم، وما إلى ذلك. ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ليجعل ﴿اللَّهُ أَمْرًا﴾ يتحقق على أرض الواقع، وتظهر فعاليته، وتكون هذه الفعالية أنموذجاً أمام الناس جميعاً فيما بعد. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، وهو يعلم الأسباب التي يسلكها وتؤدّي إلى هلاكه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، وتبقى أبواب الحياة مفتوحة أمام الناس ليؤمن مَن يؤمن، ويعرض مَن يعرض. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾. يسمع الله كل كلمة تقولونها، ويعلم كل فعل تفعلونه.

الباب الثالث والأربعون
مكرمة الرؤيا

[٤٣]

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾

جاءت الـ ﴿إِذۡ﴾ مرة ثانية في مستهل هذه الآية، وهذا معناه أن السياق ما زال فيه بقية، فإضافة إلى ما وَرَدَ في الآية السابقة من باب الذكرى وعدم النسيان: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾. وهذا إخبارٌ من الله تعالى، كيف أنه يجعل الأسباب التي تتحقّق من خلالها مشيئتُه، فإذا أراد شيئاً، أوجَدَ له سَبَباً يفضي إلى تحقيقه. فالآن أرى الله عز وجل، رسوله في منامه قلّة أعداد المشركين. وهذا من شأنه أن يرفع من عزيمة ومعنويات الرسول من جهة، وكذلك يرفع من عزيمة ومعنويات أصحابه. ولذلك صَرَّحَ بهذه الرؤيا للصحابة على شكل بشارة مؤكّدة، فقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم: "ابشروا لقد نظرتُ إلى مصارع القوم". وقد صَدّقه الصحابة رضوان الله عليهم، وهم يعلمون ويؤمنون بأن رؤيا الأنبياء حق. وفي ذلك جاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان لا يرى رؤيا إلّا وجاءت مثل فلق الصبح). ومن فضل الله على الناس أنه جعل الرؤيا لا تقتصر على الأنبياء فقط، بل تشمل سائر أهل الصلاح في كل زمانٍ ومكان، فَبِكَراماتٍ لهم من الله تعالى، يُطلعهم على شيءٍ من الغَيب الذي لم يقع بعد، ولكنه سيقع حكماً، ولا أحد يعلم بوقوعه سوى الله تعالى، ثم هذا الشخص. عَن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ"(١).

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٩) ومسلم (٢٢٦٣).

والرؤيا حقٌّ، والحق دوماً يكمن فيه الخير، فكل رؤيا هي كَرامة من الله للإنسان، فهي إمّا أن تحمل إليه الخير، أو تجنّبه الأذى، وهي غير الحلم. عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره"(١). وعن أبي سلمة قال: "إن كنت لأرى الرؤيا تمرضني قال: فلقيت أبا قتادة، فقال وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: "الرؤيا الصالحة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره"(٢). والشيطان لا يمكن له أن يتمثّل النبي صلى الله عليه وسلم. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي"(٣).

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يتحدّث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنه في دار عقبة بن رافع فأتينا برطب من رطب بن طاب فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة وأن ديننا قد طاب"(٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إلي في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء والآخر مسيلمة صاحب اليمامة"(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٦١).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٦١).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٦٦).

(٤) صحيح مسلم (٢٢٧٠).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٧٤).

وإذا نظرتَ إلى مؤلّفات تفسير الأحلام، سترى أن المفسّرين سواء من المسلمين، أو غير المسلمين، اشتَغَلوا على هذا الجانب، وقراءة هذه المؤلّفات من منطلقٍ قرآني، ستبيِّن لك كيف أن هؤلاء مَيَّزوا بين الحلم والرؤيا، رغم أن بعض هؤلاء غير مسلم، أو ملحد. فتعلم أن لا حقيقة سوى هذه الحقيقة القرآنية التي أمكنهم الوصول إليها. ففي هذه المؤلّفات، ليس كل ما يراه النائم في نومه، يمكن تحقّقه عندما يستيقظ، بل هناك ما يراه النائم وفق مزايا مُحَدّدة، يمكن تحقيقه. ولذلك نرى قارئ القرآن يمكنه أن يقرأ هذه المؤلّفات قراءة أكثر نضجاً ووعياً واستيعاباً، لأنه يُحيل هذه المُكتَشَفات العلميّة إلى القرآن، ليرى جذورها كامنة بين صفحاته. وهذا يُقاس على سائر ما يراه قارئ القرآن الماهر مِمّا يحصل مِن حَوله، فيستمدّ من ذلك توازنه، ويزداد القرآن حلاوة بالنسبة لحاسّة ذوقه المعرفية. ولكن لماذا: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؟ يكمن الجواب في الجملة التي تليها، لأن: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ عند ذاك ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾. الفشل، هو الإخفاق في إتمام شيءٍ شَرَعتَ به، إذن لفشلوا في التقدّم والموجهة مع جيش المشركين الذين كانوا سيتقدّمون إليهم. فهم بدل أن يتقدّموا، سيتراجعون إلى الخلف حيث المدينة، وجيش المشركين يتقدّم إليهم. ولم تكن الأمور تقتصر على الفشل فحسب، بل إلى التنازع بين المسلمين أنفسهم أيضاً: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. وكانت قد حدثت خلافات بين المسلمين على المواجهة، لأن البعض من الصحابة قالوا بأنهم لم يتجهّزوا للحرب مع ما يزيد عن ألف مقاتل متمرّس من المشركين، بل أتوا لهدفٍ واحدٍ وهو اعتراض القافلة التجارية. لكن هذه الخلافات لم تبلغ حدّ التنازع، وكان من شأن ما أراه الله سبحانه وتعالى لرسوله أن يُصلح هذه الخلافات قبل أن تتصاعد إلى مرحلة التنازع. فالآن وبعد الانتهاء من المعركة، قد أعادتهم، كما أعادتنا الآيةُ إلى الوراء، أي قبل نشوب المواجهة، وهذا ما يُسمّى في تقنية العمل الروائي الحديثة بـ (الخطف خلفاً). حيث بيَّن الله تعالى ذكره، سبب ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، لبيان: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. و﴿ٱلْأَمْرِ﴾

يعني القرار الذي تجمعون عليه لاتّخاذ موقف المواجهة. تستأنف الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عفاكم وسلّمكم منه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾. عِلمُ الله بما كانت ستؤول إليه الأمور لولا هذا الإجراء الإلهي الذي تَمَخَّضَ عنه النصر المؤزَّر في بدر بأعجوبة. لماذا؟ لأن القِتال في بدر لم يكن بين المسلمين وبين المشركين، بل بين الله عز وجل، وبين المشركين، وبذلك خَرَجَت المجريات عن طبيعتها المألوفة، فأصبح هناك ملائكة مدّ الله المسلمين بهم، والرمية التي رمى بها الرسول صلى الله عليه وسلّم، وفعلت ما لم تفعله الرمية الطبيعية بأي حالٍ من الأحوال، وهطول المطر المفاجئ، والرؤيا، وما إلى ذلك ليتكلّل هذا كلّه بنصر الله، وليس نصر المسلمين، وقد نسب الله هذا النصر إلى ذاته سبحانه وتعالى، بلفظ الجلالة المُباشَر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾.

فاعلموا يا مَن تقرؤون هذا القرآن، أن الله له كَرامات، وله مؤازرات في كل زمانٍ ومكان، فتعرّضوا لهذه الكَرامات وهذه المؤازرات. جاءت خاتمةُ الآية جليّة وداعية إلى هذا التعرّض: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. و﴿بِذَاتِ﴾ تأنيث لـ (ذو)، أحد الأسماء الخمسة ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، يعني دقائق وتفاصيل ما يختلج في القلوب التي تكمن في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾. وهذا علمٌ مستقبليٌ مفتوح ليعلم الناس بأن الله يعلم ما يختلج في قلوبهم، لأن الإنسان يمكن له أن يُظهر نقيض ما يختلج في قلبه. وهذا ما يجنّب المسلم متاهات وتداعيّات الفِصام، والشَّتات الذهني، ويجعله طبيعياً وحقيقياً في أقواله وأفعاله، وهذا هو الإنسان الطيب الجميل الذي يصنعه القرآن.

الباب الرابع والأربعون

أسباب الله في قضاء أمره

[٤٤]

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

الآن أصبحنا في وجهٍ آخرٍ من النَّظَر، وقد اختلَفَ الخِطابُ مِن صِيغةِ المُفرَد إلى صِيغةِ الجَمع. فالخِطابُ موجّهٌ لجميع المسلمين المشاركين في المعركة التي ستقع بعد لحظاتٍ، حيث غدا كلُ جيشٍ يرى الآخر رأي العين، والمسافةُ تقترب لحظة بلحظة ليصطدم الجيشان ببعضهما البعض، وتقع المواجَهة العَمَليّة.

في ذروة هذه اللحظات، وقد وقَعَت المواجهة بالفعل الآن، تأتي مؤازرة الله الأخرى إضافة إلى ما تم ذكره من ألوان المؤازرة، ﴿وَ﴾ - الآن ومع اللحظات الأولى من اللقاء -: ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾. وهي رؤية يقظة، لا رؤيا منام، وهي لجميع المسلمين المشاركين، وليس لشخصٍ واحد، أو أشخاصٍ دون غيرهم. ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾، يجعلكم ترونهم ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾. وانظر إلى الخلاف الذي حَدَثَ بين الرؤيَتَين في الآيتين المُتتاليتَين: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، في الآية الأولى، ثم الآن: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. فـــ ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الآن تأكيداً بأن الإراءة وقعت من خلال الأعين على أرض الواقع بدلاً عن يُريكم ﴿يُرِيكَهُمُ﴾، رؤيا منام. وجاءت ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ بصيغة المُضارع مع ﴿إِذِ﴾ الظرفية لـ ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾، مُضافة. ثم: ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ بدلاً عن: ﴿فِى مَنَامِكَ﴾.

ولكن كيف حدث ذلك، كيف يتحوَّل الكثير إلى قليل في نَظَر الآخر، وهو كثيرٌ دون أن يمسسه شيءٌ على أرض الواقع. في الحالة الأولى، كان الأمر في المنام،

وهذا له وضعه الخاص، فيجوز لأي إنسانٍ أن يرى شيئاً في المنام، لم يقع بعد على أرض الواقع، ولكن أن ترى واقِعاً دون ما هو عليه، وأنت في ذروة يقظتك. وما تراه في المنام، يحيلك إلى الواقع عند اليقظة لترى تحقّقه، أمّا ما تراه على أرض الواقع دون حقيقته وهو نصب عينَيك، فهل تنتظر أن ترى الحقيقة في المنام؟ بالطبع: لا. لأن ما هو هامٌ هو الواقع العَمَلي الذي يقع فعلاً على أرض الواقع، وأنتَ تتفاعل معه، بل لا تملك من أمرك إلّا أن تتفاعل معه، لأنه يقع بشكلٍ حسّي مُباشَر.

فإذن كيف حدث ذلك؟ وليس هذا فحسب، بل من الطرف الآخر وقع ذات الشيء حيث: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. فأصبح المشركون أيضاً يرونهم أقلّ مما هم عليه. ونأتي بشاهِدَين من الطَّرَفَين شاركا في المعركة يبيّنان حقيقة هذا الواقع اللاواقعي المُخالِف للواقع. جاء عن ابن مسعود قوله: (لقد قللوا في أعيننا حتى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: أتراهم سبعين، قال: أراهم مائة. فأسرنا رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً). وعن السدي: (قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعوا، فقال أبو جهل: الآن إذا برز لكم محمد وأصحابه، فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور، فلا تقتلوهم، واربطوهم بالحبال). وهنا يتبيَّن بأن كل الاحتمالات تكون واردة، فإذا أراد الله أمراً جعل الإنسان يرى الأشياء على غير حقائقها، فيندفع إليها، وهذا هو الاستدراج، سواء ليرى منفعةً، أو يرى عقاباً. فتضعك الآية أمام النموذجَين معاً: نموذج الذي يتلقّى الأذى نتيجة عدم رؤية الحقيقة كما هي، ونموذج الذي يتلقى النفع نتيجة عدم رؤية الحقيقة كما هي. وهناك الكثير من عوامل الطقس التي يمكن لها أن تستجيب لأمر الله سبحانه وتعالى، لتحقيق رؤية اللاواقع، مثل الضباب، لأننا في وقتٍ نزل فيه المطر بغزارة، وكذلك بعض السحب التي يمكن لها أن تهب، فلا تجعل الإنسان يرى الأشياء بكل تفاصيلها خاصة إذا كان في طبيعةٍ مفتوحة. قال ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ و﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. أي أن هذا الواقع لم يمسسه أي تغيير، لكن ﴿أَعْيُنِكُمْ﴾ و﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ هي التي أرتكم ما هو خلاف الواقع نتيجة عوامل طقسية ما، أو ما شاء الله. وهذا الواقع في الحقيقة لابثٌ على ما هو عليه، وما ذلك إلّا: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

فهذه أسبابٌ يجعلها الله تعالى حتى يتحقّق أمرُه من خلالها. فهذا كله حتى لا تنسى الله، ولا تجعله بعيداً عن حساباتك. فترى شخصاً يُحصّل المال بالحرام ليأكل ويغتني بهذا الحرام، ولكن الله ينذره قبل أن يوقع عليه عقابه الشديد، فيجعل فيه مرضاً يمنعه من تناول أطايب الطعام ولذائذ الشراب، وكأنه يقول له: ما الذي ينفعك من هذا الحرام وأنت محرومٌ من الاستمتاع به، فدع الحرام حتى نرفع عنك الحرمان، ونرزقك بالحلال الذي تتمتّع به. وإذا عاند وتجاهل الرسالة، ولبث مصراً على ما هو عليه من التكسّب بالحرام، زاده الله إنذاراً بأن يوقع ضرراً على أمواله، فيُمنى بخسارةٍ فادحة، وكأنه يقول له: بعد أن حصلتَ على كل تلك الأموال بالحرام، ها قد أذهبناها عنك ولم نذهبك معها، وأتحنا لك فرصة حتى تبدأ من جديد بالحلال، وغسلناك من كل ذاك الحرام. فإن اعتبر بذلك، وناب إلى ربه، وتاب إليه، وعمل صالحاً، وعزم على فتح صفحة جديدة في حياته وفق ما أحلّ الله، يكون قد فهم خطاب الله إليه، وشكره على تنبيهه له، ومنحه فرصة للإصلاح. وإن كان عنيداً وازداد تمادياً في الحرام، عندها يعرض نفسه لضربة الله القاضية، فإما أن ينتهي بالانتحار نتيجة عدم تحمّل أزمة أصابته، أو بالهلاك نتيجة حادث مروع، أو حريق، أو ما شابه، ويكون قد خرج من الحياة مخرج سوء تاركاً سمعة سيّئة. فإذن ترشدك الآية التي أنت في محرابها ومن خلال هذين النموذجَين، إلى دوام ذكر الله، وأن يكون دوماً في حساباتك. ثم تشرف على مغادرة الآية، وبك شوقٌ لعدم مغادرتها، وقد أرشَدَتكَ إلى ما أرشَدَت، وتَرَكَت لديك انطباعاً طيّباً حتى أنك تتنسّم نسائمها الطيّبة كلّما سمعتها، حتى لو كنت تمضي في طريق، وفي عُجالةٍ من أمرك، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾. لكل شيء مرجعيّة إلهية، ولا شيء قط لا يرجع إلى الله. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾. فتقرأ هذا الكلام جيداً، وينشرح به صدرك ويتيسّر به أمرك، ويفرج به همّك، ويتنفّس به كربك، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾. ﴿تُرۡجَعُ﴾، بضم التاء، وفتح الجيم، أي يُرجعها الله راضية، أو مُكرَهة. فتعمل ما أمكنك عمله، لتكون رجعتك إلى الله رجعة حميدة، والله يفرح بعودتك إلى الحق.

الباب الخامس والأربعون
الثبات والإكثار من الذكر عند الشدائد

[٤٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥﴾

آية مفتوحة عامة، مضمونها مفتوح عام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جميعاً، وفي أي وقتٍ من الأوقات. فكل شخصٍ آمن، وأينما كان، وفي أي وقت، فهذا خطاب الله تعالى إليه بصفةٍ شخصيّة. ما فحوى هذا الخطاب الذي افتُتِحَ بياء النداء؟: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾. كذلك جاءت ﴿فِئَةً﴾ مفتوحة وعامة، وكذلك وردت مجهولة. لكن الكلمة التي تلتها، عرّفتها: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾، أي ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ في مواجهة هذه الـ ﴿فِئَةً﴾، حال تعرّضكم لهجومٍ منها. ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾، بيانٌ أنهم في ديارهم وأهليهم، فلا تنهزموا وتلوذوا بالفرار، وتتركوا كل شيء خلفكم، وعندها تستولي هذه الـ ﴿فِئَةً﴾، على أموالكم، تعبث بمقدّساتكم، تستحيي نساءكم، ولا تكتفي بذلك، بل تلاحقكم أينما كنتم حتى تقضي عليكم أيضاً. لأنها ﴿فِئَةً﴾ ضالّة، والضلال يسعى إلى الهُدى كي يمحقه وينتصر عليه، كما أن الهدى يسعى إلى الضلال ليمحقه وينتصر عليه. لكن الخلاف بينهما أن الهُدى يسعى بالكلمة الطيبة دون تجاوزها، والضلال يسعى إلى الكلمة الخبيثة ويتجاوزها إلى شن العدوان. والثبات في الآية جاء بمعنى المقاومة، أي تقاوم الذي أتى ليؤذيك، وأنت على أرضك، وتتصدى له بما هو متاح لديك. ثم جاءت الجملة الاستئنافية التالية وفيها إرشاد الله إلى المؤمنين في حال تعرّض هذه الـ ﴿فِئَةً﴾ الضالّة لهم: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي توكّلوا على الله، واستقووا به وأنتم تثبتون وتقاومون، وتأبون هزيمة الهدى الذي في صدوركم. ثم ذكرت الآية:

﴿كَثِيرًا﴾. أي أكثروا من الذِكر، ولا تيأسوا، فإن ذِكركم لله، مع مقاومتكم، أقوى من أي قوة يتمتّعون بها. وهذا استئنافٌ متفرّعٌ من مضمون هذه السورة التي تبيّن نصر الله، على أن يستعدّ المؤمن لهذا النصر ليكون أهلاً له، ويبذل مشقّة في سبيل تحقيقه، حتى يحافظ عليه، ومن خلاله يردف مسيرة نشر الهدى بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة دون تجاوزهما. وإن تجاوزهما فيكون قد انحَرَفَ عن منهاج نشر الحق، وتدخّل في شأنٍ من شؤون الله تعالى الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. والهداية والضلال يكونان من خلال إيصال البلاغ، فإن لم يصل بلاغ الله إلى الإنسان، فلا شيء عليه، لأنه لا يعلم الحق، ولم يبلغه أحد به. فعمود الدعوة، هو البلاغ، ثم تكون الهداية، أو يكون الضلال، وذلك شأنٌ خالصٌ لله تعالى مع عباده. فلا جواز بأي حالٍ من الأحوال أن يعتدي مسلمٌ على أي شخصٍ غير مسلم، بقتله، أو ضربه، أو إهانته، أو أخذ ماله، أو حتى تهديده. فإن كانت لديك كلمة طيبة فقلها من باب الموعظة الحسنة، وإن لم تكن لديك، فلا حق لك عنده في شرع الله في أي تصرّفٍ يمكن أن يبدر منك نحوه. إذن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، ثم جاءت خاتمة الآية مبيّنة الحصاد الطيّب الذي يمكن للمؤمن أن يحصده إذا التزم بهذا الإرشاد الإلهي: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فإن أردتم أن تُفلَحوا فهذا هو سبيل الفلاح، اتّبعوه واسألوا الله الفلاح ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الباب السادس والأربعون

آفة التنازع

[٤٦]

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التزموا بمنهج طاعة الله ورسوله، دون أن يُخرجكم أي اعتبارٍ دنيوي عن هذه الطاعة، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾. لا تختلفوا فيما بينكم على ثوابت هذه الطاعة، بردود الأفعال والتسرّع، فجميعكم تلتقون عندما تجمعكم طاعة الله، وإن أراد كل واحد أن يفرض طاعته على الآخر ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾، تنشقّوا عن بعضكم البعض وتضعفوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾. تخور قوّتكم وتتلاشى رائحتكم الطيّبة في الناس. فالحذر من تجاوز طاعة ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، واللجوء إلى البِدَع الضالّة، والفِتَن، والانشقاقات، وكَيل التُّهم إلى بعضكم البعض. فقد أرسى الله لكم قواعد سليمة للإيمان، فلا تنحرفوا عن هذه القواعد، والتزموا بها في كل الأحوال، ولا تأذنوا لأي بدعةٍ أن تنفذ إلى جمعكم فتفرّقه. واعلموا أن سبيلكم الأوحد إلى هذا التماسك، هو طاعة ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. ﴿وَ﴾ - لا تعجلوا أمام حدوث طوارئ الحياة، بل - ﴿اصْبِرُواْ﴾ دون أن تنجرّوا خلف ردود الأفعال، وتتّبعوا نزعاتكم وأهوائكم، والله يعدكم بأنه لن يتخلّى عنكم في أي وقتٍ من الأوقات، كما أنه ما تخلّى عن المؤمنين الذين سبقوكم. وهذه الآيات تضعكم في قلب الأحداث التي وقعت، لأنكم ستجدون هذه الأحداث تتكرّر من وقتٍ إلى آخر معكم ومع أبنائكم ومع أحفادكم، لأن الفئة الضالّة تتوارث الضلال عن بعضها البعض، وتلبث في سعيها للنَيل من هُداكم مثلما كانت مع آبائكم وأجدادكم. فـ ﴿اصْبِرُواْ﴾ ولا تتسرّعوا، كما صبر الذين سبقوكم،

ولم يتسرّعوا، فنصرَهم الله على الضالّين. وإن تسرّعتم واضطرَبتم وانقدتم خلف ردود أفعالكم وتنازعتم فيما بينكم: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، لأن الله لن يكون معكم وقد خرجتم عن طاعة ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. ولكم في الذين خرجوا عن طاعة ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عبرة في كل زمانٍ ومكان. وتذكّروا جيداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعدكم بأنه ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. قوّة الله تكون إلى جانب ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، نصر الله يكون حليف ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. والآيةُ يُقاس منها العام، كما يُقاس منه الخاص، فتكون للحالات الجماعية، كما تكون للحالات الفردية. والصبر هو طاعة لأمر الله ﴿اصْبِرُواْ﴾. وعندما يمتثل الإنسان لأمر الله سبحانه وتعالى، سيتبيَّن له بأن الصبر مرهم لكل داء.

الباب السابع والأربعون

البَطَر والإراءة

[٤٧]

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

هذه الآية تُمَنهج لك آفاق حياتك، وتقتلع الأشواك من دربك حتى لا تُشاك بها، فتنغّص عليك حياتك. ثم من ناحيةٍ أخرى، فإنها آية علاجية تقي النفس من مختلف الأوبئة النفسية التي يمكن لها أن تصيب الإنسان، كذلك فإنها تعزّز لديه حالة التواضع. إذن، هذا كله يقيك الفِصام بكل تفرّعاته، وعُقدة التعالي بكل تداعياتها، والاضطرابات النفسية بكل تبعاتها. ويجعلك إنساناً سويّاً تنعم بحياةٍ جميلةٍ معتدلةٍ متّزنةٍ.

اقرأ الآية بتأنٍ وادخل رحابة عالمها بتأنٍ، وتعرّف على معانيها بتأنٍ، وعندئذ سوف تراها تغدق عليك بنفائس ثمارها اليانعة. الخطوة الأولى التي تمدّها إلى رحابة بستان الآية، تنزع عنك التقليد الأعمى، وتجعل لك خصوصيّة شخصيّة مستقلّة، فذلك أساسٌ قويمٌ لِما ستنبَني عليه معالم ومزايا شخصيّتك الجديدة.

إذن: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾. تحرّروا من قيود التقليد الأعمى، تمرَّدوا على أغلال التَّبَعيّة العَمياء: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾، وإيّاكم أن ﴿تَكُونُوا۟﴾ ﴿كَـ﴾ - أولئك - ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَارِهِم بَطَراً﴾. الآن، وقد ولَجتَ بستان الآية الخصب، فإن أنسامها العليلة، أول ما تفعله، أن تُعالج فيك نزعة البَطَر التي هي نزعة موجودة لدى كل إنسانٍ، لكن ثمّة مَن يتحكّم بها، وثمّة مَن تتحكّم به. فهي من النزعات السلبيّة النائمة التي تنهض بين حينٍ وآخر، فإن عالجتها، عادت إلى نومها، وإن تركتها، فستنهض وتستفحل بك وتقودك، وعندما تراك واهناً مستجيباً راضخاً متّبعاً إيّاها، فإنها تلبث يقظة، وهذه

اليقظة، تُفسد عليكَ يقظتَك، كما أنها تُفسد عليك نومك. وكلمة البَطَر جاءت بالغة الدقّة في موضعها المُناسب ووقتها المُناسب، وأنتَ تتلقّى تعاليم هذه الآية بتأنٍ. وإذا أردتَ أن تتعرّف على البَطَر أكثر، فهو مثل أن تربّى ابنك، وتعطيه مالك، ولكنه يمرد عليك، ويتعالى عليك، ويستخدم هذا المال الذي أغدقته عليه، لأذى نفسه، ثم يجحد أفضالك عليه ويجعل لك نظيراً في الأبوّة، ويتعامل معه كما لو أنه آبٌ له. وأنتَ تراه غارقاً في وهمه الكبير، وفي بَطَره الكبير، لأن الحقيقة أنك لو أخرجته من بيتك، لنام في الطريق، وما آواه أحد، ولو أمسكتَ عنه وجبة طعامٍ، لبقي جائعاً، ولو أمسكتَ عنه مالك، لبقي مفلساً، لأن كل ما هو يتّبعه دونك، إنما هو وهمٌ في وهم على أرض الحقيقة، فلا أحد يعطيه شيئاً، بل إضافةً إلى ذلك، فإنه ينفق عليهم من مالك الذي تغدق به عليه، فهذا مثلٌ، ولله المثل الأعلى. فالبَطَر هو الوجه الآخر للطغيان والتمرّد على حدود الله، وانتهاك محارمه، من خلال ما أغدق الله تعالى به عليه من نِعَم. فتنبّهك الآيةُ وتحذّرك من مغبّة البَطَر: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾. ثم ذكر جل وعلا، نزعة أخرى نائمة في الإنسان، وهي نزعة الإراءة، فقال: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾. أي تفعل شيئاً، ﴿وَ﴾ - الغاية من فعلك -: ﴿رِئَاء النَّاسِ﴾. أي تتفاخَر بفعلك هذا أمام الناس، وبالتالي تتفاخَر عليهم.

تُدخِلنا الآيةُ إلى أجواء وبيئة ما حدث على أرض الواقع، وذلك يقرّب إلينا الحالة أكثر، ويجعلنا مطّلعين على ما قد حدث. لماذا؟ لأن هذا الحدث هو قابلٌ للتكرار في أي زمانٍ ومكان، ونزعة البَطَر كامنة في الإنسان. فمن أشكال البَطَر أن أبا سفيان عندما أرسل إلى أبي جهلٍ بِمَن يُخبره كي يتراجع ولا يقدم إلى المعركة، لأن القافلة سلمت، لكن أبا جهل أصرّ، واعتبر أنه يقوم بشيءٍ مثل النزهة، حتى أنه قال كما يُروى: (لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان فإنّ بدراً مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب مخرجنا فتهابنا آخر الأبد).

يتبيَّن لنا من خلال هذه الواقعة بأن الإراءة هي عمليّة تكليلية للبَطَر، ولولا الإراءة، للبث البَطَر في نومه. إذن، لولا غاية الإراءة، ما كان الخروج إلى المعركة،

وبالتالي ما كان البَطَر، فقد أصبحوا بطرين، ثم أرادوا أن يُصبحوا مرائين، أي: يُظهروا بَطَرهم على مرآة من الناس، وأيضاً هناك غاية، وهي أن يهابهم الناس. والكلمة قريبة من الرياء، وهنا فإن كل ما يهم الشخص المرائي، أن يُرى من قِبَل الناس، فممارسة البَطَر من خلال الخروج إلى المعركة، أدّى إلى الإراءة، والإراءة أدَّت إلى التفاخر والإهابة.

ثم استأنَفَت الآية: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فهؤلاء انطلقوا من مكة باتجاه بدر، وقصدوا صدّ المسلمين ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وبالأصل كان المسلمون قد تركوا ديارهم وأموالهم في مكة وهاجروا إلى المدينة، لأن المشركين كانوا يصدّونهم عن الإسلام، ويقفون عقبةً بينهم وبين نشر آيات الله في الناس. فلم يبق إمامهم، إمّا أن يستسلموا ويرضخوا للأمر الواقع الذي يفوق إمكاناتهم وقدراتهم، أو يلوذوا بهذه الآيات وينشروها في مكانٍ آخر، فكانت المدينة هي المكان المناسب لهذه الوجهة، وهذه المرحلة الانتقالية الكبرى في نشر الدعوة، وأصبح هناك أنصارٌ لهذه الدعوة، وقد استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم، بحفاوة وأنشدوا ترحيباً بقدومه إليهم:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المُطاع
جئت شرّفتَ المدينة ... مرحباً يا خير داع

وبذلك أصبحوا قوّة لا يُستهان بها إلى جانب المسلمين المكّيين الذين أسّسوا لدعائم هذه الدعوة، ولقوا ما لقوا من أهليهم ومن أبناء جلدتهم من ألوان المضايقات والاعتداءات. فكانوا في ذروة الصيف يضعون الصخور على صدورهم حتى يثنونهم عن الإيمان، ولكن الإيمان لم يتزحزح لأنه كان راسخاً، وقد تحوّل بالنسبة إليهم كالماء والهواء. الآن تُريك الآيةُ كيف أن هؤلاء ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في مكّة ليُطاردوا المسلمين حتى وهم قد هاجروا إلى المدينة. لماذا؟ تقول الآية:

﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فقد أنعم الله عليهم بهذه الأموال والممتلكات، وبدل أن يشكروه، استقووا بهذه النِّعَم واصطحبوا معهم المعازف والقيان والخمور وألوان الطعام. وقد جعلوا هذه العدّة على الجِمال خلفهم، وهم يتقدّمون بما يزيد عن ألف مقاتلٍ وقد تجهّزوا تمام الجهاز ليخوضوا حرباً مع المسلمين في المدينة، ومَن يوالونهم من الأنصار. وقد بيَّنَت الآية هذه الحقيقة بجلاء: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وجاءت ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ مُضارعيّة في فعلها، وهذه إشارة بأن الأمر يلبث قائماً، أي سوف يلبثون ﴿يَصُدُّونَ﴾ من خلال حَفَدَتهم. وبذلك ترى هؤلاء يتواجدون في كل زمانٍ ومكان، ويسعون ما أمكَنَهم كي يردفوا مسيرة الصدّ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فتراهم في يومك الذي أنت فيه، كما رآهم آباؤك وأجدادك، ويراهم أبناؤك وحَفَدَتك. فهؤلاء ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾، بكل وسيلةٍ يتمكّنون منها، كونهم نَسَبَة الصدّ، وحَفَدَة الصدّ، حفدة أبي جهلٍ وصحبه، كما أن المؤمنين حَفَدة الداعين إلى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، حَفَدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه رضوان الله عليهم. وبذلك تُدرك بأن هذه الآية موجّهة إليك وهي تبيّن لك سبيل الرشد من الغي. حتى تقرأها وتأخذ منها الحكمة والموعظة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد بذل كل ما بذل حتى يوصلها إليك وتقرأها بتأنٍ، وتنتفع بما تحمله إليك من حكمة وموعظة وإرشاد إلى المنهج السليم القويم الذي تستمدّ منه توازنك واعتدالك وساعات الصفاء الذهبيّة في حياتك. ثم تقدّمها إلى أبنائك، ومَن تود لهم الصلاح، فتقعد معهم بين حينٍ وآخر وتشرح لهم معانيها ودلالاتها. ويكون ذلك مع سائر آي التنزيل الحكيم، حتى لو اقتَصَرَت كل جلسة على آيةٍ واحدةٍ بين حينٍ وآخر، وأن تواظب على ذلك حتى يواظب عليه أبناؤك، ويواظب عليه أبناؤهم. إذن جاءت ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المُضارع لتنبّهك بأن هؤلاء ينتشرون كالأوبئة في أوساط الناس، فيمكن لهم أن يتعرّضوا إليك، إلى زوجتك، إلى ابنك، إلى ابنتك، في

المدرسة، في الجامعة، في العمل، في الجوار. وفي وقتنا، حتى في وسائل التقنيات الحديثة التي أصبَحَ التواصل فيها مُتاحاً بيسر. ثم جاءت خاتمة الآية: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. وهنا إخبارٌ بأن الله على علمٍ ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. وكذلك جاءت الكلمة مضارعيّة، لأن هؤلاء بالفعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ولا يتوقّفون عن العمل، ولكن هذا يبقى ضمن إحاطة الله سبحانه وتعالى، بكل عملٍ يقومون به. فتَعلم وتَخبر بأن لا شيء يفوت الله سبحانه وتعالى، مما يبدر من هؤلاء سواء أكان صغيراً أو كبيراً، ولذلك جاءت كلمة الإحاطة، وهي كلمة شموليّة. وفي وقتنا تُستَخدم هذه الكلمة في الإعلام والإخبار، فيُعلِم موظّفٌ مُختص على سبيل المثال، مديره الذي يمثّل المؤسس بقوله: (نحيطكم علماً أننا قمنا بالعمل الموكل إلينا). فيكون الموظّف قد أحاط مديره علماً بما قد تم عمله، ويُصبِحُ المديرُ مُحيطاً بما قد عُمِل. والكلمة تُطلق أيضاً على بعض الأماكن الجغرافية، وكذلك بعض المعاجم اللغوية، والحائط يحيط ما بداخله، وكل ما بداخل الغرفة يكون مُحاطاً بحيطانها. فالله عز وجل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا﴾ يعمل الناس جميعاً ﴿مُحِيطٌ﴾. وهذه الحيطة الإعلامية الإخبارية، هي حيطة اطلاعية مباشرة بين الله، وبين عباده، فلا وسطاء بين العباد وربهم، والعلاقة هي علاقة تواصلية وفورية. فإن أردتَ أن ترسل خطاباً إلى رئيس البلاد، تحتاج إلى وسطاء يوصلون خطابك إليه، وهو بابه مغلق، ومفاتيح الدخول بأيدي الوسطاء، وقد يهملون خطابك ولا يوصلونه إليه. فالذين من حوله هم الذين يقرّرون وصول كلامك إليه، أو عدم وصوله، وبذلك قد لا يبلغه الحق الذي تود أن تخبره به. تبيّن الآية بأن العلاقة التواصلية مع الله، هي علاقة مفتوحة ومباشرة في أي مقتٍ من الأوقات، وفي أي لحظةٍ من اللحظات يمكنك أن تسأله ما تشاء بسرّيةٍ تامة وفي قرارة نفسك، فيسمعك وحده في ذات اللحظة، دون أن يأذن لمخلوقٍ قط أن يسمعك، وهو أقرب منك إليك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

والآيةُ تفتح أمام مخيّلتك مدى ازدواجيّة المشركين، ففي الوقت الذي يشكون فيه بأن هذا الرئيس طيّب، ولكن الذين من حوله لا يوصلون إليه الحقائق، ويخفون عنه كثيراً مما يحدث، ويمنعون وصول كلام الناس إليه حتى لا يعلم بما يحدث. والله سبحانه وتعالى، قد جعل العلاقة مباشرة ومفتوحة بينه وبين الناس، ولكنهم يصطنعون الوسطاء حتى يتوسّطوا لهم عند الله، بل والأكثر من ذلك، أنهم يعبدون هؤلاء الوسطاء وهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. فقد عفاهم الله سبحانه وتعالى، من الوسطاء، وحتى لو تحدّثوا للوسطاء، فإن الكلام يصل الله قبل أن يصل الوسطاء، بل حتى لو همس شخصٌ بهمسٍ في قرارة نفسه، فإن هذا الهمس يصل الله قبل أن صاحب الهمس ذاته. ورغم ذلك فإنهم يريدون أن يجعلوا علاقتهم مع الله عز وجل، من خلال هؤلاء الوسطاء. خاتمةُ الآية تحسم هذه المسألة: ﴿وَٱللَّهُ﴾ بشكلٍ فوريٍ ومباشر ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. ولا عمل يجوز له أن يخرج عن إحاطة الله به في ذات اللحظة.

الباب الثامن والأربعون

زينة الشيطان

[٤٨]

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

الزينة هنا، هي الوجه المزيَّف للحقيقة، وهي زينة معنوية، لا مادية، والآيةُ تبيّن وتُفَصِّل في الزينة الشيطانية للإنسان. وهذا مهمٌّ للغاية بالنسبة لك كي تطّلع عليه، إذ تشرح لك الآيةُ وتفصِّل لك حقيقة هذه الزينة التي هي الأداة الأكثر فعّالية لدى الشيطان، وكثيرٌ من الناس يُستدرَجون تحت تأثير هذه الزينة. إذن تعرّفك الآيةُ أولاً بأن الشيطان لديه مقدرة على التزيين، وهو مزينٌ مُحترف، وأن بضاعته هذه تأتي أكلها بالنسبة إليه، فيداوم عليها في استدراج الناس الذين يتفاعلون مع هذه الزينة ويستجيبون لها.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

دوماً، فإن للآية حَدَثها الذي تسبَّبَ في نزولها، ولها أشخاصها الذين تَسَبَّبوا في نزولها، وذلك قد مضى، ومُستَحسَنٌ أن تعود إليه حتى تتعرَّف على جذور الآية، ثم تنظر وأنت ترى ذات الأسباب تتكرّر في أزمنةٍ أخرى ولأناسٍ آخرين. وهذا ما تحصّنك به الآيةُ، وهذا ما هو مهمٌ بالنسبة إليك، فإذا كان مهمّاً ما قد حدَث سابقاً مع غيرك، فالأهم منه ما قد يحدث لك الآن، والقرآن بين يدَيك، لا لتقرأ فيه أحداثاً قد مضت، أو تتعرّف فيه على سِيَرِ أشخاصٍ قد مضوا فحسب، بل لترى وتكتشف فيه ما من شأنه أن يُحسّن لك حياتك ويُصلحها، ويُجنّبك الكوارث التي وقع فيها الأسبقون. أجل إنها كوارث مروعة تصيب المستهترين والعبثيين المتجاوزين

للضوابط الإنسانية، المنتهكين لحدود الله، الذين يعيشون بِهَمَجيَّةٍ، ويخترقون الأعراف الإنسانية، خاصةً إذا أنعم الله عليهم بنعمة الوجاهة، أو السلطة، أو النفوذ، أو المال. وهذا هو البَطَر الذي حذّرَتكَ منه الآية السابقة، والتي تستأنف هذه الآية تداعيّاتها من خلال افتتاحيّتها الإشاريّة العاطفة: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، لأولئك ﴿الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾. ماذا ﴿زَيَّنَ﴾؟ ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾. وفي تفرّعات وتداعيات الاستجابة والتفاعل مع الزينة الشيطانية، ترى هؤلاء يبطرون، ويجورون، ويطغون. فشخصٌ قد جعله الله تعالى مسؤولاً لفترةٍ ما، فتراه يتحوّل إلى شيطانٍ، يغتال هذا، ويسجن ذاك، يعتدي على أعراض هذا، وعلى أموال ذاك، يهدّد هذا، ويفسد ذاك. وكل إمكانات الدولة باتت تحت يدَيه ورهن إشارته، فيبذر، ويبطش، وينفلت على عباد الله. ويزيّن له الشيطان عمله، ويحضّه إلى المزيد، لكن الله سبحانه وتعالى، يوقفه عن تمرّده، وينجي عباده من طغيانه، ويجعله يخنع ويلقى ضربات صاعقة في الصميم، وينتهي نهاية ذليلة. وهذا يكون مع مختلف مستويات ودرجات المسؤولية التي يوليها الله تعالى للإنسان، بدءاً من مسؤوليته تجاه نفسه، ثم مسؤوليته تجاه عائلته، أقربائه، علاقاته الاجتماعية، عمله، وما إلى ذلك. وتُطلعكَ الآيةُ بأن لا أحد ينجو من العقاب إذا أصرّ على التمادي واستمرّ فيه، فحتى جسدك الذي أنتَ مسؤولٌ عنه يُعاقبك إذا استهترتَ به ولم تحافظ عليه، فتتساقط أسنانك، تعاني أمراض المعدة، أو الضغط، أو السكّر، أو الدهون، وكل ما من شأنه أن يعكّر عليك صفو حياتك، وأنت ماتزال في مقتبل عمرك. في حين ترى أن الذي لم يستهتر بصحته وأحسن التعامل معها، يستمتع بأطايب الطعام، ولذائذ الشراب، وصفاء الذهن، والسَّكينة النفسية، ولياقة بدنية، مهما تقدّم به العمر. وفي ذلك يُروى عن أبي الطيب الطبري الذي كان قد جاوز المائة سنة وهو ممتَّع بعقله وقوته، أنه وثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك فقال: (هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر). وهذا يأتي كذلك على أبنائك،

فإن أحسنتَ تربيتهم، أحسنوا إليك، وإن أسأتَ تربيتهم، أساؤوا إليك، وما تفعله مع أبوَيك، يفعله معك أبناؤك. وهناك حكاية شفوية قديمة كتبتها على شكل قصة قصيرة، عن ابن أراد أن يتخلّص من أبيه العجوز، وخطر له أن يحمله في سلّةٍ ويذهب به إلى قرية بعيدة ويتركه هناك. وكان حفيده متعلّقاً به، وينام معه في ذات الحجرة، وأحياناً في الليل يتجه إلى المطبخ، يأتي ببعض الفاكهة، ويلبثان ساهرين يتحدّثان حتى يحين موعد صلاة الفجر، فيملأ الطفل الإبريق لجدّه كي يتوضأ به، وعندما يصلي، يقلّده في بعض الحركات، ثم ينامان حتى تدخل أمه وتقدّم طعام الإفطار لجدّه، فيجلس ويتناول معه الطعام.

قال الرجل لزوجته: اعدّي لي تلك السلة الكبيرة في الصباح، وبعد أن يتناول الإفطار، سأضعه بها وأحمله على ظهري حتى أبلغ به إحدى القرى البعيدة، أتركه هناك وأعود. في الصباح وبعد أن تناول الرجل العجوز طعام الإفطار، تقدّم إليه ابنه وصار يحمله حتى وضعه في السلّة، والحفيد في دهشةٍ وقد علّت غصة إلى حنجرته وبدأت دموعه تنهمر من عينيه على فراق جده، وقد أخبره الأب بأن الرجل عندما يصبح عجوزاً يؤخَذ إلى قرية بعيد ليعيش فيها مع الذين يكونون مثله.

ولعلّ الحفيد خطر له أن يتعقّب الأب حتى يلحق بجده ويعيش معه لأنه لم يتخيّل فراقه، فبعد أن مضى الرجل بأبيه وابتعد، ناداه الابن: يا أبي أين ستأخذ جدّي؟ فتوقف الأب والتفت إليه قائلاً: إلى قرية بعيدة يا بني.

هنا خطر للابن مرة أخرى أنه عندما يكبر، سوف يحمل هو أيضاً أباه الذي سيصبح عجوزاً في السلّة، ويأخذه إلى ذات القرية، وعندها سوف يرى جدّه، فنادى بأبيه مرّة أخرى وقد ابتعدت به خطواته تحت حمل السلّة. فتوقّف الأب، وتقدّم إليه ابنه وهو يلهث قائلاً: يا أبي، يا أبي، عندما تضع جدي هناك، لا تنس أن تعيد السلّة. قال الأب مندهشاً: لِمَ يا بني؟ قال: حتى أحملك بها على ظهري عندما تصبح جدّاً مثله، وأصبح أباً مثلك. صُدِم الرجل بِما سمع، والتفت عائداً إلى البيت، وصار يعتذر من أبيه.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. دوماً هذا هو الوهم الكبير الذي يعشعش في مخيّلات هؤلاء، فلا يذكرون بأنهم سيضعفون، أو يسلّط الله عليهم مَن هو أقوى منهم. وكان عمر بن عبد العزيز منتبهاً جداً لهذه المسألة، ولذلك كان يوصي الذين يولّيهم على الناس في بعض النواحي بالعدل، ومما كتب لأحد هؤلاء: (أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين). وتُختَصر الفكرة في جملةٍ واحدة: (إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس، فتذكّر قدرة الله عليك).

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. فهم لا يتخيّلون بأي حالٍ من الأحوال أي انكسارٍ أو وهنٍ، وأن الناس جميعاً سيلبثون تحت سيطرتهم، كالذي يفرّط بصحته ويستنفذها، ويستهلك طاقته بالمجون والاستهتار، ويعتقد أن ذلك سيدوم له، ولا يذكر بأن ذلك يقوده إلى مرحلة حياتية مقبلة يعاني فيها الحسرة على تناول قطعة لحم، أو قطعة حلوى، أو حبة فاكهة، أو طبقاً من الرز، أو أنواع الطبخ، أو المشويات، أو المقالي، أو النشويات، أو يأتي أهله، أو حتى التقلّب في لفائف نومٍ هانئ ولو ليومٍ واحد. فالآية دقيقة جداً، وتفصح لك عن هذا الوهم، وتضعك في قلب الحقيقة: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾. فيعتقدون أنهم بالفعل قوة ثابتة لا تتزحزح، وسيلبثون في أوج قوتهم، ولا أحد من الناس جميعاً بوسعه أن يغلبهم ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾. مؤازرٌ ومُجير لكم عليهم، فاستمرّوا وستنتصرون مادمتُ معكم وأجيركم عليهم. لكن هذا كله وهم في وهم أمام الحقيقة، فتُخبر الآية: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾، تضعك الآية الآن في قلب الواقع لتريك كيف أن الوهم المعشعش في المخيلة يتبدّد، فماذا حصل عندما التقى أتباع الشيطان، بالمسلمين؟ قال: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾. النكوص هو الرجوع الإجباري عن أمرٍ، أي: عاد القهقرى إلى الخلف.

بذلك فقد جاءت الجملة في صميم المعنى، وهي تبيّن الشيطان في ذروة حالة النكوص ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. فأين ثقتك وأنت تقول لمتّبعيك: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ثم تقول: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. يُخبر الله سبحانه وتعالى، ما قد حدث بحيثيّاته وتفاصيله بدقة بالغة: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. ودحض كل ما قاله لهم من قبل، ﴿وَ﴾ في لحظات المواجهة الأولى بين الفئتين: ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾. ويجوز أن تكون خاتمة الآية أيضاً له: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. لأنه يعلم جيداً ولا يجهل البتة بأن ﴿اللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وإذا كان ذلك - والله أعلم - فإن هذه الجملة الأخيرة تكون رديفة للجملة التي سبقتها: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾. فالخوف هنا من تلقّي العقاب الشديد. والآيةُ في مقامها، تُعرّفك بالشيطان أكثر، وتفصح لك لا تعلمه عنه، وهو أنه يعلم أكثر من الإنسان شدّة عقاب الله عز وجل. لأنه كان مقرّباً منه، وقد رأى ما لم يره الإنسان، ولأن وجوده بالأصل كان قبل وجود الإنسان، فعندما كان موجوداً، ما كان للإنسان أي وجود. ثم إن العقاب الذي تلقّاه باللعنة، والخروج من الجنة، والعودة إلى بني قومه في صفوف الجن، لم يكن بالعقاب الشديد الذي يعلمه عن الله، بل هو جزءٌ من ذاك العقاب. ولذلك ارتعب وخاف و﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. لأن هذا اليوم قد يكون ذاته اليوم المعلوم الذي أنظره الله إليه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]. فكل شيءٍ قد خرج عن طبيعته البشرية المألوفة بالنسبة إليه، فهاهم الملائكة الذين يعرفهم، نظراً لأنه كان ملاكاً بينهم، قبل أن يُسقط الله تعالى عنه مزايا الملائكة التي لم يكن ليستحقها بعد العصيان. فهاهم الملائكة عليهم السلام، أتوا إلى الأرض ليدافعوا عن المسلمين، وقد رأى ما لا يراه الإنسان، وأفصح عن هذه الحقيقة بشكل جلي: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾. فهو يعلم بأن الجن والملائكة يرون الإنسان، لكنه لا يراهم، وإن كان ذلك - والله أعلم - فإن الجن يكون الله قد خصّهم بمزية رؤية الملائكة، استناداً إلى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

فيكون قد واجه الموقف الذي ما كان يريد له أن يقع، ليس لتقديم خدمة للمشركين، بل لهزيمة المسلمين، ولذلك يستعين بالفاسد على الصالح. فكلّما كثر الصالحون، تراجع ونكص، وكلّما كثر الفاسدون، نشط وتقدّم. وهنا فإن هذه الآية التربوية، التعليمية، المعرفية، التحصينية، الغنية بفَيض المعاني، تفصح لك عن غريزة الحياة بالنسبة للشيطان، ومدى تمسّكه بالحياة، ومدى رعبه وخوفه من حلول ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ عليه. ولذلك فرّ هارباً رغم علمه أن عقاب الله سيطاله أينما ذهب، لكنها غريزة الحياة، وهذا ما يكون عليه الإنسان أيضاً، وكذلك الحيوان والنبات. فإذا سقط إنسانٌ في نهر وعَلِمَ بأنه لا يستطيع النجاة، رغم ذلك لا يستسلم، بل يقاوم حتى نفسه الأخير. وحتى الحيوانات فإنها تصرخ وتهرب تجنّباً من مفارقة الحياة، وتلبث تقاوم حتى آخر نفس، وكذلك الأمر بالنسبة للنبات. فالآية الكريمة تُطلعك على ما قد حصل معه عندما رأى ما رأى، وهذه رسالة بليغة إلى أولئك الذين يعقدون بعض الآمال على الشيطان بأنه قد يتوسّط لهم بخيرٍ عند الله سبحانه وتعالى، أو أنه يمتلك بعض صلاحيات الشفاعة، أو إبعاد الأذى، أو دخول الجنة، وما إلى ذلك من آمال المنافع سواء في الدنيا، أو في الآخرة. ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: ١٢٠].

فالشيطان يتخلّى عن الذين يتّبعونه، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إن الشيطان يعرف الله عز وجل، ويخافه، لكنه يريد أن يوقع بالإنسان، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر: ١٦].

فالآية التحصينية تُحصّنك من الشيطان، وتُطلعك بأنه يزيّن للفاسدين أعمالهم الفاسدة، ليُقبِلوا عليها ولا يتردّدوا، وعندما يقع العِقاب فإنه يتخلّى عنهم ويكون

قد ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾. تبقى مسألة في الآية وهي قول الشيطان لمتّبعيه بعد أن ﴿زَيَّنَ لَهُمُ﴾ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، مخطّطاتهم التي كانت قيد التخطيط لحظات التزيين، والتزيين جعلهم يُقبلون على تنفيذها باندفاع وثقة إلى درجة أن هذه الزينة الشيطانية النافذة قد جعلت أبا جهل يتخيَّل النصر وقد وقع بالفعل. فإذن، هم الذين وضعوا المخطط الذي سيمضون عليه، وهنا: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ النَّظَرية لحضّهم على الإقبال لتنفيذها وهم في ذروة الحماسة، وقبل أن تخفت هذه الحماسة لديهم ويتراجعوا. جعلهم يتوهّمون لحظات وقوع النصر في مخيّلاتهم، كما لو أنها وقعت بالفعل، بل زاد: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ثم أوهَمَهم بأنه قد وضع إمكاناته تحت تصرّفهم قائلاً: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾. وهنا مسألة مهمّة تعلّمك إيّاها قراءتك المتأنّية للآية، وهي أن الشيطان يمكن له أن يزيّن لبعض الناس أفكاراً، فيجمّلها في قلوبهم حتى يتخيّلوها جميلة، وبالتالي يتخيّلوا أنهم يستمتعون بجماليّاتها، وقد بلغوها بالفعل، وذلك من شأنه أن يحضّهم للإقدام على تحقيق هذه الأفكار التي لمسوا جماليّات واقعيتها في مخيّلاتهم. أمّا قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. فهو من باب الوسوسة التي يمكن لها أن تتحوَّل إلى شيءٍ من الصدى في الأسماع، وعندئذٍ وتحت تأثير هذه الزينة، وهذه التصوّرات، كما لو أنه يسمع مَن يقول له: ما لك متردّداً، اقبل حتى يتحوّل ما تتخيّله إلى واقع، وهو لن يتحوَّل إلى واقع إلّا إذا أقدمتَ عليه، وعندما تبلغ مرادك، فحتى الذين هم الآن ضدّك ويُعارِضونك، سوف يُصبحون معك، ويؤيّدونك، ويرضخون لجمالّات الواقع الذي ستبيّنه لهم. ثم توالَت وسوسةُ الشيطان: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾. فهذه الوسوسة بذاتها تُشعِرهم بأن هناك قوّة خفيّة أيضاً ستجيرهم وتؤازرهم وتحميهم وتحرصهم. وعلى هذا النحو، توضح الآيةُ أمامك هذه الحقيقة الضالّة. فترى حتى بعض الدعاة وقد تزيّوا بزي الدعوة إلى الله، واعتمروا الجبب والعمامات، وأطلقوا ذقونهم، واسم الله يبقى متلازماً مع كلماتهم، فلا تخرج منهم

جملة واحدة دون ذكر لفظ الجلالة، أو بعض أسماء الله الحسنى، ثم يعقبون ذلك بالصلوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما إلى ذلك من أقوال تجعل السامع يعتقد بأن هذا الشخص إنما هو وليٌ من أولياء الله، وقد تَزَيّا بزيٍ كل ما فيه يشير إلى عمق التديّن. ولكن الحقيقة الملموسة التي هي على أرض الواقع، أن هذا الشخص بما هو عليه من مظهره وأقواله، إنّما هو في جوهره متّبع لخطوات الشيطان، فيسعى إلى الصدّ عن سبيل الله، وزحزحة الإيمان في قلوب المؤمنين. فإذا اطّلعتَ على أفعاله اليومية مع الناس، أو مع أقربائه، أو جواره، أو حتى زوجته، وأبنائه، ستستجير بالله من هذا المستجير بالشيطان. فهو يُري زوجته ألوان الاضطهاد والظلم، يقسو على أولاده، مُخاصِمٌ لأقربائه، سيّء التعامل مع جواره، كاذبٌ في حديثه، مخالف لمواعيده، خائن لأمانته، وإن تحدّث شخصٌ أمامه بشيء، نَقَله بِما يُلحق الضرر بذاك الشخص، وإن عَلِمَ معصية عن شخصٍ، شهَّر به، وإن رأى وسيلة إلى امرأة، استدرجها، وإن تمكّنَ من مالٍ، استحلّه لنفسه، وبذلك يتحوَّل إلى شيطانٍ إنسيٍ حتى يتّقي الناس شرّه، فلا موضع للنفع فيه، وكل ما فيه أذى في أذى. ومن جانبٍ آخر فإن مثل هذا الشخص أحياناً يعمل في مجال الدعوة، وقد يحصل بطريقةٍ ما على إجازةٍ تجعله إماماً، أو خطيباً، أو مؤذّناً، أو عضواً في جماعةٍ إسلامية. فترى البعض يتردّد من الصلاة خلف هذا الشخص وهو يعلم منه كل هذه الأفعال المتناقضة مع مظهره، فيسعى للذهاب إلى مسجدٍ آخر، أو يكتفي بصلاة الجمعة فقط في المسجد. فترى أن هذا المسجد يقل المصلّون فيه، وعندها يعمّم الظاهرة فيقول بأن الناس ما عادوا يُصلّون والدليل أن هذا المسجد لا يصلّي فيه سوى بضعة أشخاص من جميع الأهالي. ولكن كيف يصدّ عن سبيل الله؟ فقد تجد شخصاً ضاقت به سبل الحياة، وتراكمت عليه الالتزامات، ووقّف عمله، وما عاد قادراً على تلبية احتياجات عائلته، وقد يكون مريضاً، حتى أن بات يشعر بأن الدنيا اسودّت أمامه، فيلجأ إلى بيت الله حتى يصلّي ركعتين، ويشعر بالراحة، ويذهب همّه، ويُنفَّس عن كربه، وعندها يجد هذا الخطيب يسوّد عليه حتى الآخرة، فيتحدّث بألوان العذاب والعِقاب بدرجة يبعث فيها الفزع والرعب في نفس هذا الشخص،

فيخرج مذعوراً تحت سياط هذا التهديد والوعيد الذي جلده به هذا الخطيب الذي يجتزئ عبارة من هذه الآية، وأخرى من تلك، وعبارة من هذا الحديث، وأخرى من ذاك، حتى يجعل الناس في حالةٍ من هلع وهم يستمعون إليه. والحقيقة فإن الخَطابة مسؤوليّة جَسيمة، وهذا منبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم، والذي يقف على هذا المنبر، يكون قد وقف مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك فإن الناس يصمتون، بل لا يتحرّكون وهم يستمعون إلى هذا الخطيب، ليس لشخصه، بل لأنهم يرون بأنه واقفٌ في الموضع الذي أسّسه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتخيّلون كيف أنه عليه الصلاة والسلام كان يقف على هذا المنبر، ثم وهم ينظرون إلى أنفسهم، يتخيّلون كيف أن الصحابة رضوان الله عليهم، كان يجلسون، وهم يستمعون إلى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالخطيب عليه أن يُراعي كل هذه المسؤولية الجَسيمة، ويكون كثير القراءة لأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، حتى يتعرّف على منهجه في الخَطابة. فإذن، يزيّن الشيطان لمتّبعيه أعمالهم، كما زيَّن لأبي جهل وصحبه، فالشيطان يبث إلى هذا الشخص المُزدَوَج فكرة أنه على حق، وأنه يتَبع سبيل الله، بل هو من الدعاة إلى سبيل الله، وهو خطيب، أو أمام، أو داعية، أو ما شابه. وبذلك يبرر لنفسه كل تصرفاته السلبية في المجتمع، فحتى لو كذب، أوجد له الشيطان مبرّراً، لو خالف وعده، خان عهده، قمع زوجته، استحلّ أموال الناس، شهّر بالناس، ألحق الأذى بهم، فدوماً يجد الشيطان له المخارج، ويُشعره أنه على حق حتى يستمر، ومن خلال هذا الاستمرار، يحقق الشيطان غايته في هذا الشخص. عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ"(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"(٢). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

(١) رواه أبو داود، والترمذي.

(٢) صحيح مسلم.

رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَليه وسَلم: "مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنَ النَّارِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ"(١).

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوفَ ما أخاف عليكم بعدي، كل منافق عليم اللسان"(٢). وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه".

ويُروى: (أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صفي الله حدثني موسى نجي الله حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم قال هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين).

وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتر به ثمناً فذلك يصلي عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يوافق المرسلين، ورجل آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتي يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ينادي مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباده وأخ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس".

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده.

(٢) رواه الطبراني.

الباب التاسع والأربعون

عدم التأثر بأقاويل المغرضين

[٤٩]

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

في ذروة اكتشافك لهذه الحقائق البالغة الأهميّة، لا بدّ أن يتدخّل ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ في هذه المسألة، فأشخاص الآية السابقة، ليسوا منافقين، لأن المنافق عندما يدخل إلى المسجد، أو عندما يتزيّا بزي التديّن، ويتمظهر بمظهر الإيمان، فهو يعلم بأنه مُخادِع، وهو على يقينٍ بأن جوهره، هو نقيض مظهره ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

لكن هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون تحت تأثير زينة الشيطان، إنما يعتقدون حقيقة بأن مظهرهم هو مطابقٌ لجوهرهم. والآية هنا تبيانيّة، تبيّن ثلاثة نماذج يتواجدون معاً في المسجد، فعندما تصلّي قد تجد أحدهم يصلّي عن يمينك، والآخر يصلّي عن يسارك. ولذلك فإن الآية تفصح لك الصالح، من المُزدَوَج، من الطالح. فالصالح، هو المؤمن الحقيقي قولاً وفعلاً، وكل أقواله وأفعاله إنما يبتغي منها وجه الله تعالى ومرضاته، ولا يهمه أحد غير الله، لذلك قد تراه آخر مَن يدخل إلى المسجد، وأول مَن يخرج منه حتى أن أحداً لا يكاد يراه، ويقوم بأعمالٍ صالحةٍ في المجتمع ولا يعنيه إن عَلِمَ به أحد، أو لم يعلم، وهو قليل الكلام أمام الناس، كثير الذكر بينه وبين ربّه، وهو شخصٌ قَنوع برزقه، ستّير، طيّب، مميط الأذى عن الطرقات، حَسَن المُعاملة مع زوجته وأبنائه، موصلٌ لرحمه، مؤَدَّبٌ مع أقربائه وجواره، ملتزمٌ لحدوده في علاقاته الاجتماعية.

والمُزدَوَج، هو الذي يكون بوجهَين، يقول شيئاً هنا، ويقول نقيضه هناك، يعمل عملاً هنا، ويعمل نقيضه هناك، ولا شيء يثنيه عن ازدواجيّته، سواء أو سوَس له الشيطان، أو لم يوسوس، فهو لديه غايات يحقّقها من خلال ممارسته للازدواجيّة، وقد امتهنها واحترفها بامتياز.

أمّا الطالح، فهو الذي يكون عمله نقيض قوله وهو يعتقد بأنه على صواب، ولذلك ينهض فجراً ويصلّي لله دون أن يراه أحد، وكثير العبادات يؤدّيها دون يراه أحد، لأن الشيطان يزيِّن له بأنه على صواب في كل الأعمال الجائرة التي تصدر عنه.

فتعلم بأن الشيطان يختبر معادن الناس، ووفق معادنهم يكون استدراجه لهم. فهو يعلم بأن هذا الشخص لا يمكن له أن يتخلّى عن إيمانه مهما فعل معه، فيحاول أن يُفسده في إيمانه، ويعلم أن ذاك الشخص يمكن أن يتخلّى عن إيمانه، بل ويشهر إلحاده، فيستدرجه إلى إشهار إلحاده، ويزيِّن هذا الإلحاد في قلبه، رغم أن الشيطان ذاته مؤمنٌ ولا يمكن له بأي حالٍ من الأحوال أن يُصبح ملحداً.

من هنا، جاءت هذه الآية توضيحيّة بيانيّة، فحَصَرَت الفِئات الثلاث معاً في هذه الآية القصيرة: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ المُزدَوَجون.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهذه تسمية أسماهم الله تعالى بها، وهم الذين يفسدون، ويزيِّن لهم الشيطان بأنهم على صواب كما في الآية السابقة.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون الحقيقيّون.

وما هو غاية في الأهمّية هنا أن الآية تُريك كيف أن ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يقفون إلى جانب المنافقين، ويكونون معهم على المؤمنين الحقيقيين، يصفونهم ويكيلون لهم التُّهَم بقولٍ واحدٍ معاً: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

وأتى الله بكلامهم: ﴿غَرَّ﴾. وإذا تَمعَّنتَ في الكلمة، ستراها تنطبق تماماً عليهم، فالمغرور هو ذاك الذي يعتقد بأنه على صواب، وكل أفعاله تقول بأنه على خطأ، وهو يرى خذلان ما هو عليه، لكنه يمضي في نهجه مغروراً.

فالمغرور هو الشخص المُصاب بحمّى الوهم، لأن ما يعتقده ويسعى إليه إنما هو سراب، لا سبيل بأي وجهٍ إلى تحقيقه. وهذه تهمة مستمرّة يتوارثها ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. فيوجّهونها إلى المؤمنين الصالحين، تماماً كما وجّهها سالفوهم إلى المؤمنين الصالحين الذين سَلَفوا.

فالآية تبيّن لك إذا رأيتَ شيئاً من هذا، لتعلم بأن هذا الشخص إنما يصف ذاته بالصفة التي يصفك بها. لكن عليك أن تعلم جيداً وبالثبوتيّات الواقعيّة، أي الفئات الثلاث أنت، وقد بَيَّنَت لك الآية مواصفات أتباع كل فئة. ولا يوجد أي عائقٍ أمامك، فإن رأيتَ مواصفات فئة سلبيّة تنطبق عليك، فيمكن لك أن ترتقي إلى الفئة الإيجابيّة، وتعمل وفق ما يتمتّع أتباع هذه الفئة من صفات. وبالأصل فإن هذه الآية جاءت في القرآن، من أجل دعوتك إلى هذا الارتقاء، لذلك فهي آية بيانية وتوضيحية، تضع لك النقاط على الحروف، وتترك لك حرية القرار. ومهما أمضيتَ من سنوات طويلة في قعر الظلمات، وفاعلاً ما فعلت من ذنوب حتى لو كانت ملء الأرض، وكل حياتك كانت ذنوباً في ذنوب، ولا طاعة واحدة فيها.

فإنك عندما تستغفر ربك، وتمد يدك للخروج من الظلمات، ستجد يد الله تأخذ بيدك إلى رحابة نور الصلاح، ويُتيح الله لك فرصة لتبدأ صفحةً جديدةً من حياتك، وتنسى كل ما بَدَرَ منك جملة واحدة، فتطويه وتتركه خلفك ولا تلتفت إليه، فهذا عهد الله لــــك: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذه هي رحمة الله التي شاء لها الله تعالى أن تغلب غضبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لمَّا قضى الله تعالى الخلقَ

كتَبَ في كتابٍ فهو عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي"(١).

ولذلك جاءت خاتمة الآية بالدعوة إلى التوكّل على الله، وجاءت كلمة التوكّل، لتُذكّرك وتدعوك إلى هذا الارتقاء وتتوكّل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بلفظ الجلالة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ كذلك بلفظ الجلالة ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فليقل ما ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. فكلامهم مردودٌ إليهم وليكن اتكالك ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يكون مع المتوكّلين عليه. جاء في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلِيَّ أنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ"(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أَذنَب عبْدٌ ذَنْبًا فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِم أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ ربِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِرْ لِي ذَنبي، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالى: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ"(٣).

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا محمد، وأحمد، ونبي التوبة، ونبي الرحمة"(٤). ومن دعائه صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"(٥).

(١) صحيح البخاري ٣٠٢٢.
(٢) رواه مسلم.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

الباب الخمسون

حصاد الشر

[٥٠]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾

﴿وَلَوۡ﴾ افتراضاً وهذا الافتراض يُحفّز المُخيّلة على التخييل ﴿تَرَىٰٓ﴾. المُضارع يُعزّز التخييل، أي تَخيَّل بأنك ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾. والخِطابُ عامٌ مفتوح: ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، سواء في معركة بدر، أو أي موضعٍ آخر، وزمنٍ آخر، فهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بشكلٍ عام، نظير ﴿وَلَوۡ﴾ الافتراضيّة المحفّزة على التخييل. ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، جاءت الكلمة جَمعاً للتوافق مع ﴿يَتَوَفَّى﴾، أي سَيوفّى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ما وُعِدوا به و﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يُنفّذون أمر الله. ولذلك فإن كلمة ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، تُقرّب المشهد إلى المُخاطَب ليتخيَّل الرؤية التي تُبيّنها الآية في جملتها التصويرية التالية: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾. وهذه حال المفلس الذي يرى نفسه وقد جُرّدَ من كلِ شيءٍ بشكلٍ مفاجئ، فعندما كان مقتدراً، لم يحسب حساب أنه ذات يوم سيُمنى بالفلاس، لذلك لا يجد أحداً يُسانده، لأنه لا يجد موقفاً إيجابياً فعله مع الناس. فلا أحد يقف معه في محنته لأنه لم يترك عملاً جيداً في تاريخه. فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، لا أعمال طيّبة لديهم حتى يرونها يوم القيامة، يوم الحصاد الأكبر، وأن كل ما كان في الدنيا قد أصبح بحكم الماضي الذي مُحِقَ عنهم. وفي هول هذه المُباغَتة التي وجدوا أنفسهم فيها لا يملكون سوى أن ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾. وهذا ما يُعزّز فعل المُضارع الذي بدأت به الآية

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، إذن، تَخَيَّل هذا كله الذي سيحدث. فإن كنتَ مؤمناً، فتكون على علمٍ مسبقٍ بذلك، فتحذر الكفر، وإن كنتَ كافراً، فتؤمن بهذه الحقيقة وتُصلح من شأن نفسك حتى لا تكون من هؤلاء الذين﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾. وقد مُنيوا بالخسارة الأكثر فداحة. تختتم الآية بِما يؤول إليه هؤلاء الذين لا يتّعظون، بل يستهزؤون بآيات الله التي تُبيّن هذه الحقائق، ويزدادون كفراً وتمادياً ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وجاءت كلمة ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾، مروعة في هذا المقام، ولذلك فإن مرادفات الكلمات في عموم التنزيل، ترد منضبطة في مواضعها، متوافقة مع أجواء كل آية، فهنا ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾، أكثر قرباً للمخيّلة من النار، فيمكن لك أن تتخيَّل النار لو كانت بدل ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾، لكن ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾، يجعلك تتخيَّل النار، ثم تتخيَّل كيف أن هذه النار تتعاظَم وتسعر وتُصبح حريقاً، فأنت تتخيَّل النار، لأن لا حريق دون نار، وأي حريقٍ فإن أساسه النار، ثم إنك تتخيّل كيف أن هذه النار باتت تحرق، وتتحوّل إلى حريقٍ عظيم، فثمّة ما يُحرَق في هذا ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾. لكن لماذا هذا كله وما المقصَد من هذه الآية؟ المقصَد هو أن يكف الظالم عن الظلم، أن يمتنع القاتل عن سفك الدماء، أن يتوقّف السارق عن السرقة، يرتدع الزاني عن انتهاك الأعراض. أي أن يتحوَّل إنسانٌ يقف على تاريخ من الفساد إلى إنسانٍ صالح، لأن التجاوزات التي يرتكبها الذين ينتهكون محارم الله هي مروعة. فحتى لو رأوا طفلاً يذهب إلى الحانوت بفرح العالم ليشتري قطعة حلوى، وهو يشعر بأنه سيشتري العالم كله بالمبلغ البسيط الذي أخذه من أبيه، أو يكون عائداً من المدرسة إلى البيت فهم لا يرتدعون من خطفه والاعتداء عليه، أو يبيعونه شيئاً فاسداً، فيأكله ثم يتم إسعافه إلى الطبيب، أو بعض التجّار الذين يصنعون مواداً غذائية تحتوي على مواد حافظة زهيدة الثمن، حتى يحقّقوا ربحاً أكثر، ولكنها بعد بعض الوقت تتحوّل إلى موادٍ مُسَرطنة نظراً لرداءتها، وهم يعلمون ذلك ولكنهم يستمرّون فيه، أو يمتهنون بث الفتن والإشاعات على الأبرياء. فهؤلاء ينفلتون من كل خصلةٍ إنسانية في الإنسان،

ويتحوّلون إلى وحوشٍ ضارية تفتك بأبناء وأعراض وممتلكات الناس. ولذلك جاء التحذير شديداً نظيراً لشدّة انتهاكات ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله، ثم بكل خصلةٍ إنسانية حميدة، فأجازوا لأنفسهم انتهاك كل الحرمات. إذن ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ يامَن أصبحوا الآن ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾.

الباب الواحد والخمسون

عدل الله

[٥١]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾

تحصدون نتائج ما زرعت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾، ولا تحصدون ذرّة واحدة لم تزرعوها، فهذا هو زرعكم، وهذه هي بضاعتكم ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام: ٣١]. فلا أحد يُظلَم قيد أنملةٍ واحدة، فلا يوجد مظلومٌ واحدٌ قط في عدالة الله. ولذلك جاءت الجملة الثانية من الآية عامة، رغم أن الجملة الأولى خاصة بالكفار ﴿وَ﴾ اعلموا أيها الناس في كل زمانٍ ومكان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. يعدكم الله بأنه لا يظلم أحداً. وأن العقاب يكون للمصرّين على الذنوب ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠] فرغم كل ما بدر منكم من انتهاكات وتجاوزات على حدود الله، فإن تبتم وأصلحتم وتوقّفتم عن أذى الناس، فإنكم تجددون ﴿ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود: ١١٤] عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن له نفحات من رحمته"(١). وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "التوبة تجبّ عما قبلها".

---

(١) رواه البيهقي.

الباب الثاني والخمسون
الأخذ بالذنوب

[٥٢]

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾

الآيتان السابقتان، دَعَتا إلى تحفيز المُخيّلة من أجل تفادي ذلك وصلاح الأمر، فذلك سيقع لا محالة، إذا استمرّ أهل الطغيان في طغيانهم، واستكبروا على آيات الله، وادّعوا أن ذلك لا يعنيهم بشيء، ويستهزؤون بآيات الله، وكذلك بِمَن يؤمن بها.

الآن، تورد الآية أمثلة وقعت بالفعل، ورآها الناس رأي العين في الدنيا، ووثّقها القرآن، كما وثّقتها الآثار الإنسانية.

﴿كَ﴾ على ﴿دَأْبِ﴾ خُطا ﴿ءَالِ﴾ أهل وأتباع (كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فِرْعَوْنَ). كذلك على خطا ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَن خطا ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ خطوهم، وحذوا حذوهم، هؤلاء جميعاً: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، من قَبل كفّار مكّة الذين حارَبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه رضي الله عنهم، في معركة بدر. وكذلك أي كافرٍ يستهزئ بالقرآن، أو يشنّ الحملات المُغرضة على مؤمنٍ صالح، أو يقاتله، أو يؤذيه سواء مادياً أو معنوياً.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، كما أن الله أخذ أولئك ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، أخذ عزيزٍ مُقتَدر، فإنه قادرٌ أن يأخذ مَن يحذو حذو أولئك الدأب أيضاً أخذ عزيزٍ مُقتَدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

فعندما يصلح الإنسان، ويتنازل عن استكباره، ويندم عن استهزائه، فإن الله يقبل التوبة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥]. لكن الإنسان إذا عانَد وأصرّ على الطغيان، واشتدّ كفراً وتمادياً وطغياناً، فليعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. فلا قوّة بوسعها أن تقف أمام قوّته ووقوع عقابه الشديد على الكفّار سواء في الدنيا، أو في الآخرة.

الباب الثالث والخمسون

التغيير والتغيير

[٥٣]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾

وقع ﴿ذَٰلِكَ﴾ مع فِئَتَي الإيمان والكفر، وسيقع ﴿ذَٰلِكَ﴾ على فِئَتَي الإيمان والكفر في كل زمانٍ ومكان.

وهذا عهدٌ من الله بأنه سيديم عليكم نعمته ما دمتم تشكرون، ولا تبطرون، وإن أخذَ ﴿نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا﴾ عليكم، فاعلموا بأنكم أنتم تسبّبتم في أخذها منكم، لأنكم بطرتم، وتماديتم، وفجرتم بها، فاستردّ منكم النعمة التي أسأتم استخدامها، حتى يعيقكم عن التمادي في الجور، ويبطئ حركتكم، لعلّكم ترشدون.

وإن رشدتم، يُغيّر الله كذلك نقمته عليكم إلى نعمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

فإن كنتَ ترفل في ﴿نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا﴾ الله عليك وأنت في صلاحٍ من أمرك، أدامها الله عليك، وإن كنتَ في نقمة، وغيَّرتَ ﴿مَا﴾ بنفسك من الفساد إلى الصلاح، أبدلكَ الله تعالى، النقمةَ نعمةً. ﴿وَ﴾ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ اعلم ﴿أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لكل ما تقول من كلام، ﴿عَلِيمٞ﴾. بكل ما تفعل من أفعال، ووفقما تتغيَّر، يُغيِّر الله عز وجل. وهذه قاعدة قرآنية ثابتة في كل زمانٍ ومكان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

و﴿ذَٰلِكَ﴾ بمثابة عهد من الله إلى الإنسان، وفي كل زمانٍ ومكان، فإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لقول قائل، ﴿عَلِيمٞ﴾ لعمل عامل.

الباب الرابع والخمسون

جزاء الظلم

[٥٤]

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ولكم عبرة في ﴿ذَٰلِكَ﴾، ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، هؤلاء الذين أغدقنا عليهم النِّعَم، ولكنهم بطروا بها، و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أتى بها الأنبياء والرسل إليهم.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

فهذه الذنوب هي التي تَسَبَّبَت في حرمانهم من النعمة، واستبدالها بنقمة الله عليهم، وبذلك لقوا الهلاك. فهذا كان بالنسبة لِمَن كانوا من قبل ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿وَ﴾ بعد ذلك اتّبعهم ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في التكذيب ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾. لذلك جاء مُفتَتَحُ الآية دقيقاً للغاية، ومُتعاضداً مع السياق: ﴿كَدَأْبِ﴾، بمعنى كما دأَبَ المُكذّبون من قبل، دأَبوا على خُطاهم. فالذي يدأب، هو الذي يستمرّ، ففلان يواظب على هذا العمل بشكلٍ دؤوب، أي هو مستمرٌّ في مواظبته على عمله.

فالآية هنا، تُحذّر من الدأب على خُطا ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كذلك على خُطا مُشركي مكّة الذين دأبوا دأبهم، وكذلك أردفوا مسيرة الدأب فيما بعد. فهؤلاء جميعاً، سيلقون الهلاك نتيجة دأبهم على الذنوب والتكذيب بِما جاء في القرآن من آيات الله.

ولذلك، فهي آية الماضي، وكذلك فهي آية كل حاضرٍ في حاضره، وآية كل مستقبل عندما يُصبح حاضراً.

لماذا؟ لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾، هو عهدٌ قاطعٌ من الله سبحانه وتعالى إلى إنسان كل زمانٍ ومكان. فلا يكون لديك أي اعتقاد بأن الإنسان الشرّير، سواء أكان فرداً، أو جماعةً قد انتصر على الإنسان الخيّر، سواء على المستوى الفردي، أو الجَماعي، لا في أي ماضٍ، ولن يكون في أي حاضر، ولن يحدث ذلك في أي مستقبل.

فالله عز وجل، يُسلّط على أهل الشر، أعمالهم الشرّيرة ذاتها ليهلكوا بها، فيكون العِقاب من نسيج المعصية. فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾. والله أعلم.

فجاءت الجملة التالية ضمن ذات السياق: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

جاء هنا ذكر ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، وهم نموذج لبيان مدى إمهال الله للمتمادين والمنتهكين حدوده. فقد أغدَقَ الله تعالى على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ومَن معه بأشكال وألوان النِّعَم، وجعلهم مُتمكّنين في الأرض، ولكنهم بطروا وطغوا حتى أن ﴿فِرْعَوْنَ﴾، بلغ مرحلة من الطغيان، ادّعى فيها الألوهية ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

ورغم ذلك كان الله سبحانه وتعالى يُمهله كي يصلح، وقد أرسل له بصفةٍ خاصة رسولَين أخَّين قائلاً لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ولكنه ما تذكّر، وما خشي، واستهزأ بالقول الليّن الذي سمعه: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾. والغرق هنا لـ ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وآله.

ولمزيدٍ من توضيح سبب غضب الله ونقمته، اختُتِمَت الآية بـ: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾. والكلمة الأخيرة فيها بيانٌ جَلي بأن أي عقاب ومهما رأيته شديداً على ظالمٍ ما، فاعلم بأنه هو الذي ظَلَمَ نفسه، وأن الله تعالى، لا يظلم مخلوقاً قط مثقال ذرةٍ.

فبيَّن الله بأن هؤلاء قولاً وفعلاً وممارسةً ملموسة، وبأدلّةٍ وبراهين ثابتةٍ ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾.

﴿كَانُواْ﴾ يُمارسون الظلم بأشكاله وألوانه بِما استطاعوا وتمكّنوا، سواء تلك التي علمها الناس عنهم، أو لم يعلموها، وعند الله علمها وتدوينها جميعاً.

الباب الخامس والخمسون

شر الكفر

[٥٥]

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ الكافر المُصرّ على كفره، هو أكثر الناس شرّاً، وعليك أن تتوقّع منه أغلظ أفعال الشر.

قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، يعني أكثر الناس شرّاً، ولذلك جاء وصفهم بـ ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، أي أكثر الحيوانات المُفترسة شراسةً. لأن الإنسان عندما يُصرّ على الكفر، يكون قد تجرَّدَ تماماً من كل خصلةٍ إنسانيةٍ فيه.

فهذا الإنسان، لا وجود لله في حياته، ولا يعتبر لله تعالى أي اعتبار. فإذا تفرَّدَ وحشٌ مفترسٌ بإنسانٍ، حتى لو كان طفلاً صغيراً، فإنه سيفتك به، ولا يردعه عن ذلك شيء، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان الكافر، فإنه يفتك بهذا الطفل الصغير، وربما بشكلٍ أكثر شراسة من ذاك الوحش.

وهذه حقائق موجودة تحدث في كل زمانٍ ومكان، مثل ماشطة ابنة فرعون التي سكبوا الزيت الحار على أطفالها أمام عينيها لأنها آمنت بوحدانية الله، وكان أبو جهل عندما علم بإيمان امرأةٍ لم يتردّد من قتلها بطريقةٍ شرسة من خلال وضع الحربة في قبلها، ولذلك عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم، وَصَفه بأبي جهل، وهو المعروف بأبي الحكم، ومن يومها فقط الذين كانوا معه ينادونه بأبي الحكم، أما بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه رضي الله عنهم، فهو أبو جهل.

والشريرون يتوارثون نزعة الشر عن بعضهم البعض، وبذلك يتواجدون في كل مكان، وقد كشفت بعض الدراسات النفسية عن هذه النزعة التي بيّنها القرآن، حيث تبيَّنَت في هذه الدراسات أن بعض الناس يجدون متعة ولذّة وهم يقومون بتعذيب

الآخرين، وهذه النزعة تُعرف بالنزعة السادية، حيث ينتشي الشخص السادي بقدر ما يُسبّب الألم لشخصٍ ما، وهذا الألم لا يكون نفسياً، بل عضوياً، حيث يقوم هذا الشخص الممتلئ بهذه النزعة العدوانية بالتعذيب بنفسه.

ويوجد في أمستردام متحف اسمه (متحف التعذيب) يحافظ عليه الناس كوثيقة إدانة عمّا كان يجري سابقاً، وكإشارة بأن النور لا يأتي إلّا بعد الظلمة.

في هذا المتحف حدثت أفظع الانتهاكات بحقوق الإنسان في أوربا، ومن ذلك ما تم الحفاظ عليه في هذا المتحف من آلات بالغة القسوة، مثل وجود طوق حديدي كان يتم به الضغط على الحنجرة، وكرسي حديدي مليء بالمسامير يُربط إليه السجين، وجود شوكة لها طرفان مدببان، الأول يوضع أسفل الذقن والآخر على عظمة قريبة منها، وعند إبداء أي حركة، تنغرز الشوكة في الجسد، وتمثال حديدي يوضع فيه المُعتقَل.

ومن وسائل التعذيب الأخرى الموجودة في هذا المتحف، سرير معلق فيه تروس من كل ناحية، ويمكن بذلك بعثرة أعضاء الإنسان بطريقة بالغة القسوة، وتوجد براميل تم إعدادها لغرق الأشخاص بشكلٍ بطيء، وكذلك توجد مشنقة، وتوجد مقصلة، وبلطة يلقى بها الشخص أشدّ ألوان التعذيب، وغير ذلك ممّا اخترعه أهل الشر، لكن انتصر الخير، وبقي ذاك المتحف للتذكير فقط.

عندما نتحدث عن ممارسة سلوك الخير، فإن الحديث تلقائياً يطرح قضية ممارسة سلوك الشر، وكما تجد في أماكن مضيئة شريرين، فيمكنك أن تجد حتى في أماكن دامسة الظلام أناساً خيرين.

عندما تكون في مكانٍ ما وترى شخصاً يبتسم فتشعر بأنك تبتسم معه، وعندما ترى شخصاً نجح في مشروعٍ قام به فتشعر بأنك نجحت، عندما ترى منظراً بهياً فتنعش حواسُك، أو أنك عندما ترى شخصاً يتألم فتتألم معه، وعندما ترى شخصاً أخفق في مشروعٍ قام به فتحزن معه، أو عندما ترى منظراً مؤلماً فتستاء.

هنا يمكن أن تبلغ الإشارة الأولى من إشارات شخصيتك الموجبة.

وإن رأيتك تدري أو لا تدري تميل إلى رفاق سوء، لا تحزن أمام شخصٍ أصابته مصيبة، تميل بطبعك إلى إثارة ثغرات بين شخصين مُحبَين، تشعر بظفرٍ عندما يخفق الآخرون في أعمالهم، لا تزيح أذىً عن طريق، يعتريك ضيقٌ أمام شخصٍ يضحك.

فاعلم بأنها إشارة أولى من إشارات شخصيتك السالبة.

يمكن لك وأنت في ذروة يأسك أن تعثر على شخصٍ موجبٍ يُبدّد عالماً من الظلام و يُحيله إلى شروق وربيع عامر بكل أطياف الطيور والورود.

الإيجابيون هم الذين يجعلون من الحياة مادة قابلة للعيش، إنهم مصابيح الهدى، ما يهم هنا هو أن صفحات النزعة العدوانية تروي بأن الانتصار دوماً يكون إلى جانب الخير، وأن أهل الشر يذهبون بذكرهم السيئ ودوماً تبقى الشمس ساطعة على جنود الحق الذين يسعون لتحقيق الخير والنفع للناس جميعاً.

لقد مارس الإنسان أشكالاً مختلفة من ألوان الشر، فكانت النتائج متفاوتة، وفي نهاية المطاف فإن كل من يحارب الإنسان ينتهي نهاية فاجعة في هذا التاريخ.

وقد شهد العالم الحديث حربَين عالميتَين، وبعض الحروب الإقليمية، أدّت إلى مقتل نحو مئتَي مليون إنسان خلال نحو قرنٍ واحدٍ فقط.

وفي زماننا وقائع مروعة مثل قتل الناس بطرقٍ غايةٍ في القسوة، أو قصف أبنيةٍ سكنية آهلةٍ بالسكّان في ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل على رؤوس سكّانها، أو الانتقام من أشخاصٍ بوضعهم في السجون وتركهم دون طعامٍ وشراب، أو اختطاف أطفالٍ من أمام بيوتهم والاعتداء عليهم وقتلهم.

وبعد، فما الذي بقي من التاريخ غير سوء الذكر لأهل الشر الذين دخلوا الحياة مدخل سوء وخرجوا منها مخرج سوء، إلى جانب الذكر الطيب لأهل الخير الذين دخلوا الحياة مدخل طيب وخرجوا منها مخرج طيب.

إن أهم انتصارٍ يحققه الإنسان يكون في انتصاره على قوة الشر الغير محدودة لديه، فيتكلل الإنسان بطلاً حقيقياً عندما يتمكن من السيطرة على نزعاته العدوانية.

هذه الآية الكريمة تُحذّر من هؤلاء الذين لا يقفون أمام حدود الله، فإذا قيل لك أن وحوشاً ضاريةً قد دَخَلت المدينة، فسوف تكون على حذرٍ شديد، كذلك فإن الآية الكريمة تُخبرك بأن مِن الناسِ مَن هم أكثر شراسة في الطرقات، قد يتصيّدون ابنك، ابنتك، زوجتك، يتصيّدونك، فكن على حذرٍ شديد.

وهذا ليس محض كلام، لأن القرآن لا وجود لمحض الكلام فيه، بل إن كل ما فيه إنما هو حقائق وبَيّنات في حقائق وبيّنات. فَوَصَفَ الله سبحانه وتعالى هؤلاء بـ ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾. والكلمة من (أشرّ)، أي أشرس وحوش الأرض فتكاً: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. فمادام قد ﴿كَفَرُواْ﴾، فقد حق عليهم القول بأنهم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾.

فإذا كان الله يقول بأن هؤلاء عنده هم: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾. فهل يجوز لعاقلٍ أن يأمن هؤلاء على عرضه، أو ولده، أو ماله، أو سرّه، أو لا يكون على حذرٍ منهم.

وهناك أمرٌ هامٌ للغاية في هذا البيان، وهو ألّا تغرّك المظاهر، فقد يتزيّا الشرير بزي الخيّر، يتزيّا الخائن بزي الأمين.

وكم من أناسٍ أصبحوا ضحايا للمظاهر، كم من امرأةٍ غَدَت ضحيّة لرجلٍ تزيّا بزي الإخلاص والمحبة حتى دمّرها تدميراً، وقد يكون التدمير، أنه تسبّب لها بأمراضٍ قَضَت عليها، أو أنه شوّهها نفسياً وجعلها امرأة سوداوية، محتقنة، متشائمة، عبثيّة، بعد أن كانت قبل معرفتها به، سويّة، متفائلة، طيّبة، ممتلئة بالحيوية، مشرقة كوردة، عفيفة، نقيّة كالماء.

وقد تقدّم معنا في الآية ٢٢: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾. لأن وصف الإنسان الكافر بـ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾، يجعله أصمّاً وأبكماً، كما الأمر بالنسبة للدواب التي هي كائنات غير عاقلة، ولذلك جاء وصف الآية دقيقاً: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾. لأنهم يتمتّعون بعقولٍ، إلّا أنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ بها، ولا ينتفعون بنعمة العقل الذي خصّهم الله تعالى، وأكرمهم به.

فإذن، هم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾. عن عقل، أي ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ بعقلهم، ويستطيعون أن يعقلوا، وكل الإمكانات مُتاحة أمامهم كي يعقلوا، غير أنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾. تمادياً

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

فالثقة تكون بالإنسان المؤمن الصادق في إيمانه، فهو خُلاصة ذرّية آدم عليه السلام، ولا يمكن له بأي حالٍ من الأحوال أن يخذلك مادام مؤمناً بالله.

لا يمكن لرجلٍ أن يُسبّب جرحاً لامرأةٍ أحبّته وأخلصت له مادام مؤمناً، وفقط، فقط عندما لا يكون الإنسان مؤمناً، لا تردعه حدود الله. ودوماً فإن الإنسان يصلح بالإنسان، وكذلك يفسد بالإنسان، ولا أحد للإنسان غير الإنسان بتوفيقٍ من الله.

تذكّر هذا البيان الإلهي جيداً، وليكن ذلك ذخراً في حياتك: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾. أجل ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ذلك أن اللاإيمان كفيلٌ بأن يجعل من الإنسان ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾. كما أن الإيمان كفيلٌ بأن يجعل من الإنسان خلاصة للخير.

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: "بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ"، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ"(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ"(٢).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٠٣٢.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٥٧.

الباب السادس والخمسون

نقض العهد

[٥٦]

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾، بعطفٍ على ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، ﴿مِنۡهُمۡ﴾ وبكونهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: يسهل عليهم أن: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾.

وذلك من مفرزات اللاإيمان، فمن الطبيعي أن اللاإيمان يؤدّي ضمن ما يؤدّي إلى نقض العهد ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾.

فتبيّن الآية أن لا عهد للكافر إذا عهد، ثم أضيف: ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾. فترشدك الآية وتبيّن لك بأن الإيمان يؤدّي بالمؤمن إلى التقوى، والتقوى تؤدّي به إلى الوفاء بالعهد.

والكلام في الآية موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾، الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أخذتَ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عهداً يا محمد.

وجاء عن ابن عباس، وقتادة بأن المقصود هم قريظة، فقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأنهم لا يحاربوه، وكذلك لا يُعينوا عليه عدوّه، لكنهم نقضوا هذا العهد، وأمدّوا المشركين في يوم بدر بالسلاح والعدّة، وبعد أن فعلوا ذلك، قدّموا اعتذارهم وقالوا: (نسينا وأخطأنا). وجدّدوا عهدهم بألّا يعودوا إلى ذلك، ولكنهم أيضاً نكثوا عهدهم يوم الخندق، ووقفوا إلى جانب الأحزاب، وأمدّوهم بالسلاح والأدراع.

فهذه العلاقة بين المؤمن والكافر قابلة للتكرار في أي زمانٍ ومكان، لأن العلاقة هي بين الإيمان والكفر، بين كل مؤمنٍ، وكل كافر. وأسباب النزول، هي أمثلة كحالاتٍ قابلةٍ للتكرار لأجل الحيطة والعظة.

الباب السابع والخمسون

التثقف والذكرى

[٥٧]

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

عندما تحيط بشيءٍ فتكون قد ثَقَفتَ به، وأصبحتَ مُثَقَّفاً به، فيُقال للشخص الواسع الاطِّلاع، الكثير القراءة بأنه شخصٌ مُثَقَّفٌ، لأنه ملمٌّ بعلوم ومعارف عديدة، لذلك فهو يُسأل، ويُستشار، ويُتَحَقَّق منه، كونه مُحيطٌ بالكثير من المعارف والمعلومات في أمورٍ شتّى.

وفي زماننا، أصبحت هناك وزارات ثقافة، وهذه الوزارات تتفرَّع منها مراكز ثقافية، فتكون مهمّتها نشر العلوم والمعارف في الناس. فترى هذه الأماكن مكتظّة بالمؤلَّفات من مختلف العصور، ومُتَرجمة من مختلف اللغات، وتعير هذه المؤلّفات للناس، كما أنها تستدعي أهل العلم والفكر والأدب والفن حتى يُقيموا أنشطة ثقافية، ويدعون الناس إلى حضورها. فهي أماكن نشر الثقافة بامتياز، ولذلك سُميّت وزارات الثقافة، ومراكز الثقافة. إذن، الكلمة هنا دقيقة ومنفتحة، وأتت في صميم المعنى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾، تثقفنَّ مَن؟ تثقفنَّ الذين يأتون إلى محاربتك: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾. كلمة ليّنة، في ظرفٍ قاسٍ، لأن الحرب تعني القتال، والثقافة تعني الرقي. وهنا وقع المفسّرون في إشكالٍ كبير، فكان تفسيرهم لـ ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، بمعنى تأسرنّهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾. تقبض عليهم، وتتمكَّن منهم، وعندها استمرَّت هذه التفاسير في إجماعٍ بأن ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾، تعني اقتلهم ونكِّل بهم حتى يكونوا عبرة لِمَن يحذون حذوهم. وكل التفاسير التي تيسَّرَ لنا الاطلاع عليها، أجمَعَت على هذا المعنى. وكنموذج، يقول الرازي: (اعلم أنه تعالى تارة يرشد

رسوله إلى الرفق واللطف في آيات كثيرة. منها قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ومنها قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وتارة يرشد إلى التغليظ والتشديد كما في هذه الآية، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، بين ما يجب أن يعاملوا به فقال: ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ قال الليث: ثقفنا فلاناً في موضع كذا، أي: أخذناه وظفرنا به، والتشريد عبارة عن التفريق مع الاضطراب. يقال: شرد يشرد شروداً، وشرده تشريداً، فمعنى الآية أنك إن ظفرت في الحرب بهؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلاً يفرق بهم من خلفهم.

قال عطاء: تثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم، وقيل: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لعل من خلفهم يذكرون ذلك النكال فيمنعهم ذلك عن نقض العهد، وقرأ أبو حيوة من خلفهم، والمعنى: فشرد تشريداً متلبساً بهم من خلفهم لأن أحد العسكرين إذا كسروا الثاني، فالكاسرون يعدون خلف المكسرين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشردهم في ذلك الوقت).

ويقول ابن كثير: ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أَيْ تَغْلِبهُمْ وَتَظْفَر بِهِمْ فِي حَرْب ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أَيْ: نَكِّلْ بِهِمْ.

قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ وَعَطَاء الْخُرَاسَانِيّ وَابْن عُيَيْنَة وَمَعْنَاهُ غَلِّظْ عُقُوبَتهمْ وَأَثْخِنْهُمْ قَتْلًا لِيَخَاف مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاء مِنَ الْعَرَب وَغَيْرهمْ وَيَصِيرُوا لَهُمْ عِبْرَة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ وَقَالَ السُّدِّيّ يَقُول لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُصْنَع بِهِمْ مِثْل ذَلِكَ).

ويقول أبو السعود: (وقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ شروعٌ في بيان أحكامِهم بعد تفصيلِ أحوالِهم والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فإذا كان حالُهم كما ذكر فإمّا تصادِفَنَّهم وتظفَرَنَّ بهم ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أي في تضاعيفهم ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم﴾ أي ففرِّقْ

عن مناصبتك تفريقاً عنيفاً موجباً للاضطرار والاضطراب ونكِّلْ عنها بأن تفعل بهم من النِّكاية والتعذيبِ ما يوجب أن تُنَكّل ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي مَنْ وراءَهم من الكفرة، وفيه إيماءٌ إلى أنهم بصدد الحرب قريبٌ من هؤلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضِين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر).

ويقول الألوسي: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والثقف يطلق على المصادفة وعلى الظفر، والمراد به هنا المترتب على المصادفة والملاقاة، أي: إذا كان حالهم كما ذكر فأما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾ أي في تضاعيفها ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ أي: فرق بِهِم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: من وراءهم من الكفرة، يعني افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك فعلا من القتل والتنكيل العظيم يفرق عنك ويخافك بسببه من خلفهم ويعتبر به من سمعه من أهل مكة وغيرهم، وإلى هذا يرجع ما قيل: من أن المعنى نكل به ليتعظ من سواهم، وقيل: إن معنى شرد بهم سمع بهم في لغة قريش، فالمعنى افعل التشريد من ورائهم، وهو في معنى جعل الوراء ظرفًا للتشريد لتقارب معنى مِنْ وفي تقول: اضرب زيدًا من وراء عمرو وورائه أي في ورائه، وذلك يدل على تشريد من في تلك الجهة على سبيل الكناية فإن إيقاع التشريد في الوراء لا يتحقق إلا بتشريد من وراءهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لعل المشردين يتعظون بما يعلمونه مما نزل بالناقضين فيرتدعون عن النقض قيل أو عن الكفر).

ويقول الشوكاني: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: فإما تصادفنهم في ثقاف، وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها، وتتمكن من غلبهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: ففرّق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك، ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. والثقاف في أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها، يقال ثقفته: وجدته، وفلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، والتشريد: التفريق مع الاضطراب. وقال أبو عبيدة [**شرد بِهِمُ**] سمع بهم.

وقال الزجاج: [افعل بهم فعلاً من القتل تفرّق به من خلفهم، يقال شردت بني فلان: قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها].

ويقول ابن عاشور: (والثقف: الظفر بالمطلوب، أي: فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب، أي: انتصرت عليهم.

والتشريد: التطريد والتفريق، أي: فبعّد بهم من خلفهم، وقد يجعل التشريد كناية عن التخويف والتنفير.

وجعلت ذوات المتحدّث عنهم سبب التشريد باعتبارها في حال التلبّس بالهزيمة والنكال، فهو من إناطة الأحكام بالذوات والمراد أحوال الذوات. وقد علم أنّ متعلّق تشريد ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ هو ما أوجب التنكيل بهم وهو نقض العهد.

والخلف هنا مستعار للاقتداء بجامع الاتّباع، ونظيره (الوراء).

والمعنى: فاجعلهم مثلا وعبرة لغيرهم من الكفار الذين يترقّبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض عهدهم فيفعلون مثل فعلهم، وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنّه يصدّ أمثالهم عن النكث ويكفي المؤمنين شرّ الناكثين الخائنين. وضمير الغيبة في ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ راجع إلى ﴿مِن﴾ الموصولة باعتبار كون مدلول صلتها جماعة من الناس.

والتذكّر تذكّر حالة المثقفين في الحرب التي انجرّت لهم من نقض العهد، أي لعلّ من خلفهم يتذكّرون ما حلّ بناقضي العهد من النكال، فلا يقدموا على نقض العهد، فآل معنى التذكّر إلى لازمه وهو الاتّعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التذكر وإرادة معناه الكنائي وغلب فيه).

وقد أصبحت هذه التفاسير حجَّة بأيدي أهل التشدّد والغلو، فتسبَّبت في سفك دماء أعداد هائلة من الناس، حيث تمخَّضَت عن هذه التفاسير، فتاوى أجازت ارتكاب الفظائع اللاإنسانية بحق الإنسان، وبذلك فقد تحوَّلت سورة الأنفال الكريمة، إلى سورة دموية بامتياز وفق هذه التفاسير، والفتاوى التي تمخَّضَت عنها. ولم تقتصر هذه الانتهاكات على غير المسلمين فقط، بل بات المسلمون يفتكون

ببعضهم البعض أيضاً وفق هذه التفاسير، بل إن بعض هذه الانتهاكات الدموية المروعة، حَمَلت اسم هذه السورة الكريمة، فتم القضاء على الآلاف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ بأسلحةٍ كيماوية فتّاكة، وفق حملات إبادة جماعية ممنهجة. وهذا أمر طبيعي لِمَن يجيز الاعتداء على غير المسلمين بالأصل، ويدعو إلى قيادة العالم، وسحق كل مَن يعيقهم عن ذلك. وهذه الأفكار تسرّبت حتى إلى التفاسير الحديثة، حيث أخذت تُردّد ما قد قيل، فهي تدعو إلى الجهاد في بلاد الغرب، وكذلك انتفاضة الشعوب على الحكّام في ديار المسلمين، وتأسيس جماعة إسلامية تقود المسلمين جميعاً إلى هذا الجهاد. وهذا ما نجده كثيراً في عمل سيد قطب (في ظلال القرآن) على سبيل المثال، فالإسلام عليه أن يقود الدولة أولاً، ولا يكتفي بذلك، بل يقود العالم، ولا بدَّ من مواجهة كل مَن يتوقَّف في وجه هذا المد الإسلامي، أي على العالم جميعاً أن يستسلم، ويعتنق الإسلام رغماً عنه. وقد وجد هذا العمل قبولاً عند كتابته في تلك المرحلة لدى بعض الفئات الشبابية التي تميل إلى فكرة المواجهة الفعلية مع الحُكَّام، وتستخدم السلاح، وتنتزع الحاكِم بقوَّة السلاح من منصبه، ثم يتولَّى أحد قياديي الجماعة المسلمة الحكم في البلاد، على أساس أنه سوف ينطلق من بلاده نحو أسلمة العالم، والقضاء على كل مَن يتوقَّف أو يعيق هذا المَد بأي شكلٍ من الأشكال.

جاء في حديثه عن سورة الأنفال: (كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية. وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة، والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد، ولا يراعون هذه السمة فيه، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها، الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً، ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية. ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين. ويقولون - وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت

ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان -: إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته. ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة.. بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها). كذلك: (إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين، إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور، أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور، ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله، إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد). كذلك: (إن الجهاد ضرورة للدعوة إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري السلبي! سواء كان الوطن الإسلامي - وبالتعبير الإسلامي الصحيح: دار الإسلام - آمناً أم مهدداً من جيرانه. فالإسلام حين يسعى إلى السلم، لا يقصد تلك السلم الرخيصة، وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية. إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله. أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله، والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله). كذلك: (إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا

على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامي أولاً، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيراً، وليمنع كائناً من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد.

إنها طبيعة هذا المنهج التي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصبة المسلمة. إن هذا الدين لا بد له من هيبة، ولا بد له من قوة، ولا بد له من سطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت حتى لا تقف للمد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان في الأرض من كل طاغوت.

والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ، في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت، هم ناس لا يعرفون شيئاً عن طبيعة هذا الدين! وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلاً مع المعسكر الإسلامي، وما ينبغي أن يتبع في ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة).

كذلك: (العصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله، تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر، وتقرير عبودية العباد لله وحده. وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية - بغير إذن الله وشرعه - وتخرج لإعلان تحرير الإنسان في الأرض من كل عبودية لغير الله، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته. وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد، وفي إقامة منهجه في الحياة، وفي إعلاء كلمته في الأرض، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه، حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله).

كذلك: (لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها، والأمر الثاني:

أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة، والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها، والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه.

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيماً للشعائر، ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة، يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية. فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني. وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة، ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد).

هذه بطبيعة الحال من الأفكار اليسارية التي تأثّر بها سيد قطب، وهو يرى هذا المد اليساري ينتشر في الأرض، ويستقطب دولاً بأكملها لتعتنق مفهوم هذه الاشتراكية الجديدة. ولذلك أراد أن يستبدل المنهج بالمنهج الإسلامي، وبذلك يكون مؤسّس هذه الاشتراكية الإسلامية الجديدة. وقد رأى الذين والوه بهذه الأفكار التحوّلية الكُبرى، أن ذلك لا بأس به ليكون المنهج في مواجهة المنهج في سبيل انتصار المنهج الإسلامي الإشتراكي على المنهج اليساري الإشتراكي. ولأن الداخل الإسلامي يمنع هذه الانطلاقة بسبب بعض الحكّام الذين لا يريدون الصِّدام مع الغرب من أجل أسلمته بالقوة، فقد بدأت المواجهة المُسلَّحة في الداخل ضد الحُكَّام في بعض الدول، مما أدَّى إلى سفك دماء كثيرة، لأن الحُكّام لا يستسلمون بسهولة، ويدافعون عن مناصبهم بِما أمكنوا. فترتَّبت على هذه المواجهة خسارات جسيمة بين الناس وخاصة في صفوف الشباب المسلم، حيث تمَّت تصفيات

جماعية وفردية بأعداد هائلة من هؤلاء الشبّان، كما أمضى الكثيرون سنوات طويلة في المُعتقلات. وكانت النتيجة أن المد اليساري وجد انتعاشاً أكثر في البلاد الإسلامية، وبدأ بعض الحُكّام ييسّرون أمر انتشار هذا المد، ليس حباً فيه، بل لأنه من شأنه أن يُجنِّب الشباب هذه الأفكار الاشتراكية التي انتشرت من خلال (في ظلال القرآن).

ثم المؤلَّفات التي توالت متأثِّرة بهذا المنهج وداعية له، وهي التي تمخَّضَت عن هذا العمل. وإذا قرأنا هذه الأفكار التي وردت في مؤلف سيد قطب (في ظلال القرآن) بشيءٍ من التأنّي، نرى بأنها عبارة عن انفعالات، وردَّات فعل قوية تصدر من سجينٍ وهو داخل زنزانة، محجوز الحرية بسبب أفكاره. فعلينا أن نأخذ ذلك جيداً بعين الاعتبار، فهذا العمل قد كتبه وهو سجين، أي: ممنوع من ممارسة حريته الشخصية مثل أن يخرج، ويرتدي ما يشاء، بل حتى ممنوع عليه أن يأكل ما يشاء. فكل حياته أصبحت رهن سجَّانيه، ومن هنا كانت هذه التداعيات الانفعالية الساخنة تنتابه فيعبِّر عنها وهو يُفرِّج عن احتقانه. فنرى هذه الدفقات والومضات وردَّات الفعل وهي تصدر من أديب مرهف الحساسية، ولذلك نرى أحياناً بأن السرد يأخذه، كما لو أنه ينسى بأنه أمام تفسير للقرآن، بل يكتب نصاً أدبياً، ويمتلك مقوِّمات التأثير على قارئه. لكن تكمن المعضلة التي تمخَّضَت عن هذا العمل، ففي العمل الأدبي، تعمل المخيِّلة وفق شخصيَّات أدبية مُخَيَّلة، والكاتب يكون في وضعٍ مأساويٍ، فيكتب بقوّةٍ، وبذلك ينتج عملاً أدبياً مميَّزاً وخالداً. لكن هنا الأمر مختلفٌ تمام الاختلاف، فهو أمام كتاب الله، وأمام تشريعٍ إلهي، أي هو هنا يقول بأن الله قال كذا وكذا. والله شرَّع كذا وكذا. أما في النص الأدبي، فإن الأمر يختلف، لأن الشخصيات مهما رأت أو قالت، فإنها لا تُصدر تشريعات كي يلتزم بها القرّاء. إذن فحتى قارئ النص الأدبي، يكون في وضعٍ مختلفٍ عنه، عندما يقرأ القرآن. وهنا حدث الالتباس الكبير مع قارئ (في ظلال القرآن) الالتباس ذاته الذي وقع مع مؤلّفه، وهو في سجنه، لكن القارئ الذي يتلقّى هذا الأفكار، ليس سجيناً، وهو يتمتَّع بكامل حريَّته. ولذلك كان عليه أن يدفع الثمن إذا مضى خلف هذه الأفكار،

وهذا ما حدث بالفعل، لأن هذه الأفكار هي اندفاعات وردَّات فعل، وتخيّلات يريد المؤلف أن ينتقم من سَجَّانيه من خلالها، وبذلك يتخيَّل بأنه سيُفرَج عنه، ويضع سَجَّانه في السجن، ولن يحدث ذلك إلّا من خلال الناس الذين هم على الأرض خارج السجن، فلا بدَّ أن ينتفضوا، ويستخدموا أي وسيلةٍ حتى يُغيِّروا النظام الجائر، لأن الأمر لا يقتصر عليه كشخص، فهو سجينٌ لأفكاره، وليس لشخصه، وبالتالي فكل مَن يُفكِّر بحريَّةٍ على نحوه، سوف يلقى ذات المصير. ولأنه هنا أمام القرآن، فيتم تعميم الحالة على الشرع الإلهي، لأن هؤلاء يمنعون تنفيذ الشرع الإلهي بين الناس.

ولذلك يرى في بعض المواضع من عمله هذا بأنه لن يكتفي بتغيير الأنظمة في الدول الإسلامية فقط، بل حتى في الدول الغربية، لأن حُكَّام تلك الشعوب يمنعون التشريع الإسلامي، وبالتالي يمنعون الناس من إشهار إسلامهم، فهو يدعو إلى إزالة أولئك الحُكَّام أيضاً من خلال المُجاهدين، وبذلك يدعون الناس إلى الإسلام. لكن هذا كله يحدث في المخيِّلة، لأن الواقع يبيِّن بأن العقائد مكفولة في ديار الغرب، والذي يريد أن يعتنق الإسلام، تكون له حرية ذلك، سواء أكان رجلاً، أو امرأة، بل إنهم لا يعترضون حتى انتشار المساجد في ديارهم، ولا يعترضون حتى الدعاة ومختلف وسائل الإعلام من نشر الدعوة الإسلامية بين شعوبهم.

إذن كان العالم كله في مواجهةٍ ساخنةٍ مع هذا المد اليساري، ودخل الإسلام أيضاً في هذه المواجهة، وإن كانت مواجهة الإسلام عقيدية، فإن مواجهة بعض الدول الغربية الرأسمالية هي مواجهة فكرية، لأن هذا المد يريد أن يكتسح الواقع الرأسمالي أيضاً في تلك الدول، وبالتالي يريد تعميم الفكر اليساري الاشتراكي على العالم كله.

لكن مجرَّد هذه الفكرة هي ضدّ الطبيعة البشرية، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٢]. هذا يبيِّن لنا بأن الصراع بين الحق والباطل هو دائم حتى ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، وعندها فقط ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾. لماذا؟ لأن القرآن جاء ليُصلح، وسوف يبقى يُصلح،

والله سبحانه وتعالى غفور، ويبقى يغفر لأن الناس يذنبون، بل إذا أراد الإنسان أن يتوقَّف عن الذنوب، فإنه سيتحدَّى طبيعته البشرية. وفي الحديث القدسي: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقومٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تَعَالَى، فيَغْفر لَهُمْ"(١). لم يقل بقومٍ لا يذنبون، بل بِقومٍ يُذْنِبُونَ لماذا؟ حتى يستغفرون الله تعالى؟ وحتى تمارس المغفرة فعلها، فكل اسم من أسماء الله الحسنى يريد أن يتفاعل مع مضمونه، فعندما لا يذنب الناس، يبقى اسم الله الغفور دون تفاعل. فالناس لهم مشاربهم ومآربهم والله سبحانه وتعالى يفصل بين الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

وجاءت كلمة ﴿شَهِيدٌ﴾ دقيقة جداً، بمعنى أن الله يشهد ويرى، قبل أن تشهدوا وتروا، ولله حكمة في خَلقه. ولا يجوز بأي حالٍ من الأحوال اقتياد الناس بالقوَّة إلى الإيمان، والله سبحانه وتعالى في غنى عن إيمانٍ بلا قناعة، وبالأصل اسمه إيمان، أي قناعة وعقيدة، فكيف يؤمن الإنسان بأمرٍ وهو غير مقتنعٍ به، بل حتى لا يجوز أن توجِّه سباباً بالكلام إلى الذين لا يؤمنون بالإسلام: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فالاكتفاء بالبلاغ دون أن ترغم الإيمان على أحدٍ بالقوة، لأنه حتى لو آمن، فإن إيمانه لا يكون حقيقياً، فحتى العمل الذي يقدِّمه الإنسان عليه أن يكون خالصاً لله سبحانه وتعالى، دون أن يشوبه أي اعتبار آخر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إنّ أَوّلَ النّاسِ يُقْضَىَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّىَ اسْتُشْهِدْتُ،

(١) رواه مسلم.

قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُـمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلّمَ العِلْمَ وَعَلّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟

قَالَ: تَعَلّمْتُ العِلْمَ وَعَلّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ،

قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ،

ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّارِ،

وَرَجُلٌ وَسّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟

قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ"(١).

فالمؤمن يقدِّم طاعةً، ويسأل الله سبحانه وتعالى القبول، ويكون مستنِداً في عمله على الإخلاص الكامل لله، هذا الإخلاص الكامل الذي لا يتحقَّق إلّا عن طريق الإيمان الصادق الذي يكون عن طوع.

الأمر الآخر هو عامل الزمن الذي أدَّى إلى انهيار الفكر اليساري الذي أراد أن يكون شمولياً، وما عاد هناك يسار يمكن أن يكتسح العالم. والآن إذا عدنا إلى قراءة (في ظلال القرآن) قراءة متأنية، نرى كم أن هذه الأفكار تودي بالمسلمين إلى التهلكة، ونحن نرى نتائج ما يحصل في واقعنا، حيث عجز المسلمون من الجهاد في بلاد الغرب، وهذه الاحتقانات أين ستذهب؟ فلا بدَّ من تفريغها، فكان أن تم توجيهها إلى بعضهم البعض. فبات المسلمون يريقون دماء بعضهم البعض، ويستحلّون أعراض وأموال بعضهم البعض، بل ولكونهم عجزوا عن الجهاد في ديار الغرب، فباتوا يتوسَّلون إلى الغرب كي يأتي ويفتك بهم، ويُصبحون جنوداً

---

(١) أخرجه مسلم.

رهن إشارة الغرب. فباتت كل فئة إسلامية، تستقوي بفئةٍ من الغرب، لتقضي على فئةٍ إسلاميةٍ أخرى استقوَت بالغرب أيضاً. والغرب ذاته يُحقِّق هدفَين من هذا التدخّل، أولهما أنه يُبعد المتطرِّفين عن أرضه، ويجمعهم مع بعضهم البعض ليتقاتلوا فيما بينهم بعيداً عنه، لأن الغرب مُطَّلعٌ على هذه الأفكار التي تدعو إلى الجهاد في دياره، وهذه المؤلَّفات والفتاوى ليست خافية عليه، بل وهي تتفاعل من خلال تفخيخ السكك الحديدية، أو اختطاف الطائرات المدنية، أو دهس الناس في الأسواق، أو طعنهم في الأزقَّة، أو تفجير الأبنية، وما إلى ذلك، وهو يُبعد أذى هؤلاء عن دياره. وثانيها أنه يحصل على أموال وخيرات المسلمين الذين يكونون قد انشغلوا في قتال بعضهم البعض، ويستعدّون للتخلّي عن أي شيءٍ، حتى يمدَّهم الغرب بمقوّمات الاستمرار في هذا القتال. وإذا اشتدَّ الأمر بينهم وتفاقم حصارهم على بعضهم البعض، استغاثوا بالغرب كي يتدخَّل ليخفِّف حصارهم عن بعضهم البعض، ويخلوا سبيل رهائن بعضهم البعض.

ثم إن المدنيين العُزَّل أيضاً يستغيثون بالغرب من جهةٍ أخرى كي يُرسلوا الأدوية لمرضاهم، ومعونات من الأغذية لجياعهم، والحليب لأطفالهم، ونصب خيمٍ تقيهم حرارة الصيف، وصقيع الشتاء، بعد أن قصف المسلمون بيوتهم ونجا منهم مَن نجا.

فهذه حقوق الإنسان بصرف النظر إن كنا مسلمين أو غير مسلمين، فتلك من عواقب التفاسير المُغالية للقرآن الكريم، وبشكلٍ أخصّ سورة الأنفال، رغم كل ما تحتويها من القيم الإنسانية.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾. كان يمكن القول: (تأسرنَّهم) ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾. ولكن لماذا بالضبط: ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾؟ لأنها مِن الثقافة، مِن القِيَم الإنسانية، مِن انفتاح الإنسان على الإنسان، مِن تعزيز الحالة الإنسانية في الإنسان، كائناً ما كان، ومُعتَقداً ما اعتَقَد.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾. كان يمكن القول بالقتل. إذا كان المقصد هو القتل: (فاقتلهم). فانظر إلى كلمة ﴿فَشَرِّدْ﴾، ثم إلى ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، ثم إلى الكلمة الأخيرة

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، بتشديد الذال والكاف، وفتحهما. وانظر إلى العلاقة التكاملية الوثيقة بين هذه الكلمات الثلاث. فالثقافة تجعلك تشرد فيما تسمع، ﴿فَشَرِّدْ﴾ مخيِّلَتهم ببيان الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. تحدَّث لهم عن القِيَم الإنسانية ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ من خلال تثقّفك لهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

لذلك جاء ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾. أي: من خلالهم، اجعلهم هم الذين يذهبون إلى ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ويحملون إليهم هذه المفاهيم الصحيحة، ويؤثّرون عليهم بقول الحق، فبقدر ما تنجحوا في تغيير هؤلاء من الداخل بقوَّة الكلمة، سينجحون في تغيير ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، بهذه الكلمة. فيعود الأسير الذي أسرتموه ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ إلى أهله وصحبه، ويُخبرهم عن حُسن تعاملكم معه، كما يحملون إليهم القِيَم الإنسانية السَّمحة التي أمَرَكم بها الإسلام. والخلف هنا إشارة إلى الخلفيّة الضالّة التي يقفون عليها، فأنتَ تُعالج فيهم الخلفيّة الضالّة. ولكن متى هذا الكلام، وهذا أمرٌ بالغ الدقّة؟: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾. عندما يشنّون عليكَ حرباً، ويُمكّنك الله تعالى منهم، ويُنصرك عليهم. فتكون حَسَن التعامل مع أسراك حتى يعودوا إلى ﴿مَّنْ﴾ هم ﴿خَلْفَهُمْ﴾، ويوصلوا إليهم قِيَمكم التي تدعون إليها، فيؤثِّروا بهم، لا أن يتحدّثوا عن تنكيلكم بهم والفظائع التي ارتكبتموها بحقِّهم، فيثوروا عليكم.

أمَّا في حالة اللاحرب، فلا جواز لأسرهم مهما كانوا في ضلال ما داموا لا يشنّون عليك حرباً، ويكونون في ديارهم، أو لعلَّهم يأتون إلى ديار المسلمين للسياحة، أو للعمل، وما شابه. ولذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ بالكلمة الطيّبة، لا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يؤمنون بالقتل والتنكيل.

فهؤلاء قد أتوا لمُحاربتك يا محمد، وأتوا لمُحارَبتكم يا أمّة محمد من بعده، لأنهم يحملون أفكاراً غير صحيحة عنكم. فإن الله - لحكمة منه - مَكَّنَكم منهم، وبطولتكم تكمن في مقدرتكم على تغيير ما في مخيّلاتهم من أفكارٍ سلبيَّةٍ عنكم، وذلك من خلال ما علَّمَكم إياه القرآن من أخلاق ومبادئ إنسانية وقِيَم التسامح.

فإذا نكّلتَ بأبيه، أو أخيه، أو ابنه، أو ما إلى ذلك، فإنَّك تُحرِّضه على الانتقام، وبذلك فإنَّهم كلَّما يرونك، يتذكّروا تنكيلك بهم أو بأهليهم وذويهم، فيسعون إلى الانتقام. وهؤلاء الذين تتحدَّث عنهم الآية، قد نَقَضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ونقضُ العهد حالة غير أخلاقية وغير إنسانية، فأنت عندما تُعامله بحالةٍ أخلاقيةٍ وإنسانية، فإنك في الوقت ذاته تُدينه بِما بَدَرَ منه من نقض العَهد، وتجعله ولو للحظاتٍ يُجري مُقارنةً بينك وبينه. وفي تلك اللحظات الحاسمة قد يحصل له ولِمَن خلفه بعض التغيير ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. أي: يأخذون عبرة من ذلك.

الباب الثامن والخمسون

النبذ

[٥٨]

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

تؤسِّس الآية بُنية شخصيَّة الإنسان المسلم، فما دام قد اقتنع بالإسلام وأصبح مسلماً، فهو يكون ممثِّلاً للقِيَم الإسلاميَّة. فأوَّل ما على المسلم أن يتمتَّع به هو أن يكون واضحاً ومخلصاً وصادقاً وأميناً ومُسالِماً، مع الناس كافةً سواء أكانوا مسلمين، أو غير مسلمين. فلا يجوز له أن يغدر حتى بأشدّ الناس كفراً، أو يكذب عليهم، أو يجنح إلى الرياء والغموض في علاقته معهم، بل عليه أن يكون صريحاً وواضحاً. وتبيِّن الآية أنه يجوز عقد مُعاهَدة بين المسلم، والكافر: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً ﴾. والخيانة لا تكون إلّا من خلال نقض المُعاهدة، فبدون وجود مُعاهَدة، لا توجد خيانة. وإن قلنا عن ﴿خِيَانَةً﴾ وَقَعَت بين طَرَفَين، فلا بدّ أن تكون إحداهما قد نَقَضَت عهداً بينهما. وإلّا، لا ﴿خِيَانَةً﴾، لأن لا مُعاهَدة بالأصل.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً ﴾. لكن لعلّكَ عاهدتَ شخصاً سواء أكان مسلماً، أو كافراً على أمرٍ ما، ثم بدأت الشكوك تحوم حوله بأنه سيخون هذا العهد الذي بينك وبينه، وسيغدر بك. هنا سوف تأخذ الاحتياط، وتعتبر أن العهد ما عاد سوياً بينكما. ثم لعلّك مع بث الإشارات القويّة إليك بأنه مقدمٌ لا محالة ليطعنك من الخلف، ويغدر بك، قد تنجرّ خلف هذه المُعطَيات، فتسبقه بالضربة حتى تردعه عن غدره بك. وهذه نقطة مهمّة تنبّهكَ الآيةُ إليها، فتُخبرك أنه لا يجوز لك فعل ذلك، لأنك ستكون قد خنتَ عهدك مع ذاك الشخص سواء أكان مسلماً، أو كافراً، أو ملحداً، أو ما كان عليه من مُعتَقَد. فلا يدعَكَ الإسلام أن يُسجِّلَ عليك هذه المؤاخذة، أو حتى ينظر إليك نظرة أنك خائن.

فإن تسرَّبَت إليك شكوك حول اتفاقٍ بينك وبين شخصٍ ما ﴿فَانۢبِذۡ﴾ إليه، أخبره وبيّن له بأن الاتّفاق الذي بينك وبينه قد حُل، وهو اعتباراً من الآن، لا وجود له كما لو أنه لم يكن. وجاءت الكلمة مكتنزة ومتفرّعة في دلالاتها، ولكنها جميعاً تصبّ في نهر المَعنى، ﴿فَانۢبِذۡ﴾. أن تنبذ أحداً، أي: تتصرَّف حياله بطريقةٍ تبيّن له بأن ما هو عليه من سلوكٍ، يجعله منبوذاً من الآخرين، لعلّه ينتبه ويُصلح من سلوكه. والمنبوذ هو نقيض المرغوب، لا أحد يأمنه على شيء، والناس جميعاً يتحاشونه لأنهم لا يثقون به من مختلف النواحي، فكيفما قلَّبته، يُتَوَقَّع منه الأذى.

فأنتَ تُعلِم الخائن بأنك علمتَ منه بوادر الخيانة، ولم تترصَّده حتى يأتيك، فتكون كمن يضع له كَميناً، وهذا غير لائق بسلوك الإنسان المسلم، لأنك إذا فعلتَ ذلك، يكون قد استطاع أن يجعلك مثله خائناً، لأن المُعاهدة لا تزال قائمة بينكما، وأنتما لم تعملا بموجبها. ولذلك جاءت كلمة الخوف، وهي هنا بمعنى الحذر الشديد من الخائن الغدّار، فهو يمكن له أن يبطش ويتجاوز كل الأعراف الإنسانية بدمٍ بارد، ويرتكب الفظائع المروعة التي لا تفعلها الوحوش الضارية في البراري والغابات.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً﴾ إذن الذي يخون، لا بدَّ أن يُخاف من بطشه، ويُحسَب له حِساب، لأنه كائنٌ مُنفَلت، ويُتَوَقَّع منه ما يخطر وما لا يخطر في البال. فإن حصل معك ذلك مع شخصٍ تخاف منه ﴿خِيَانَةً﴾، فعليك أن تتصرَّف بحكمةٍ، لأن الموقف بالغ الحساسية، وقد يستدرجك إلى خيانةٍ مثيلة. هنا يرشدك الله سبحانه وتعالى الإرشاد الصحيح السليم، وهو أن تُخبره بحلّ المُعاهدة: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. أي: تجعله مثلك ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، يعلم بأنك علمتَ منه هذه البوادر، فتكونا بذلك أمام الحقيقة ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. وكلمة ﴿فَانۢبِذۡ﴾، بالغة الدقّة، لأنه قد يسأل عن سبب حَلّكَ للاتفاق، فلا تخفي عنه الحقيقة، وانبذه فيما بَدَرَ منه. عندئذ سوف يتراجع عن إلحاق الأذى بك لأنه يُصبح على علمٍ بأنّك علِمتَ بما كان يخفيه لك، ثم لعلّه يُصلح من شأن نفسه بعد ذلك، ويبدأ صفحةً جديدةً في حياته، فتكون قد أبعدتَ أذاه عنك، وأيضاً منحته فرصة للإصلاح.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: دون أن تظلمه بشيء، فيكون حلّ الاتفاق مُتساوياً، وليس جائراً، ووفق هذا الإرشاد الإلهي تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. وإذا رأيتَ بك شيئاً من تردّد، فإن الشطر الآخر من الآية يُزيح عنك هذا التردّد، ويجعل هذا الشرط مرتهناً بحب الله لك، أو عدم حبه لك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾. الذين يخونون عهودهم مع الناس، ولا ينبذوا ﴿إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، في حال الخوف من الغدر، بل يُقابِلوا الغدرَ بالغدرِ، والمُعاهَدة ماتزال قائمة. وبذلك يجوز أن يكون نظير ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿يُحِبُّ﴾ الموفين لعهودهم حتى مع أشدّ الناس كفراً وطغياناً. فحتى في حالات الحرب، فلا يجوز أن تُفاجؤوا الأعداء بشنّ الحرب، مادامَت المُعاهدةُ قائمة، وكذلك في المُعاهَدات الفردية بين الناس في شتى الأمور. والنبي صلى الله عليه وسلم قدّم مثالاً طيّباً في العلاقة مع المشركين في صلح الحديبية، حتى أن بعض أصحابه بات ينظر بريب إلى مقدار ليونة نبي الإسلام مع الكفار، ويُروى أن عمر بن الخطاب وثب إلى أبي بكر قائلاً: (يا أبا بكر أليس برسول الله؟

قال: بلى

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: فعلام نُعطى الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى الرسول

فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟

قال: بلى

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أو ليسوا بالمشركين

قال: بلى

قال: فعلام نُعطى الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني).

فلما رأى عمر النبي مصراً على قراره بالصلح، تراجع عن موقفه، وفي ذلك يقول: (مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأُعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً).

لم يكن موقف النبي من ضعف أو وهن ، فمجرد الجلوس على مائدة حوار والتحاور بين طرفين ذلك يعني النفوذ الذي يتمتعان به ومنعا لتدخل أي طرف في شؤون الطرف الآخر. كان النبي صلى الله عليه وسلم، ممثلاً للمسلمين، وكان سهيل ابن عمرو ممثلاً للمشركين وقد حضرا بنفسيهما لتوقيع هذا النص الذي سيتفقان عليه. قال النبي لعلي بن أبي طالب: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فاعترض سهيل على البسملة في بدء محاولة الصلح قائلاً: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. لم يعترض النبي فطلب من علي أن يكتب ما يقوله الشريك في الصلح، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو. فاعترض سهيل مرة أخرى على عبارة رسول الله، قائلاً: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. لقد كان الرجل معبراً عن حقيقة مشاعره فلم يفرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم، أمراً لا يؤمن به لأن الله هو الذي يقذف الإيمان في قلب مَن يشاء. فاستجاب له رسول الله قائلا للكاتب: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لن يردوه عليه، وإن بيننا عَيْبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. في تلك اللحظات الأولى على الصلح الذي شهد عليه كل من:

أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل ابن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن أبي مسلمة، ومكرز بن حفص، وعلي ابن أبي طالب، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى النبي، فقام إليه سهيل وضرب وجهه قائلاً للنبي: يا محمد قد لُجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا. قال النبي: "صدقت". فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرد إلى المشركين يفتنونني في ديني. لقد زاد هذا المنظر الصحابة ألماً على نص هذا الصلح، ولكنهم لبثوا في أمر النبي الذي يتحدث عن الله وقد رد على صراخ أبي جندل: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم". ورغم جواب النبي لم يملك عمر بن الخطاب نفسه وهو يشهد الواقعة. ورُوي عنه قوله: (رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه).

ولم يكن هذا من ضعف لأن الله الذي أمره بذلك قوي، ولكنه يريد أن يحبب الدين بالناس قبل أن يدخلوه، فدخول رجل واحد الإسلام عن محبة وإيمان وطيب لهو خير من دخول العالم كله الملة بقوة السيف وينقادوا كما تُقاد الدواب، حتى ذاك الذي بينه وبين المسلم عداوة يبين الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]. ذلك أن هذه العلاقة من شأنها أن تولّد علاقة تبادلية حتى يستطيع الناس بجميع معتقداتهم التي شاءها الله لحكمة منه أن يعيشوا تحت سماء واحدة، بل في بلد واحد، بل في شارع واحد، بل في خيمة. يُروى عن جعفر بن أبي طالب أنه قال بين يدَي ملك الحبشة النجاشي وهو يلجأ إليه مع المسلمين الأوائل قائلاً: (أيها الملك، لقد كنا قوما أهل الجاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فبعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنتعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة،

وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء والأوثان، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نُظلم عندك أيها الملك). وكان من الطبيعي أن يقول رجل سوي كالنجاشي: (اذهبوا فأنتم في بلادي آمنون). في هذه الآية الكريمة تتجلّى حكمة الله، وهي أن هذا الشخص لعلّه بالفعل أراد أن يغدر بك، وأقدم على بعض التمهيد لذلك، لكنه تراجع وجدّد العهد بينه وبين نفسه. ففي هذه الحال إذا بادرته بغتةً، ستكون قد غدرت به وظلمته، ولكن إذا بيَّنتَ له المُعطيات التي بَلَغَتك عنه، ومحاولاته لنقض العهد، فقد يُصارحك هو الآخر بما قد حصل، أو لعلّ أحداً قد أوصل إليه معلوماتٍ خاطئةٍ عنك، حتى يجعلكما تصطدمان لغايةٍ في نفسه. وبذلك يمكن لكما أن تكونا على بيّنةٍ تُخفِّف حالة المشاحنة بينكما.

والوجه الآخر من هذه الحكمة، هو أن هذا الشخص وبعد أن يرى منك كل هذا الصدق، قد يتأثّر ويُعيد النظر فيما هو عليه من ضلال ويجنح إلى الحق. و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، بشكلٍ عامٍ مفتوح في كل زمانٍ ومكان. والخيانة لا تكون مع الناس فحسب، بل تكون حتى مع الله سبحانه وتعالى، فينقض الإنسان عهده مع الله، يُعاهد الله على أمرٍ، ثم ينقضه، أو حتى يبرّر لنفسه نقض العهد، خاصةً إذا كان عاملاً في مجال الدعوة، أو في مجال الإفتاء، فيجيز لنفسه، وأيضاً لغيره انتهاك بعض حدود الله. ولذلك فإن غالبية الانتهاكات التي يرتكبها الحُكّام بحق شعوبهم، يستندون فيها إلى فتاوى ضالَّة من مفتين ضالِّين. حتى أن مفتياً ضالاً يُفتي لحاكمٍ أن يغتال أحد أبناء شعبه وقد فرَّ خارج البلاد، وبات ينتقد سلبيَّات الحاكم، فيدَّعي أنه بذلك يكون قد تدخَّل في شؤون إدارة البلاد، ويدعو إلى الشقاق، وإثارة الناس على الحاكم، وبالتالي إحداث الفوضى والفَلَتان الأمني في البلاد. ثم إنه يظهر في وسائل إعلامية منتشرة في العالم، فيُزحزح بذلك أركان الحُكم المُستقر، والأمن المُستَتب. وهو يُطالب بمستحدثاتٍ لا تتوافق مع شريعتنا الإسلامية، ولا حتى مع تركيبة

شعبنا، وإيقاف هذا الشخص عن التمادي، هو بمثابة قصاص جهادي عظيم في سبيل إعلاء كلمة الله، والحفاظ على أمن البلاد، وممتلكات العباد.

ومثل هذه الفتاوى من شأنها أن تجعل الحاكم يُصدر أمراً باغتيال هذا الشخص، وذلك من خلال فريقٍ يتم تشكيله لمثل هذه الأعمال بدقةٍ بالغةٍ مهما كلَّفَت من أموالٍ طائلةٍ، لأن التكلفة تكون مفتوحة من خزينة الدولة، وتكون تحت تصرّف مدير هذا الفريق، يطلب ما يشاء، فيصله ذلك في غضون دقائق معدودة أينما كان تواجده في العالم، حتى ينتهي من تنفيذ المهمة التي كلَّفه بها الحاكم بشكلٍ سرّيٍ.

وعادة فإن الإدانات تتَّجه إلى الحاكم، ويكون المفتي الذي من يَدِه صَدَرَ قدح إشعال الفتيل، بعيداً عن الأضواء، يستمتع برغد العَيش مِمّا يحصل عليه من الحاكم نتيجة فتاويه له، وهو يرقب من بعيدٍ دون أن يُذكَر له اسم.

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحدّ، بل تتشابك وتتداخل الحلقة، فتحدث مستجدّات بعد الانتهاء من العملية. فأحد أفراد الفريق يبدو أنه تلقَّى عروضاً باهظة حتى يُدلي بالحقيقة، وإذا أفشى هذه الأسرار، فتهتزّ البلاد بأكملها.

وتفادياً لذلك فإن المُفتي المَرجع يُفتي بتَصفيته أيضاً لأن وجوده بات يُهدِّد أمن البلاد والعباد. وتستمرّ المُستجدّات، ويستمرّ استنزاف أموال خزينة الدولة، وتتوالى الفتاوى والتصفيات وفق المُستجدّات.

ولكن الله يمهل ولا يهمل، فيتعرَّض هذا المُفتي ذاته للاغتيال عندما يُصبح مُلمَّاً بكثيرٍ من الأسرار والمُستجدّات، ويُستَبدَل بمفتيٍ جديدٍ لهذه المهمَّة حتى يغلظ هو الآخر ويثخن بالأسرار.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضي الله عَنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا جُبُّ الْحُزْنِ؟ قَالَ: "وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَ مِائَةِ مَرَّةٍ"، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يَدْخُلُهُ؟ قَالَ: "أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الْقُرَّاءِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يَزُورُونَ الْأُمَرَاءَ"(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص"[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن، ويقولون نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا. ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا"[(٢)].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض. ومن لم يدخل عليهم، ولم يعِنْهم على ظلمهم، ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني، وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض"[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من بدا فقد جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن، وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعدا"[(٤)]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين، ثم أتى باب السطان تَمَلُّقاً إليه، وطمعاً لما في يده، خاض بقدر خطاه في نار جهنم".

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يكون في آخر الزمان علماء يُرغِّبون الناس في الآخرة ولا يرغَبون، ويُزهِّدون الناس في الدنيا ولا يزهَدون، وينهَون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون".

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أخرجه الديلمي.

(٢) أخرجه ابن ماجه.

(٣) أخرجه الترمذي، والنسائي.

(٤) أخرجه أبو داود، والبيهقي.

"إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأُمَرَاءَ إِذَا خَالَطُوا الْعُلَمَاءَ، وَيَمْقُتُ الْعُلَمَاءَ إِذَا خَالَطُوا الأُمَرَاءَ؛ لأَنَّ الْعُلَمَاءَ إِذَا خَالَطُوا الأُمَرَاءَ رَغِبُوا فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا خَالَطَهُمُ الأُمَرَاءُ رَغِبُوا فِي الآخِرَةِ"(١).

وعن الحسن، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه، ما لم يمارِ قراؤُها أمراءَها".

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أعرف الحزن في وجهه، فأخذ بلحيته، فقال: "إِنّا لِلهِ وَإِنّا إِلَيهِ راجِعون، أتاني جبريل آنفاً، فقال لي: إن أمتك مفتتَنة بعدك بقليل من الدهر، غير كثير، قلت: ومن أين ذلك؟ قال: من قِبَل قرَّائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم، فلا يعطونها، وتتبع القرَّاء أهواء الأمراء، قلت: يا جبريل، فبمَ يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه، وإن منعوه تركوه".

وعن عبد الله بن الحارث، رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "سيكون بعدي سلاطين، الفتن على أبوابهم كمبارك الإبل، لا يعطون أحداً شيئاً، إلا أخذوا من دينه مثله".

وعن أبي الأعور السلمي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وأبواب السلطان"(٢).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيكون قوم بعدي من أمتي، يقرؤون القرآن، ويتفقهون في الدين، يأتيهم الشيطان، فيقول: لو أتيتم السلطان، فأصلح من دنياكم، واعتزلوهم بدينكم ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا".

وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تقرَّب من ذي سلطان ذراعاً، تباعد الله منه باعاً".

---

(١) رواه الديلمي.

(٢) رواه الطبراني.

وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مشى إلى سلطان جائر طوعاً، من ذات نفسه، تملقاً إليه بلقائه، والسلام عليه، خاض نار جهنم بقدر خطاه، إلى أن يرجع من عنده إلى منزله، فإن مال إلى هواه، أو شدَّ على عضده لم يحلل به من الله لعنة إلا كان عليه مثلها، ولم يعذب في النار بنوع من العذاب، إلا عذب بمثله".

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن، وتفقَّه في الدين، ثم أتى صاحب سلطان طمعاً لما في يديه، طبع الله على قلبه، وعُذِّب كل يوم بلونين من العذاب، لم يعذَّب به قبل ذلك".

وعن معاذ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن وتفقَّه في الدين ثم أتى صاحب سلطان طمعاً لما في يديه خاض بقدر خطاه في نار جهنم".

وعن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومجالسة السلطان، فإنه ذهاب الدين، وإياكم ومعونته فإنكم لا تحمدون أمره".

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها ستكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن ناوأهم نجا، ومن اعتزلهم سلم، أو كاد، ومن خالطهم هلك".

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أبعد الخلق من الله، رجل يجالس الأمراء، فما قالوا من جور صدقهم عليه"(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله"(٢).

---

(١) أخرجه ابن عساكر.

(٢) رواه البخاري.

الخيانة ممارسة مفتوحة ومتفرّعة، وتؤدّي إلى بعضها البعض، فإن تحدَّث لك شخصٌ بسر، وأفشيتَ سره، وشهَّرت به، فقد خنته لأنه ائتمنك على سره، فلم تحفظ الأمانة، إن أودع شخصٌ لديك مالاً، فأنكرته عليه، سواء كله أو جزءاً منه، فقد خنته، إن أدخلك شخصٌ بيته، فنظرت نظرة حرامٍ إلى أهله، فقد خنته، والله يعلم منك تلك النظرة الجائرة، وهو الذي: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وبعض الناس يمتهنون التجسّس، ويتواجدون في تجمّعات الناس وينقلون أحاديثهم، وإن لم يجدوا شيئاً، يستدرجون الناس حتى يوقعوا بهم الأذى. فحتى وإن كان هذا المُستَدرَج خائناً، فإن نقضك لعهدك معه يُعدّ خيانة، فذاك شأن، وخيانتك له شأن آخر. وفي زماننا استُحدِثَت أشكالٌ للخيانة والوشاية، مثل اصطياد ما يدور بين الناس من خلال التقنيات التواصلية الحديثة، فيدَّعي شخصٌ بأنه يريد أن يكون صديقاً لك، ويتودَّد لك حتى تقبله صديقاً، فيتجسَّس على ما تقول، وما يدور بينك وبين أصدقائك. فيقوم بتصوير وتوثيق مبتغاه كي يبقى محتفظاً به حتى لو قمتَ بحذف ذلك، فتلك يمكن تسميتها بالخيانة الالكترونية.

وكم من أشخاصٍ تعرَّضوا للأذى، نتيجة ما دوَّنوه في هذه الوسائل، كم من أشخاصٍ تعرَّضوا للانتهاكات، للاعتقالات، كم فَتَكَت هذه الوسائل بأناسٍ. وكل ذلك نتيجة شخصٍ ادَّعى الصداقة والتواصل، وقدَّم عهداً بالصداقة، ثم خان عهده وغَدَرَ بصديقه.

والخائن كائنٌ منبوذٌ ومكروهٌ، فالذي لا يحبه الله، لا يحبه مَن يؤمن بالله. فإذن هو كائنٌ مُجَرَّدٌ من الإخلاص، فالذين يكونون شركاء له في الخيانة، أو الذين يؤازرونه عليها، لا يكونون مخلصين معه، وفي أي لحظةٍ يُتَوَقَّع أن يغدروا به، كما أنه في أي لحظةٍ يُتَوَقَّع أن يغدر بهم. بل حتى عياله وأقرباؤه، لا يأمنوه، لأنه ممتهنٌ للوشاية ونقض العهد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾. هذا الدين الذي أرسى دعائمه مَن قال عنه الله، وشهد له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]. لا بدَّ لِمَن يريد أن يمثِّل رسول الله صلى الله

عليه وسلم، ويقف على منبره، ويفتي من القرآن الذي أُنزِلَ عليه، ومن سنَّته المُطهَّرة، أن يجعله أسوة له، وأن يحسن إلى هذا الدين ويكون خير ممثّلٍ له، لا أن يتّخذه سبيلاً لشيءٍ من التكسّب، أو الحصول على مرتبةٍ في البلاد. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجوع، ولا يمدّ يده إلى ما ليس له، بل حتى كان يمتنع عن أخذ مال الزكاة والصدقات، كونه حق المُحتاج. فلا يأخذ منه شيئاً، بل حتى عندما كان يمدّ الحسن، أو الحسين في الطفولة يده إلى شيءٍ من هذه الاستحقاقات ليأكله فينهاه عن ذلك، ليبقى محافظاً على الأمانة.

الباب التاسع والخمسون

الحسبة الخاطئة

[٥٩]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾

آية قصيرة، لكنها مكتنزة المعاني على قدر ما هي مختصرة. الكلمة الأولى فيها، مِن الحِسبة، أي: مِن الحِساب، فيحسبُ شخصٌ كافرٌ أنه منتصر، وقد يحصل ذلك سواء بشكلٍ فرديٍ بين الناس، فترى شخصاً جائراً، ظالماً، كافراً، فاسداً، يؤذي مؤمناً صالحاً. أو على شكل جماعات، فتتمكَّن جماعة ضالّة، على جماعة مؤمنة. والآية هنا تبيّن بأن ذلك يكون مؤقّتاً لحكمةٍ تتحقَّق للطرَفين. المؤمنون يُصبحون على حيطةٍ وحذرٍ أكثر، ويُقدّرون النعمة التي يرفلون فيها أكثر، ويعيدون النظر في حساباتهم حتى يتفادوا هذا الوهن في المستقبل. وكذلك الكفّار، لعلّهم بهذا التمكين يرشدون ويصلحون، فها قد وضع الله تعالى زِمام الأمور بأيديكم، فاظهروا واثبتوا بأنكم ستصلحون، أو تفسدون. فهذه فرصة ثمينة أمامهم كي يعيدوا النظر في حساباتهم، وعندها قد يجنحوا إلى الصلاح، أو قد يجنح البعض منهم. وفي جميع الأحوال، فإن المؤمنين هم الذين يزدادون قوة.

إذن: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾، لا يعتقدنَّ، ولا يظننَّ، لا يعتبرنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، قد ﴿سَبَقُوٓاْۚ﴾ المؤمنين، وانتصروا عليهم، وتركوهم خلفهم، بل لـ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ جيداً ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾. لا يستطيعون أن يجعلوا المؤمنين في عجزٍ وشلل. ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: ٢ - ٥]. جاء مفتتح الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾، والقراءة بالياء ضمن السياق أبلغ وأعم، لأن ﴿وَلَا

﴿يَحْسَبَنَّ﴾، موجّه إلى المؤمنين كافة، والكلام هنا هو إخبارٌ وبيانٌ للحقيقة المُضمرة في ثنايا الواقع الذي انتصروا فيه. وكذلك موجّهٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، في كل زمانٍ ومكان. فكما لو قيل لسارقٍ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾، السارق أنه ينجو في كل مرةٍ، فالقول يكون لِمَن قام بالسرقة فعلاً وأصبح سارقاً، وكذلك لِمَن لم يسرق ولم يُصبح سارقاً، فيتم إخباره بالنتيجة. فحتى لو تبدّا لكم وللمؤمنين أنكم سبقتم فاعلموا، وليعلم المؤمنون أنّكم ما سبقتم.

الباب الستون

غاية الإعداد

[٦٠]

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾

تبيّن الآية الكريمة أهمية الإعداد في حياة الإنسان، فلا يكون متقاعساً، بل نَشِطاً ومُعداً عدّة المواجهة لأي ظرفٍ طارئ. فلا يجوز لك بأي حالٍ من الأحوال، أن تهمل الأسباب مهما كنتَ مؤمناً، ومهما كنتَ متوكّلاً على الله، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يغيّر، عندما يستعدّ الإنسان، ويهيّئ نفسه، ويُصبح أهلاً للتغيير، سواء نحو الأفضل، أو نحو الأسوأ. فإن الله يغيّر من ذاك إلى هذا، أو من هذا إلى ذاك، عندما يغيّر الإنسان. وقد مضى معنا في الآية ٥٣: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾. فنرى أن آيات السورة الكريمة تتكامل مع بعضها البعض بدقّةٍ تامة، فقد نصر الله المسلمين في بدر، وهم لم يكونوا في مستوى المواجهة من حيث المُقارَنة بين القوّتَين على الأرض، ولكنّهم غيّروا فكرة الانشقاق، وأجمعوا على المواجهة رغم الإمكانات المتواضعة، قياساً بإمكانات المشركين، وحصل ما حصل من وقائع خارقة للطبيعة البشرية، كما تقدّم في السورة، ذلك أنها كانت حرب الله سبحانه وتعالى، مع المشركين. وهذا قد يحدث لأي جماعةٍ، أو لأي فردٍ في أي زمانٍ ومكان، فيحدث أن ترى منطقة تتجاوز محنة عظيمة بأعجوبةٍ في ظرفٍ ما، أو ينجو شخصٌ من خطرٍ عظيمٍ بأعجوبةٍ. فهذه عناية إلهية ممكنة دوماً. وما دام الأمر على هذا النحو، فقد يؤدّي ذلك إلى التقاعس بالنسبة للبعض، وتجنّباً لذلك، أتت هذه الآية للمسلمين أنفسهم الذين تسبَّبوا في نزول هذه الآية، وكذلك لعامة

المسلمين في كل زمانٍ ومكان. فإذن، العناية الإلهية قابلة للتكرار، ونراها بين حينٍ وآخر سواء في جماعات، أو أفراد. وذلك يحدث أحياناً حتى يقف الإنسان على قدَمَيه، ويستكمل مُجَدَّداً، فهي فرصة ثمينة يمنحها الله لبعض الناس في ظروفٍ استثنائيةٍ، حتى ينهضوا ويعدّوا أنفسهم مُجَدَّداً، ويتفاعلوا مع معطيات الواقع الذي يعيشونه. إذن، بعد كل ما تقدَّم من أحداث ووقائع تضمَّنَتها الآيات السابقة من هذه السورة الكريمة، الآن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾. القوَّة هي الجيش واللياقة البدنية والتدريبات، فيكون للدولة جيشها المتمتّع بلياقة البدن، المتلقّي للتدريبات الممتازة في الدفاع عن البلاد والعباد، ولديها عتادها لصدّ أي عدوان. ثم: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾. الرباط، من المُرابَطة، أي: تربط الوسائل التي تستخدمها وتتحرَّك من خلالها عندما يُشَنّ العدوان عليك. ولكل زمنٍ وسائله وكانت الخَيل من أفضل الوسائل التي يتم استخدامها لمواجهة العدوان. فهذه الخيل تكون مُرابِطة ومُجَهّزة، لأن العدوان قد يقع بشكلٍ فجائي، فالجيش يكون على أهبّة الاستعداد والجاهزيّة، والخيل تكون مُرابِطة، والعتاد الحربي يكون تحت متناول اليد، وكذلك وسائل التحرّك مُرابِطة لهذه الغاية. فالقوة تتضمَّن بما تتضمّنه، العتاد الحربي المُتاح في الزمن، ففي زمن نزول السورة، كانت السيوف، وأدوات الرماية، واستعمل الصحابة، المنجنيق في خيبر، وما إلى ذلك ممّا يستجدّ مع الزمن. وفي زماننا تتضمَّن القوّة، الأسلحة الرشّاشة، القنابل، الذخيرة، و﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾، تحوَّل إلى ﴿رِّبَاطِ﴾ الطائرات الحربية، والصواريخ، والدبّابات، والمدافع، والقاذفات، والبوارج، والعَرَبات الحربيّة، وتقنيات مثل أجهزة الرادار، والرصد، إلى جانب جيشٍ متمرّسٍ يَتَمَتَّع بتدريباتٍ عاليةٍ.

فهذه أسبابٌ منيعةٌ وكفيلةٌ بدوام الأمن والرخاء لكم، ولا تتهاونوا بها، لكن ما هو أكثر أهمية من ذلك، هو أن تُحسنوا استخدام كل هذه الوسائل، وألّا تستخدموها إلّا في مواضعها المناسبة، وفي حالات الضرورة القصوى، وألّا تستخدموها ضدّ بعضكم البعض، فهي ليست لذلك إطلاقاً، وألّا تشنّوا بها الحروب

على الكفّار، ولكن: لـ ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾، تُخَوّفون، تجعلون الخيفة في قلوب: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾. فعندما يعلموا هذه الجاهزية العالية لديكم للمواجهة، سيردعهم الخوف من شن العدوان عليكم. والهدف من ذلك ليس ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾، فقط، لأن ذلك شأن الله مع الذين يُعادونه، ولا دخل لكم بهم ما داموا لا يتدخّلون في شؤونكم. فقال جلّ شأنُه: ﴿وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾. فهم الذين لم يكتفوا بعداوتهم لله سبحانه وتعالى، بل يُعادونكم أيضاً حتى يُخرجوكم من الإيمان، ويستحلّون أعراضكم، وأموالكم، وينكّلون بكم وبأبنائكم. فحتى لو علمتم منهم ذلك، وصرّحوا على الملأ بعدائهم لكم، فدعوهم ولا تُحرّكوا هذه الإمكانات قيد خطوةٍ واحدةٍ نحوهم. فلعلّ ذلك يكون محض كلامٍ في كلام، ولعلّ البعض منهم يرجع إلى الحق، فدعوا فرصة الرجوع مُتاحة ما داموا بعيدين عنكم، وبَيّنوا لهم حُسن نواياكم. وإن احتاجوكم في مساعداتٍ إنسانيةٍ، فلا تخذلوهم، ولبّوها لهم لتُظهِروا وتُمارِسوا الجانب الإنساني لديكم حتى مع أعدائكم. لكن إذا تقدّموا نحوكم للحرب، فاخرجوا ما ادّخَرتم لهم، ودافعوا عن دينكم وأعراضكم ودياركم بكل ما استطعتم، حتى يعودوا خائبين من حيث أتوا، وأيضاً عند ذاك، لا تتّخذوا من نصركم وهزيمتهم مطيّة لتشنّوا الحرب عليهم وتتقدّموا إلى ديارهم بأسلحتكم، لأنها ديارهم وديار أهليهم، وممتلكاتهم وممتلكات أهليهم. وإذا أسرتم منهم أسرى، أحسنوا إليهم، واطعموهم ممّا تأكلون حتى تُعيدوهم إلى أهليهم، فيُخبروهم بِما لقوا منكم من حُسن التعامل معهم. فهذه هي الغاية البالغة الأهميّة من كل هذا الإعداد، وأن كل هذه التجهيزات، لا لتستقووا بها على الكفّار وتقودوهم بالقوّة إلى المساجد ليُصَلّوا، فذلك يخصّ عداءهم مع الله، وهذا شأن الله معهم، يهدي مَن يشاء، ويضل مَن يشاء. بل إن كل هذه التجهيزات حتى يرتدعوا عنكم، ولا يستَسهلوا الاعتداء عليكم. فالذي يذهب إلى ديار الكفّار، ويُلحق بهم الأذى مُستَخدماً بعض هذه التجهيزات، يكون قد تدخَّل في شأن الله تعالى مع عباده،

ويكون قد تجاوز تعاليم الدين بتصرّفاتٍ شخصيّةٍ أو انتقاميةٍ، أو بعض النزعات العدوانية التي تكون لديه، وهو بذلك لا يكون مُستَنِداً على أي قاعدةٍ دينية. لماذا؟ لأنه لو كان ذلك، لبرّر الكافر لنفسه شنّ الهجمات تلو الهجمات على المسلمين، وقصف أسلحتهم المُرابِطة، وكذلك جيشهم، ليس لأنه عدوٌ لعقيدة المسلمين، بل حتى يكفّ أذاهم عنه وهو في دياره، لأنك تستخدم هذه الإمكانات كي تُدمّره، فهو يفعل ما بوسعه حتى يردعك عنه، وهو يحافظ على أمنه وأمن بلاده مِن هجماتك سواء الفردية، أو الجماعية. فهو لا يؤمن بِما تؤمن به، لكنه يحترم عقيدتك، ولا يتدخّل في شأن حريّتك الشخصية في العقيدة، بل يمنحك حرية أن تنشر عقيدتك حتى على أراضيه، ويمنحك التراخيص الرسمية بذلك، فتمارس شعائرك في دياره بحرية، ويتيح لك أن تنشر المصاحف، تبني المساجد، توزّع المطبوعات الدعوية، تنشئ وسائل إعلام تدعو من خلالها إلى عقيدتك. وإن احتجتَ مالاً وكنتَ عاطلاً عن العمل، يمنحك راتباً شهرياً، وإن مرضتَ، يُعالجك، وإن اعتدى عليك أحدٌ مُتجاوزاً القانون، وقف إلى جانبك، وأعطاك حق الإقامة، وحتى الحصول على الجنسية لتتمتّع بما يتمتّع أي مواطن من مواطني تلك الديار. فحينها لا يجوز لك أن تُفخّخ القطارات، أو تُشكّل جماعات وتدعو إلى قتلهم في ديارهم بعد أن مَكّنوك منهم وأحسَنوا استضافتك. فإذن، بذلك تعطيهم حق أن يُقدّموك إلى القضاء، ثم يفعلوا ما يستطيعوا حتى يوهِنوا الدول التي أرسلتك، حتى يُحافِظوا على أمنهم ويكفّوا أذاك عنهم. وبذلك فتكون هذه الآية لهم بدل أن كانت عليهم، فيأخذونها ويقومون بتطبيقها عليكم، لأن ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾، ليس بالضرورة أن يكون كافراً، بل قد يكون مسلماً، لكنه يعتدي على الناس ويفتك بهم، ويرعبهم دون وجه حق. بل ويُجيّش الأفراد والجماعات إلى ديار أهل الكتاب ليلحق بهم أفدح الأضرار البشرية والمادية، دون مراعاة لطفل، أو امرأة، أو شيخ. فهؤلاء بذلك قد أصبحوا أعداء الله، وأعداء الإنسانية. ولذلك يعدّ لهم أهل الكتاب وغيرهم، ما استطاعوا: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، وإمكاناتٍ حتى يُخيفوا أعداء الله، وأعداء الإنسانية من المسلمين،

ويكفّوا أذاهم عن الناس الذين ما عادوا يأمنون الخروج من بيوتهم خوفا من اعتداءات المسلمين عليهم. فهؤلاء ينتشرون كالأوبئة في طرقات ديار أهل الكتاب، يطعنون هذا، ويدهسون ذاك، يخطفون هذا، وينكّلون بذاك، يُفخّخون هذا المكان، ويرتهنون هؤلاء الناس. ولنعد إلى قراءة الآية بشكلٍ واقعيٍ وهادئ بعيداً عن تلك التفاسير المُغالية التي كُتِبَت في ظروفٍ ما، وتدخّلت بعض ردود الأفعال، وبعض الانفعالات فيها. ولنعد إلى القوّة الحقيقية للمسلمين التي اعتمَدَت على الكلمة الطيّبة، والتزمَت بالقرآن، والسنّة، حيث استطاعوا بذلك أن يملكوا نحو نصف الكرة الأرضية، وتحوّلوا إلى قوّة كُبرى. ولكن الحَفَدة أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً لذلك، فتنازعوا فيما بينهم، وأخفقوا فيما هم عليه، وغدوا يتجاوزون حدود الله، وحدود الحقوق الإنسانية على الإنسان. فبدأت مسيرة التراجع، وهنا نذكر مقولةً لأم عبد الله الصغير، قالتها له وهو يخرج من الأندلس: (ابك مثل النساء مُلكاً لم تُحافظ عليه مثل الرجال). إذن ما استطاع الحَفَدة أن يُحافِظوا على السعة التي وسّع الله تعالى بها عليهم. فأوّل الحقوق الإنسانية، هو أن تُحافظ على أمن وسلامة ورعاية غير المسلمين الذين يعيشون في ديار المسلمين، وتُحسن إليهم. وهذه حقيقة راسخة، فعندما حافظ الغرب على الحقوق الإنسانية للإنسان بصفته إنسان، بصرف النظر عن معتقده، أو لغته، أو لونه، أو قوميته، فتح الله تعالى عليهم، وأصبحوا يقودون العالم، ليس عسكرياً فقط، بل تقنياً، وإنتاجياً، واقتصادياً، وإنسانياً.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. حتى يلتزم كل إنسانٍ حدّه، ولا يتجاوز على حدود الآخر مهما كان مُعتَقَده، ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾. يستجدّ آخرون من الأعداء، وهؤلاء يكونون في الظل، يُعادونكم في الخفاء ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، لم تتعرّفوا عليهم، ولكن ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، يعرفهم أينما كان تواجدهم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ومهمٌ جداً أن تعلم ما هو ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فهو سبيل نفع الناس ورفع الأذى عنهم بالدرجة الأولى، سواء أكانوا مسلمين، أو غير

مسلمين. فعندما تبني مسجداً، فإن الغاية أن تدعو إلى طاعة الله، وطاعة الله تجعل الإنسان الفاسد، صالحاً، والصالح، أكثر صلاحاً. والذي يكون صالحاً، فهو يكون نافعاً للناس، ورافعاً أذاه عنهم. وكذلك عندما تطبع المصاحف، أو مؤلّفات علوم القرآن والحديث النافعة. فأي عملٍ يُبتَغى به نفع الناس وتحسين حياتهم، فهو عملٌ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إنشاء مشفى يُعالج المرضى، مدرسة تمحو أميّة الناس، مكتبة عامة يستعير منها طُلّاب العلم، المؤلّفات، مراكز يتعلّم فيها الناس المِهَن، قاعات يتلقّى فيها الناس المُحاضرات النافعة. وتُنبّه الآية بألّا يكون شيءٌ على حساب شيء، فبيَّنَت ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بشكلٍ مفتوح دون أن تقتصر على ذكر شيءٍ مُحدّد، فإلى جانب بناء المساجد، يُساهم المُنفقون في إشادة ما ينتفع به الناس. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾، أي ﴿شَيْءٍ﴾، تستطيعون عليه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾. فهو دَينٌ لكم عند الله، وستجدون الوفاء من الله. والكلمة دقيقة ﴿يُوَفَّ﴾. بمعنى لك شيءٌ عنده، لأنك أنفقته في سبيله، فيعدك بأنه سيفيك دَينك. ثم جاءت العبارة الخاتمة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾. عهدٌ من الله بأنكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ في شيءٍ مهما كان كبيراً أو صغيراً، فسوف تجدوه.

الباب الواحد والستون

كفة السلم

[٦١]

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾

لذلك كان الاكتفاء بالمُرابَطة والصَّبر، والبقاء في الديار، وعدم التقدّم نحو ديارهم لأي شكلٍ من أشكال الحرب سواء فرديّاً أو جماعياً. أمّا إن قدمتَ إليهم تاجراً، أو متلقّياً للدرجات العلميّة، أو سائحاً، أو لاجئاً، أو داعياً إلى الإسلام بالكلمة الطيّبة، فلك ذلك. وهذه الآية تبيّن الحكمة من الآية السابقة، لأنّهم مع الأيام والمُستَجدّات، قد يُغَيّروا ما بأنفسهم، ويتحوّل مُنكر الإسلام، إلى مؤمنٍ به، وداعٍ إليه، ونظير ذلك، قد يتراجع مسلمٌ عن الإسلام، ويُصبح ملحداً، وداعياً إلى الإلحاد. فهذه الاحتمالات واردة وممكنة، تبيّنها الآية لك حتى تكون على بيّنةٍ وأنت تتلقّى كَلِم الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ ﴾. فكم من عدوٍ لدودٍ لكل ما هو مسلم، تحوَّل بهداية الله إلى محبٍ وموالٍ لكل ما هو مسلم، وأقرب الأمثلة في كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين تحوَّلوا من أعداءٍ للإسلام، إلى موالين ومؤازرين، بل وأعمدة للإسلام، ولبث ذلك مستمرّاً عبر الزمن. عندئذٍ لا تنظر إلى ما مضى، وإلى ما كانوا عليه، وإلى ما فعلوا، بل انظر إلى الواقع الذي طَرَأ، وهذا هو المهم: ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾. مدّ يد السلم إلى الذي يُسالِمك بعد تاريخٍ من العداء، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾. امتلئ ثقةً بتوكّلك ﴿عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لِما يقول الجانحون إلى السلم، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بِما يكون في قلوبهم.

الباب الثاني والستون
المؤمنون والمخادعون

[٦٢]

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾

هذا هو التشويق الجميل في القرآن، هكذا يزيدك القرآن امتلاءً، يزيدك ثقة، يزيدك أملاً بإشراقة المستقبل، يزيدك تقوى، يزيدك توازناً واستيعاباً، فيوسّع لك مدركاتك، وينمّي لديك كل ما هو إنساني، ويرقّيك في درجات إنسانيتك. فكلّما تقدّمتَ في درجات إنسانيّتك، كنتَ أكثر قرباً من الله، وكلّما ابتعدتَ عن درجات إنسانيّتك، كنتّ أكثر بعداً عن الله.

فإذن تَبَيَّنَ لك أنّهم بالفعل: ﴿يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾. فتلك أمنية، وهم يُفصحون عن معادنهم الحقيقية، لترى كم أن المُخادِع كائنٌ ضبابي، غير مؤتَمَن، وكم أن المستقيم هو كائنٌ واضح، لا يُتَوَقّع منه غدر، ويؤتَمَن على كل أمانة، وهذه الآية تؤكّد ما جاء في الآية ٥٨. وجاءت هنا كلمة الخديعة، بعد أن وردَت هناك كلمة الخيانة. والخديعة هنا تختلف عن الخيانة، فالخديعة تحصل دون معاهدة، أمّا الخيانة فتشترط المعاهدة، وإلّا لا تكون خيانة، بل خديعة. فإذن، هنا خديعة: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾. والخداع يحصل في الحرب بطرقٍ شتّى، وهنا مادام المؤمن قد التزم بتوجيه الله، فإن الله سبحانه وتعالى يكفل له منع أذى المُخادعين عليه، وأنه حسبه، ولذلك ذكّر الله عز وجل، رسوله عليه الصلاة والسلام، كيف أنه نَصَرَه في بدر وقد كان ضعيفاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فهذا مثالٌ بأن الذي يتّبع إرشاد الله، ينصره في مختلف الظروف. أمّا الذي لا يتّبع إرشاد لله، فإن الله لا يؤيّده بالنصر مهما كان قوياً على أرض الواقع، وكل المؤشّرات تؤكّد نصره، لكنه سيُمنى

بالخسارة الجسيمة، وهذا بيانٌ جليٌّ من الله سبحانه وتعالى للناس. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ وحسب أتباعك في كل زمانٍ ومكان ﴿ٱللَّهُ﴾. ومَن كان ﴿ٱللَّهُ﴾ حسبه، فأي حسابٍ بعد ذلك يحسب للخائنين والمُخادعين. و: ﴿ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾، قوّاكَ وآزركَ ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾، من خلال أسباب العناية الإلهية، كذلك ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هداهم الله وأصبحوا قوّة لا يُستهان بها حولك. فتأييد الله، قوّة للمؤيَّد. تبيّن الآية بأن المؤمنين هم قوّة لبعضهم البعض، سواء بشكلٍ فردي، أو بشكلٍ جماعي، ولا يجوز بأي حالٍ من الأحوال أن يكونوا على بعضهم البعض. جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: (وأفسدتم علي رأيي بالعصيان حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجلٌ شُجاع، ولكن لا معرفة له بالحرب). فالمؤمن عندما يكون مع المؤمن، يشكّل قوّة إلى جانبه، وعندما يكون عليه، يشكّل ضعفاً إلى جانبه. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فعندما يكونون المؤمنون مع بعضهم البعض، يلقون تأييداً من الله، وكلّما ازداد أعداد المؤمنين الذين يتكاتفون مع بعضهم البعض، ازدادوا قوة على قوة، ولذلك عندما انسحب عمر بن الخطاب من المشركين، أحسّوا بضعفٍ كبير، وخسارة كبيرة، وأنه سوف يكون قوّة إلى جانب المسلمين، ويُروى أن المشركين حينها قالوا: (قد انتصف القوم منا اليوم). لكن ونظير ذلك عندما يتفرّق المسلمون عن بعضهم البعض، يذهب عنهم تأييد الله، وينتهون إلى الوهن، وهذا بذاته يشكّل قوة لغيرهم.

الباب الثالث والستون

ألفة القلوب

[٦٣]

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

تُعرّفكَ الآيةُ على أمرٍ بالغ الأهمية في حياتك، وفي سائر علاقاتك مع الناس، وهي آية تربوية، تثقيفية، معرفية. فتعلّمك كيف تنقّي قلبك، وتقتلع من تربته أشواك الحقد، فتكون مُحِبّاً، ومُحَبّاً. وهذه مسألة دقيقة في انفتاحك على الآخرين، وانفتاح الآخرين عليك، في تقبّلك للآخرين، وتقبّل الآخرين لك. وهذا يجعل منك إنساناً اجتماعياً مألوفاً، ويجنّبك أن تكون منبوذاً. وبذلك فإن التآلف هنا، نظير التنابذ في الآية ٥٨. ففيها تبيَّن كيف يمكن للإنسان أن يكون منبوذاً، منعزلاً، كارهاً، ومكروهاً، وهنا تبيّن لك الآيةُ في النظير، كيف يمكن للإنسان أن يصبح مألوفاً، اجتماعياً، مُحِبّاً، ومُحَبّاً. والآية كسائر آيات التنزيل الحكيم، تتنزَّل عند وقوع حدثٍ ما. والحدث هنا، لعلّه يكون في الأوس والخزرج، فقد كانوا قبل الإسلام في عداوةٍ شديدةٍ مع بعضهم البعض، وعليك أن تتصوَّر مدى وعمق هذه العداوة في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. فإذن، يُستحال لأن تتصالح وتتآلف القبيلتان بعد كل ما وقع بينهما من تناحر وتقاتل وتباغض وسفك للدماء، يُستَحال بأي حال من الأحوال، حتى لو تدخّل رسول الله صلى الله عليه وسلّم بشخصه الكريم، وأنفق من أجل ذلك ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، لـ ﴿مَا﴾ استطاع أن يؤلّف ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. و ﴿لَوْ﴾، بمعنى لا مقدرة لك أن تنفق من أجل التآلف بينهما ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، لكن ﴿لَوْ﴾، على سبيل الافتراض، وقدّرك الله

على ذلك، و: ﴿أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. أمام هذا المثل الكبير، سواء بالنسبة للأوس والخزرج، أو أي جماعتَين، أو دولتَين، أو عائلتَين، أو حتى شخصَين، يبقى أمل التصالح قائماً مهما بَلَغَت حدّة العداوة، بل والأكثر من ذلك، أمل التآلف والتحاب يبقى قائماً. فإذن، وأمام استحداث حالةٍ كهذه، لندع كل ما في الأرض للأرض، ونحتكم إلى الله، فهو الوحيد القادر على إزالة هذه العداوة بيننا مهما كانت رقعتها متّسعة، ومهما كانت أضرارها فادحة. ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ من خلال التآلف الذي يتضمّنه الإسلام، فإذن، تذهب إلى خصمك ذهاب إنسان مسلم، إلى إنسان مسلم، وتنسيا كل شيءٍ ما دون ذلك، ولتجعل الإسلام السمح حَكَماً بينكما، سواء كدول، أو جماعات، أو عوائل، أو أفراد. فعندما اعتنقت قبيلتا الأوس والخزرج الإسلام واحتكمتا إلى الإسلام، زال كل ما كان بينهما من تنافر وتباغض، وحلّ بدلاً عنهما التآلف والتحاب. وهذا التحوّل الانعطافي الكبير حصل أمام أعين الناس جميعاً: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ بالإسلام، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ﴾ يا رسولنا ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ﴾ استطعتَ أن تؤلّف ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، عندما تركوا كل ما في الأرض للأرض، واحتكموا إلى شرع الله، فتحقّقت الألفة بينهم عندما غيّروا ما بأنفسهم، وأصبحوا أهلاً للألفة، وأحسنوا النيّة، وقدّموا الدلائل والثبوتيّات قولاً وعملاً. وعندها أنعم الله عليهم بنعمة التآلف، وأزال كل ما كان بينهم من تباغض جملة واحدة، كما لو أنه لم يكن قط. فلولا الإسلام للبثوا يستنزفون من بعضهم البعض، واستمرّ التباغض والتناحر بين هاتين القبيلتَين الكبيرتَين. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْمُسْلِم إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِم فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبهمَا كَمَا تَحَاتُّ الْوَرَق عَن الشَّجَرَة الْيَابِسَة فِي يَوْم رِيح عَاصِف وَإِلَّا غُفِرَ لَهُمَا ذُنُوبهمَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْل زَبَد الْبِحَار".

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾، قوي ونافذ القدرة، يعز مَن يبتغي العز، ويذل مَن يبتغي الذل، وقادرٌ أن يجعل اللامألوف، مألوفا، ولا يخيّب أمل مَن التجأ إليه بقولٍ صادق، وعملٍ صالح، ﴿حَكِيمٌ﴾. في تحقيق أحكامه على عباده. ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والكلام لا يقتصر على قبيلتَي الأوس والخزرج، بل هو عامٌ للناس جميعاً، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يخاطب الأنصار: "يَا مَعْشَر الْأَنْصَار أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ الله بِي وَعَالَة فَأَغْنَاكُمْ الله بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ الله بِي".

الباب الرابع والستون
حسبة الله

[٦٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

بعد كل ما تبيَّن، تجعل الله تعالى وحده حسبك، وتمتلئ ثقةً وأنت تقول: (حسبي الله ونعم الوكيل). وقد ساواك الله عز وجل في هذه الحسبة مع النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾. وقد جعلك الله كافيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فلك حسبة عند الله، خذها واغتنمها، ففيها الخير، كل الخير، النفع، كل النفع في الدنيا، والآخرة. اجعل الله حسبك، وليكن الله تعالى في حسابك، فقد وعدك بأنه حسبك في المرتبة التي ساواك فيها مع رسوله صلى الله عليه وسلم. والكلام مفتوحٌ ليشمل أي شخص مؤمن في أي وقتٍ من الأوقات، ودون استثناء.

الباب الخامس والستون
حماية المُنجَز

[٦٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ
وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

التحريض هنا هو الحث الإيجابي، والحض لحماية ما تم تحقيقه من منجزات، فلا يكفي أنك مؤمن، بل عليك أن تحمي عقيدتك، ولا يكفي أنك تُكَوِّنَ أسرةً، بل عليك أن تَكونَ قادراً على حمايتها. فليس المهم ما استطعتَ أن تُحَقِّقه، بل الأهم من ذلك، كيف تستطيع أن تُحافظ على ما حقَّته، ثم تتقدم إلى مزيدٍ من الازدهار، لأنك دون التحصّن المادي والمعنوي، ستتراجع إلى الوراء، وتُمنى بالخسارة تلو الخسارة مادياً ومعنوياً، حتى تغدو مفلساً، ليس مادياً فحسب، بل معنوياً، وعقيدياً.

والقتال هنا لا ينحصر بحمل السيف، والتجهّز بأسلحة القتال، بل مع الزمن، استُحدِثَت أساليب أخرى للقتال، فعليك أن تأخذ بها.

فيمكن أن تعيش في قصرٍ كبيرٍ، ولديك أسلحة كثيرة تدافع بها عن نفسك، بل هناك أشخاصٌ يقومون بحراستك، ولديك العديد من الأعمال التجارية والعقارات، وتحقّق لأسرتك كل أسباب الرخاء.

لكن تبيّن الآية بأن ذلك لا يكفي، لأن هناك مَن يمكن أن يستدرج أحد أفراد عائلتك من خلال التقنيات الحديثة، فهو يشنّ عليكَ حرباً شعواء، وينتصر في حربه عليك، فلا ترى نفسك إلّا وأنتَ تتجرَّع علقم الهزيمة، وقد تردَّيتَ في قعرها، هكذا في غفلةٍ دون أن تحسب لذلك حِساباً، لكن عدوّك كان يحاربك بسرّيةٍ حتى أوقعكَ وانتصر عليك. فقد حوَّلَ أسرتك إلى قنابل أحرَقَتكَ، إلى فاسدين أفسدوا كل تاريخك ومُنجَزاتك، واستطاع أن يحطِّم معنويّاتك بهم، بعد أن كنتَ بكل تلك

المعنويّات العالية. ونظير ذلك ترى فلاناً من الناس وهو عاملٌ بَسيطٌ، أو موظّفٌ متواضعٌ، يكون قد حصَّنَ أسرته في مواجهةٍ كهذه، فهو يجلس مع أسرته، إن قرأ كتاباً، أشرك زوجته في قراءته، وجلبَ كتباً لأبنائه وفق المراحل التي يكونون فيها، ولا يتركهم فريسةً للتقنيات الحديثة، تأخذهم إلى حيث ما تشاء.

فيجلس إليهم، ويستمعوا إلى حديثٍ طيّبٍ عن أهميَّة الدِين، أهميَّة القِيَم، الأخلاق، المبادئ الإنسانية، وكيفيَّة التحكُّم بالأهواء، ينتقي لهم المحاضرات والدروس المرئية والمسموعة حتى يرتقوا بها.

فكل واحدٍ في البيت عليه أن يعرف ماذا يفعل الآخر، لا أن يجلس بمفرده منعزلاً عن أفراد أسرته، كما لو أنه في مكانٍ آخر، لا أحد يعلم مع مَن هو وماذا يفعل. ولذلك كان التوجيه في الآية ٦٠: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾. فكل المستحدَثات والتقنيات الحديثة، تعدّ نفسك بها، وهذا ما لم يكن مُتاحاً بالنسبة للمفسّرين الذين فسّروا التنزيل منذ ألف سنة، أو أكثر، أو أقل، فكانت الاستطاعة وفق المُتاح على أرض الواقع. ولذلك من الضروري أن تَتَجدَّد التفاسير بتَجدّد الواقع الذي يُتاح فيه مالم يكن مُتاحاً من قبل.

وهذا لا يعني الانتقاص من شأن المفسّرين بأي حالٍ من الأحوال، بل إنّهم برعوا من خلال ما كان مُتاحاً في تلك الأوقات من منجزاتٍ بشريّةٍ، وهذه التفاسير متوافقة مع تلك المقوّمات الحياتية التي كانوا فيها، لكن الانتقاص يكون في المفسّر الجديد الذي يأتي بعد كل هذه القرون الزمنيَّة الطويلة، ويكون مُردِّداً لِما قد قيل في تلك القرون الغابرة، وهو بذلك يحكم على نفسه، ويريد أن يحكم على الآخرين البقاء في ذاك الماضي السحيق. وكذلك بأن القرآن لم يعد فيه الجديد الذي يمكن اكتشافه بعد أن قال فيه مفسّرو تلك القرون ما قالوا.

وهذا يعني فيما يعنيه أن كل تلك المُنجَزات الهائلة التي حقّقها الإنسان بعد تلك التفاسير، لا علاقة للقرآن بها، لأنها لم تكن موجودة في زمن تلك التفاسير. لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، لأن لا مُنجَز ينجزه الإنسان في أي زمنٍ، إلّا ويكون

له جذره في القرآن، ولذلك إذا حضر أحد المفسّرين أولئك إلى زماننا، وعاش فيه، ثم أراد أن يكتب تفسيراً جديداً غير الذي كتبه في السابق، حينها لن يكون بوسعه أن يقرأ القرآن تلك القراءة السابقة، وفق ذاك الفهم السابق، ولذلك تراه يحذف كثيراً مما قال، ويضيف كثيراً إلى ما قال، حتى لعلّه لا يُبقي سوى على نسبةٍ صغيرةٍ جداً من ذاك التفسير، وذلك أمام هذا التحوّل الكبير الذي شهدته البشريَّة على صعيد التقدّم في التقنيات، وكذلك نمط الحياة البشرية. فهو كما أنه جعل القرآن يُحاكي الواقع في ذاك الزمن، لن يجد بدّاً سوى أن يجعل القرآن يُحاكي الواقع الجديد الذي يكون فيه، وذلك حتى يتسنّى له أن يكتشف الجذور القرآنية لمُنجَزات الواقع الجديد، وإلّا سيكون قد فَصَلَ ما بين القرآن وبين الواقع، وهذا ما يفعله المُردّدون لتلك التفاسير، حيث يفصلون ما بين الواقع الجديد، وما بين القرآن، وبالتالي من الطبيعي أن ذلك يعكس على مدى تفاعل هذه الأجيال الجديدة، والقبول بالعودة إلى تلابيب ذاك الماضي، وهم في ذرة هذا الواقع المختلف عنه بنسبة كبيرة جداً. فمهما تَحاقَبَت الأجيال فلا يمكن لها بأي حالٍ من الأحوال الاستغناء عن القرآن في مسيرتها العلمية والمعرفية، لأنه دوماً يتضمَّن الجديد الذي لم يكن مُكتَشَفاً من قبل. ولذلك ترى خصوصية في هذه السورة، وهي أن آياتها جميعاً متّصلة مع بعضها البعض، مع كل ما تحمله من تفرّعات. وهذا ما يُعزّز لديك عنصر التشويق، ويجعل مدركاتك تتفتّح مع كل آيةٍ جديدةٍ في السورة، وهي تُنير ظلمةً من ظلماتك التي كنتَ فيها دون أن تعلم أنها كانت ظلمة. فكل آية بيدك هي بمثابة قنديلٍ يجعلك ترى الحقائق وتلمسها، هذه الحقائق التي ما كنتَ تراها، ولا تلمسها قبل قراءة هذه الآية، ثم إنك عندما تحمل قنديل الآية الأخرى، وتخطو بها في طريقٍ آخر، كذلك ترى هذه الإشراقات. وهكذا ترى نفسك تمضي في طرقات الحياة، متحصّناً بهذه القناديل الإلهيّة التي تنير لك دربك. وما يميّز هذه القناديل، أنها غير قابلة للإنطفاء، فمتى ما مددتَ يدكَ إلى قنديلٍ، رأيته مُتجاوباً معك، وكاشفاً لك أي خطرٍ كان على وشك أن يودي بك. إذن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾. و﴿حَرِّضِ﴾، كلمة متحرّكة ومتفرّعة ومكتنزة بالعديد من المعاني، فإذا

حذفتَ منها (الراء)، صارت (حض). وهي إحدى المعاني للكلمة، ولكن ﴿حَرِّضِ﴾، بليغة وبيانية ومتفرّعة، فمن معانيها: حثّ، شجّع. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾، لا ليذهبوا إلى الآخرين ويقتلوهم، بل ليكونوا على أهبّة الاستعداد ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾، في حال تعرّضهم لعدوان، فيكونوا قادرين على ردعه عنهم. لأنك إذا كنتَ واهناً ومُتخاذلاً ومستسلماً، قد يأتي الآخرون ويتدخّلوا في شؤون حياتك، وفي معتقداتك، ويفسدوا عليك كل ما هو صالح. فتعلّمك الآية أن تكون قوياً إلى جانب أن تكون مؤمناً، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله"[(١)]. فإن احتجتَ إلى بعض الأشياء إلى غير المسلمين، عليك أن تجعلهم بالمقابل أن يحتاجوا إلى أشياء منك، حتى لا تكون مُستهلِكاً فقط، بل ومُنتجاً، وبالتالي فإن العملية تكون عبارة عن تبادلٍ في الحاجات، فكما تحتاجهم، يحتاجوك. فاليد العليا لا تقتصر على المال فحسب، بل بكل ما يمكن للإنسان أن ينفع به الناس، فعالمٌ لا مال لديه، لكن يده عليا بعلمه، وصناعيٌ ليس غنياً، ولكن يده عليا بصناعته، ومدرّس يده عليا بتدريسه، وتقني يده عليا بتقنياته، وبَنّاء يده عليا ببنائه البيوت. فكل هؤلاء قد لا يملكون أموالاً، ولكن أياديهم عليا، واليد السفلى هي اليد التي تأخذ فحسب، ولا تعطي شيئاً قط، وتستهلك كل شيء دون أن تنتج شيئاً، فحتى لو وجد هذا الشخص أذى على الطريق فإنه لا يميطه، لأنه ما عوّد يده لتكون عليا، بل عوّدها لتلبث سفلى. اليد العليا المنتجة، هي خيرٌ من اليد السفلى المستهلكة، اليد العليا المعطاءة، هي خيرُ من اليد السفلى المتطفّلة، اليد العليا العزيزة، هي خيرٌ من اليد السفلى الذليلة. عن النبي صلى الله عليه وسلم:"المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"[(٢)]. لذلك على الإنسان أن يسعى إلى عوامل القوة البدنية، وكذلك المعنوية، فيكون قوياً في بدنه، وقوياً في معنوياته.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (١٤٢٧).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث (٤٨٢٢).

إذن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ﴾، حرّك، فعّل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، حتى لا يكونوا ضعفاء، لا يكونوا مستسلمين، لا يكونوا منهزمين، لا يكونوا متخاذلين، لا يكونوا خانعين. ﴿حَرِّضِ﴾ هم، لخوض غمار الحياة والتفاعل والتواكب مع مستجدّاتها، ﴿حَرِّضِ﴾ هم، على خوض معركة الحياة، معركة النجاح، معركة الإنتاج. تقول أن فلاناً قاتَلَ حتى يبني بيتاً. بمعنى أنه جدّ وعمل وكافح حتى بنى هذا البيت. وبالمقابل إذا جاء مَن يتدخّل في شؤون المؤمنين، فيكونوا قد تجهّزوا أيضاً عسكرياً للتصدّي لهم. ثم بعد ذلك تُبشّركَ الآيةُ بعهدٍ قاطعٍ من الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. فمن الطبيعي أن يجد الإنسان خصوماً، يجد أعداءً يترصّدونه، يسعون ما أمكنهم بطرقٍ شتّى كي يلحقوا بهم أفدح الأضرار. وهؤلاء قد تعلم عداوتهم لك، وقد لا تعلمها، قد يكونون بعيدين عنك، وقد يكونون قريبين منك. ففي جميع الأحوال، وحتى هذا الذي يكنّ لك غلًّا يتزيّا بزي صديق، أو حبيب، فسوف تنتصر عليه، بل حتى لو كنتَ لوحدك، وكانوا عشرة أشخاص وقد اجتمعوا عليك. والآية تدعو إلى التحلّي بالصبر، تجنّباً للتسرّع وردود الأفعال. لأن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، لا يتحلّون بهذه المزايا، بل يتّبعون الأهواء وردود الأفعال، ويكونوا متسرّعين، وقد بَيّنَت الآيةُ في ختامها: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. وقد وردت الكلمة منضبطة ودقيقة في موضعها، فالذي يفقه، هو الذي ينظر إلى الدوافع التي تكون خلف الوقائع، والذي لا يفقه، هو الذي تأخذه المظاهر دون أن يعلم شيئاً عن الجواهر. وهنا نرى بأن الصبر، تكامَلَ بالفقه، فالمؤمن الصبور، هو المؤمن الذي يفقه ويدرك خلفيّات الأمور. وليس كل مؤمنٍ بصابر، فهناك مؤمنٌ عَجول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾. وهذا شرطٌ ﴿إِن﴾ تحقّق، سوف ﴿يَغْلِبُوا۟﴾، بكل تأكيد، بمقتضى عهدٍ من الله سبحانه وتعالى. والذين ﴿يَغْلِبُوا۟﴾، هم فقط ﴿صَٰبِرُونَ﴾. ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم﴾، من مجموع المؤمنين ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾. هؤلاء بإيمانهم وصبرهم ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾. وهي نسبة عشريّة مهما تكاثرت أعداد الطرفين أو قلّت، ويبقى المؤمنون الذين لا يتمتّعون بالصبر، خارج هذه

المعادلة. ذلك أن العُجالة تؤدّي إلى ارتكاب الأخطاء، وبذلك يتساوى المؤمنون الذين لا يصبرون، مع الكافرين الذين ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ في خاصيّة التسرّع. فالصبر هنا، هو التأنّي حتى وأنتَ في ذروة قوّتك على خصمك، لأن الوقت يكشف عن المخفي. فما تفعله اليوم مع خصمك دون التأنّي، قد تندم عليه غداً عندما تتضح بعض الحقائق. والصبر إمهال لك وله، لعلّ شيئاً ما يطرأ، فيغيّر سواء فيك، أو فيه، أو يبيِّن حقيقة كانت خافية عليكما. إذن، الصبر هو قوّة ناعمة تؤدّي إلى نتائج إيجابية أكثر من أي قوّةٍ خشنةٍ، وهو سلاحٌ ناعمٌ يفضي إلى نتائج إيجابية أكثر من أي سلاحٍ خشنٍ. فالصابر هو قويٌّ بصبره مهما تبدّا أنه ضعيف، والعَجول هو ضعيفٌ بعجالته مهما تبدّا أنه قوي. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "النصر في الصبر". وكذلك: "الأناة من الرحمن، والعُجالة من الشيطان".

الباب السادس والستون

قوة الصبر

[٦٦]

﴿ ٱلْـَٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

في الآية المتقدّمة، عندما يكون المؤمنون أقوياء، وتكون قوّتهم جليّة للعيان، عندها سوف ينتصرون وفق نسبةٍ عشريّة. الآية المُتقدّمة خَصَّت المؤمنين عندما يكونون أقوياء، فعندها مهما كانت قوّة الأعداء، فإن المؤمن الواحد يغلب عشرة منهم، لأن عامل الصبر قوّة لا يُستهان بها، وهي قوّة يفتقدها الكفّار، كما أنّهم يُستَدرَجون وينغرّون بالظواهر، و﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الجواهر. ودقّة الكلمة هنا يمكن لها أن تعني الإيمان بالغيبيّات، وهذا يرفع من عزيمة المؤمن، في حين أن الكافر لا ينتفع بهذه الخصلة، كونه يفتقد هذه الميزة. وفي معركة بدر وقَعَت هذه الغيبيّات بشكلٍ خارق، وتفاعلت على أرض الواقع. وإلّا كيف لـ ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾؟ فلا بدّ من قوّةٍ خفيةٍ تُساندهم.

﴿ ٱلْـَٔنَ ﴾ - في الوجه الآخر للمُعادلة، أي: عندما يفتقد المؤمنون إلى عناصر القوّة -: ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾. لننتبه جيداً إلى تركيبة الجملة، لم ترد ﴿وَعَلِمَ﴾ أنّكم ضعفاء. وهذا بيانٌ إلهي بأن المؤمن لا يكون ضعيفاً بذاته مهما افتقد عناصر القوّة، وهو يبقى قويّاً بذاته من خلال الإيمان، والصبر على أساس هذا الإيمان، فهو يبقى شامخاً وقويّاً في معنويّاته. لكنه قد يتعرّض لضعفٍ في القوّة المادّية، عندها تخفّ النسبة العشريّة إلى واحدٍ مقابل اثنَين. ففي القوّة المادّية يكون المؤمن قادراً على عشرة كفّار، وفي ضعف القوّة المادّية، يكون قادراً على اثنَين.

وهذا أيضاً عهدٌ من الله تعالى بالنصر. إذن ففي جميع الأحوال، لا يمكن للكافر أن ينتصر على المؤمن، إذا استوفى المؤمنُ شروطَ المُعادَلةِ الإلهيّة، ومن ذلك: نيّة الإيمان الصادقة، العمل الصالح، العزيمة، الصبر. عندها: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾. فتكون الغَلَبة للمؤمنين، ولا تكون للكافرين، وليس بالضرورة أن الواقع المنظور يقول هذا، بل إن الواقع المنظور قد يقول نقيض هذا، لأن شخصاً قويّاً من الصعوبة أن يغلب عشرة أشخاص أقوياء، كما أن شخصاً ضعيفاً من الصعوبة أن يغلب شخصَين قويَّين. فبيَّنَت الآية أن ذلك يحدث: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بعنايةٍ خاصّةٍ من ﴿اللَّهِ﴾. فيمدّ المؤمن الصابر بقوةٍ خفيّة. ثم بيَّنَت وبَشَّرَت خاتمةُ الآية: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. عهدٌ من الله سبحانه وتعالى بأنه لا يتخلّى عن المؤمنين ﴿الصَّابِرِينَ﴾، سواء أكانوا أقوياء، أو كانوا ضعفاء. ولا يدع بأي حالٍ من الأحوال أن يتمكَّن الكافر من غَلَبة المؤمن، وإن حصل ذلك، فيكون المؤمن قد وقع في خللٍ ما في تطبيق شروط المُعادَلة. والآية تبيّن أن لا قوّة بالغاً ما بلغت أن تغلب إنساناً يكون الله قد وعده بأنه يكون معه. فعندما تُغلَب من قِبَل شخصٍ ظالمٍ، فاعلم بأن الله لم يكن معك، وأنّك تسبَّبتَ في ذلك بإخلالك في تطبيق شروط تحقيق وعد الله سبحانه وتعالى. لكن لماذا يحصل هذا؟ فيحدث أن يكون المؤمن ضعيفاً وفقيراً، لكنه يكون صالحاً ومستقيماً، فيسأل الله القوّة والغنى، فيستجيب له الله عز وجل. فإن لبث على صلاحه واستقامته، أدام الله عليه النعمة وباركها له، لكن بعض الناس عندما يتمكَّن، يتغيَّر ويطغى، ولم يعد ذاك الشخص الذي تعرفه، حتى أنك تقول: ليت الله لم يفتح عليه أبواب النعمة، أو المركز الرفيع، لأنه بَطِرَ واستَكبَر، وما عاد صالحاً ولا مستقيماً، بل انقلب رأساً على عقب، فبات يؤذي الناس ويعترض مصالحهم. هنا يكون هذا الشخص قد أخلّ بشروط المُعاهدة بينه وبين الله سبحانه وتعالى، فتركه الله لِما هو عليه، ولا يمدّه بعنايته، ولا يكون معه. وهنا تكون الكارثة، حيث يمكن لأي فيروسٍ بحجم الذرّة أن يفتك به، فيُحرَم من تناول الطعام والشراب رغم الوفرة. وشيئاً فشيئاً يبدأ

بالخسارات والتنازلات، يرضخ حتى للكافر، ويتجرّد من كل شيءٍ، وينتهي نهاية ذليلة رغم أنه مؤمنٌ ويقيم شعائر الإسلام. لكن هذا الانتقال قد غيَّره تماماً بحيث جعله ينتهي إلى ما انتهى إليه ليكون عبرة للناس، حيث إن الشعائر تكتمل بصلاح العمل.

الباب السابع والستون

بين الدين والدنيا

[٦٧]

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾

عندما يتمكَّن الإنسان من الأسر، فذلك يعني بأنه أصبح قوياً، والآية تبيّن بأن النبي صلى الله عليه وسلم، أصبح قوياً بالفعل لدرجة أنه قد أصبح لديه ﴿أَسْرَىٰ﴾، وهو الذي ترك دياره تجنّباً للوقوع في الأسر، فها قد هاجر واغترب وقوي وثخن في المدينة، فبدل أن يؤسَر، غدا يأسِر. وصار ذوو الأسرى يُفاوضونه على تقديم فديةٍ كي يُطلق سراحهم، ويُعاهدونه بأنهم لن يعودوا إلى قتاله ثانية، يُقدّمون له التنازل تلو التنازل حتى يخلي سبيلهم. إذن قد ثخن ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هو عليها الآن. وقد تسأل: مادام الأمر بات واضحاً على أرض الواقع، وظاهراً للعيان، فما المَقصَد من الآية؟ إذا دقّقتَ في كلمات الآية، سترى الإجابة، أولاً أن الخِطاب ليس موجَّهاً للنبي بصفةٍ خاصّة، وهو موجَّهٌ لأصحابه. فاعلموا يا أصحاب محمّد: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. والقوّة هي قوّة عامة بات يتمتّع بها جميع صحابة النبي، ولكنه هو قائدهم ورشيدهم، فهي قوّة لعموم المسلمين. والقوّة يمكن لها أن تُغيّر بعض الناس، فتجعلهم يتعلّقوا بالدنيا، وشيئاً فشيئاً ينسوا الآخرة. وهنا نقطة هامّة تنبه الآية إليها، وهي أن القوّة في هذه الحالة تتحوّل إلى وهن. لماذا؟ لأن الإنسان الذي ما كان يعلم الضعف وهو يخوض غمار الحياة، بات الآن ضعيفاً أمام ممتلكاته، ويريد أن يحافظ عليها، ومن أجل ذلك قد يتنازل عن بعض مبادئه، كون المال يُصبح نقطة ضعفه. تُعالج الآيةُ هذه المسألة البالغة الدقّة والحساسية لدى الإنسان المؤمن، ولذلك جاء الشطر الثاني منها على شكل عتاب من الله عزّ شأنه،

إلى الذين تَوَجَّه إليهم الخِطاب: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾. هنا لا بدّ لنا أن نرجع إلى أسباب النزول، حتى نكون أكثر استيعاباً لهذا الخِطاب الذي يبقى مفتوحاً، ينتفع به الناس في أي وقتٍ من الأوقات، ثم يجعل هذا البيان القرآني الكامن في هذه الآية، منهاجاً لحياته. وذلك حتى لا يريد ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، كل الإرادة، ويقتلعه ذلك من جذوره، فعند ذاك عليه أن يعلم جيداً بأنه بات ضعيفاً، رغم كل مظاهر القوّة التي باتت تحدت يديه، ورهن إشارته. أو أنه أصبح زعيماً وحاكماً، ولذلك ترى أن بعض فاحشي الثراء، يرتكبون آثاماً فاحشة توازي ثرواتهم، لأن الثروة كلّما كثرت، كلّما زاد الخوف على خسارتها، وكلّما زاد التمسّك بها. فتراهم يوسّعون تجاراتهم، ويوظّفون أموالهم ويستثمرونها في الربح السريع الغير مشروع، مثل صَفَقات اللحوم الفاسدة، أو المواد الغذائية النافذة الصلاحية، أو الاتجار بموادٍ مخدّرة، أو صفقاتٍ مع بعض الجماعات المتطرّفة، لتسريب الأسلحة إليها نظير مبالغ كبيرة، أو صفقاتٍ تجارية لتهريب بعض الفارّين من أهوال الحروب الطاحنة في بلدانهم، وتركهم يتعرّضون للأذى من خلال إدخالهم بطرقٍ غير مشروعة. أمّا بالنسبة للحكّام الذين يـ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، فإنهم في ذروة ممارستهم لأعلا صلاحيّات البلاد، يتحوّلون إلى أوهن المخلوقات ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. فلا يرفّ لأحدهم جفنٌ لمجرّد علمه بأن مواطناً ما، ينتقده، فتصوّر له مخيّلته السلطوية المريضة بأن ذاك الشخص سوف يبقى يسعى للإطاحة به، واستناداً إلى هذه التكهّنات المريضة، تراه يبذر الأموال، ويتيح كل الإمكانات كي يغتال ذاك الشخص حتى لو كان قد لجأ إلى دولةٍ أخرى. بل وقد يتابع عمليّة الاغتيال عن بُعد من خلال التقنيات الحديثة. ووسائل أخرى يستخدمها هؤلاء، سواء من أهل المال، أو أهل السلطة، تُظهِر حجم الجبن الذي يبلغونه. ولذلك جاءت الآيةُ تنبيهيّة وتحذيريّة في الآن ذاته: ﴿يدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا﴾. وجاءت كلمة ﴿عَرَضَ﴾، في الوسط لتبيّن بأن كل ما ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وكل ما طلعت عليه الشمس، إنما هو شيءٌ عارضٌ وزائل. وكما أنه يأتي بشكلٍ عارض، فإنه يزول بشكلٍ عارض. ولذلك نرى بأن الله سبحانه وتعالى، لم يبث في شأن الأسرى،

بل ترك الأمر لرسوله، وهو في ذروة قوّته وصلاحيّاته، وقادرٌ أن يفعل بهم ما يشاء. لكن ولكون الرسول هو إنسانٌ طبيعي أكثر من أصحابه، وقد تربّى تربية إلهية أكثر من أصحابه، فلم يبتّ في الأمر البالغ الحساسية. فهؤلاء أقرباء، ولعلّه إذا بتَّ بقتلهم، قد يفور دم أحد الصحابة وهو يرى أحد المسلمين يقتل أخاه، أو قريبه، أو ما شابه. وعلى سبيل المثال بينهم العباس، عم رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وعقيل، ابن عمه وهو في الوقت ذاته، أخو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد ترك لهم الله سبحانه وتعالى الشأن حتى يحلّوا هذا الإشكال. وروي: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب فاستشار أبا بكر فيهم فقال: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، فقام عمر وقال: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم. فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء. فمكن علياً من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان، ينسب له، فنضرب أعناقهم. فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ومثل عيسى في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]. ومثلك يا عمر مثل نوح ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: ٢٦]. ومثل موسى حيث قال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾" [يونس: ٨٨]. ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قول أبي بكر.

روي أنه قال لعمر: "يا أبا حفص" - وذلك أول ما كناه - "تأمرني أن أقتل العباس"، فجعل عمر يقول: ويل لعمر ثكلته أمه، وروي أن عبد الله بن رواحة أشار بأن تضرم عليهم نار كثيرة الحطب فقال له العباس قطعت رحمك.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا تخرجوا أحداً منهم إلا بفداء أو بضرب العنق" فقال ابن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام. فسكت

رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد خوفي. ثم قال من بعد: "إلا سهيل بن بيضاء" وعن عبيدة السلماني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للقوم: "إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم". وروي أنهم أخذوا الفداء، ونزلت هذه الآية فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت، فقال "أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة" لشجرة قريبة منه). وهكذا حُلّ هذا الإشكال، لكن بقي إشكالٌ يمكن أن يُستَحدَث، وهو دخول عنصر المال، ولذلك جاءت الكلمة تحذيرية ودقيقة ﴿عَرَضَ﴾. فتذكّروا بأن هذا المال مهما كثر، فإنه شيء عارض. كالذي يعرض عليك شيئاً فتراه، ثم يعرضه على غيرك، فالمال شيءٌ عَرَضيٌ يُعرَض، وكل إنسانٍ هو عِرضة ليصيبه ﴿عَرَضَ﴾ المال. لكن يبقى الرهان: هل يضعف أمام هذا العرض، أم يبقى محافظاً على قوّته. من الجانب الآخر، تريك الآية وتنبّهك بأن الله قد خلق الناس أحراراً، وأن ترهن شخصاً نظير أن تقبض فدية، فلا يجوز، لأن ذلك من شأنه أن يفتح باباً ارتزاقياً، فيجيز شخصٌ ما لنفسه أن يرهن شخصاً ويدّعي أنه عدو الدين، ثم يطلب فدية أو يقتله. فقال الله معاتباً ما قاموا به من أخذ المال لقاء حرية الأسرى ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾. فما دمتم اتفقتم على إطلاق سراحهم، فافعلوا ذلك دون أخذ الأموال من ذويهم. فجاءت العبارة التبشيرية في الشق الثاني من ذات الجملة: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾. هنا تم حذف ﴿عَرَضَ﴾، لأن ما يكون في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ من ثواب، لا يكون عَرَضيّاً، بل ثابتاً، فلا يمكن أن يخسر الإنسان ما بَلَغه. ولمجرّد دخول الإنسان الجنة، فإنها تلبث دائمة له، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تؤخَذ منه، أو يذهب إلى النار. لكن يمكن أن يحصل العكس، فالذي يكون في النار، يمكن أن يخرج منها إلى الجنة، ولمجرّد دخول الجنة، لن تكون له عودة إلى النار، وعلى هذا النحو، تكون الجنة في ازدياد، وتكون النار في انتقاص،

وذلـك مـن رحمـة الله بعبـاده. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. جـاءت خاتمـة الآيـة عزيـزة وحكيمة بعزّة الله وحكمته، فإن كنتَ فقيراً، لا تحسد الغني، لأن لله تعالى حكمته، فذاك قد اشترى سيارة جديدة وأنيقة، لكنه بعد حينٍ قد يلقى حادثاً ربما لوحده، أو مع عياله، فتكون تلك السيارة كارثة عليه، وذاك قد تبوّأ منصباً رفيعاً، لكن ذلك المنصب قد يُدخله إلى منعرجاتٍ تفسده، وينتهي إلى ما كان بِغِنى عنه. فالله ﴿عَزِيزٌ﴾، عزّته ممتدّة تشمل كل عباده، وهو جلّت قدرته ﴿حَكِيمٌ﴾. له حكمة في شؤون عباده.

الباب الثامن والستون

نعمة المغفرة

[٦٨]

﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ ﴾

على هذا النحو يوجّه الله تعالى المسلمين الأوائل، ويرشدهم ويبيّن لهم الحقائق، وهم يتلقّون التربية الإلهية، ويُصبحون قمماً في الأخلاق والقيم الإنسانية. والإنسان بصفةٍ عامة يحتاج إلى إرشاد الله الذي خلقه، لأنه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. ولمجرّد أنه ترك التصرّف للإنسان، فقد تدخَّلَ المال، وكانت الفدية. فحتى لو دخل أكثر الناس كفراً إلى بيتك، ثم أسرته، هل ستطلب مالاً من أهله حتى تفك أسره، ولعلّه يقابلك بذات الفعل، ويخطف أو يأسر من أهلك ثم يطلب فدية. فهي عملية مُدانة على كل الأوجه، لكن البعض يعمل بها، بل البعض يعمل بِما لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلّم، من رأي عمر بن الخطاب، بقتل الأسرى، أو يعمل برأي عبد الله بن رواحة، بحرقهم بالنار. والذي يعمل بهذين الرأيين، كأنه يقول بأنه كان على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعمل بأحدهما، ولا يعمل برأي أبي بكر. والعتاب في الآية هو للمُقابل الذي تم أخذه، وليس لطريقة التعامل مع الأسرى، فلا يوجد أي عتابٍ في الآية لهذه الطريقة في إطلاق سراحهم، وإذا حصل ذلك دون أخذ الفدية، لعلّهم ما كانوا سيلقون العتاب. والحقيقة فإن النبي عليه الصلاة والسلام، قد أعطى الاجتهاد لأصحابه في شأن الأسرى، فأخذ بأقل الأضرار كحالةٍ إنسانيّة، لأن هؤلاء يمكن أن يتوبوا، ويُصبحوا قوّةً إلى جانب المسلمين، فلماذا يُحرَموا من هذه الفرصة الثمينة، وقد فوَّض الله بالاجتهاد، ولم يُنزل حُكماً بشأنهم. ولذلك ترى في الآية بأن الله لم يُعاقِبهم، بل عاتبهم، فقال جلّ شأنه: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ ﴾. وهذا بيانٌ جليٌ بألّا يكرّروا ذلك مرة

أخرى، لأن الذي يكرّر ذات العمل بعد نزول العتاب، وهذا البيان، يكون قد جعل نفسه ﴿فِيمَا أَخَذْ﴾ عرضة ليمسّه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وليس ﴿عَذَابٌ﴾ فحسب، بل ﴿عَظِيمٌ﴾. ولذلك ترى أن الذين ينتهجون هذا المنهج في أسر الناس، وطلب الفدية، يصيبهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وينتهون نهاية مذلّة خانعة. ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾. ﴿ لَّوْلَا ﴾ أن الله فوَّضكم سابقاً قبل أن تدلوا باجتهاداتكم، بموجب تفويض الله في علاج حال الأسرى: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، والمَس أبلغ من الإصابة، فعندما تقول لشخصٍ: تمسّك النار. أقوى من قولك: تصيبك النار. فيكون ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. على تماسٍ مباشرٍ معه، وجاء البيانُ بشكلٍ مفتوح دون تقييد بأل التعريف، وهو تحذيرٌ لعدم تكرار ما قد حدث.

الباب التاسع والستون
طِيبُ الحلال

[٦٩]

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾

وحتى يبقى الأمر محصوراً في الأسرى، فإن الله يبيّن بأن ذلك لا يشمل ما تحصلوا عليه من أموال الذين يُحارِبونكم، عندما تنتصرون عليهم، وتُلحقون بهم الهزيمة، فكلّ ما يتركونه خلفهم من ممتلكات يكون ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾ لكم. فما مضى، قد مضى، ﴿وَ﴾ الآن، مع فتح صفحةٍ جديدة ﴿اتَّقُواْ اللهَ﴾. كونوا ملتزمين ومداومين على تقوى الله، فهذه التقوى تقيكم من التجاوزات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبكم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم.

الباب السبعون
خير الله

[٧٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

عندما يؤخَذ من الإنسان ماله، فإن ذلك يشقّ عليه، حتى لو كان أسيراً، وفدى نفسه بذلك المال. والآن قد حصل ما حصل، والله يعد الأسرى الذين أُخِذَت منهم الأموال: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾. ﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ما ارتكبتموه من ذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وهذا وعدٌ من الله تعالى، أبلَغَ به رسوله صلى الله عليه وسلم، كي يُبشّر به هؤلاء الذين كانوا أسرى. وقوله: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾. بمعنى: عندما تنزعون الشر من ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾، وتستبدلونه بالخير ﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾، هذا التحوّل ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، حتى لو حصل ذلك في خفيةٍ تامة بينكم وبين أنفسكم، فإن الله يعلم كل تحوّلٍ يطرأ على ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾. والخير هنا، الصلاح، وهو نقيض الشر الذي هو الفساد، والخير كل الخير، ما يدعو الله تعالى إليه، والشر كل الشر، ما ينهى عنه. والله ينهى عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد والإيمان بما أُنزِلَ على رسوله، والعمل بما جاء من تشريعٍ إلهيٍ في هذا التنزيل الحكيم. وعندها يحقّق الإنسان هذه النقلة الكُبرى من الشر، إلى الخير، ومن الفساد، إلى الصلاح. وما دام قد جَنَحَ إلى الخير، فإن الله يؤته ﴿خَيۡرٗا﴾ من أي شيءٍ يخسره في هذا التحوّل الكبير. هذا في الدنيا، ثم ﴿يَغۡفِرۡ﴾ له في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ للمتحوّلين من الشر إلى الخير، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بمغفرته لهم.

الباب الواحد والسبعون
جزاء الخيانة

[٧١]

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

دعوة من الله عز وجل بحسن الظن تجاه الذين يقولون بهذا التحوّل من الشر إلى الخير، فعليك أن تأخذ بالظاهر المُبان منهم، ولا تقول لإنسانٍ مهما أوغَلَ في الذنوب، ومهما كان شريراً، أنّك لا تصدّقه، أو حتى أنك تتردّد في قرارة نفسك من تصديقه، وأنتَ تعلم كل ذاك الشر المروع الذي بدر منه، بل تأخذ بقوله، وتُحسن الظن به، وتُرحّب به، وتستحسن قوله، وتُبارك له هذه الصفحة الجديدة التي فتحها في حياته، وقد طوى صفحة الماضي. الكلامُ هنا موجّهٌ من الله سبحانه وتعالى، إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وهو يُرشده هذا الإرشاد الحكيم: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾، ﴿وَ﴾ هؤلاء ﴿إِن﴾ بَطَنوا الخيانة في قلوبهم، لا عليك يا رسولنا: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أن نُمكّنك منهم، ويُصبحوا ﴿أَسْرَى﴾ لديك: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ﴾ عندما جاؤوا لُمحاربَتك. فالذي قدر أن ينصرك عليهم، ويمكّنك ﴿مِنْهُمْ ۗ﴾، قادرٌ أن ينصرك مرة أخرى، ويمكّنك مرة أخرى عليهم عندما تحصل الخيانة ﴿مِنْهُمْ ۗ﴾. وللمسلمين كافة في رسول الله أسوة حسنة، كي يلبثوا على هذا الإرشاد الإلهي الذي يكمن فيه الخير. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بما يبطنون، ﴿حَكِيمٌ﴾، بما سيجعلهم عليه، وسيجعلكم عليه وفق ما سيكونون عليه، ووفق ما ستكونون عليه.

الباب الثاني والسبعون

ولاية الإيمان

[٧٢]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾

﴿ إِنَّ ﴾ أهل مكّة، وأهل كل ديارٍ في كل زمانٍ ومكان، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بِما أُنزِلَ على مُحَمَّدٍ، ﴿وَهَاجَرُواْ ﴾ معه، أو بعده من مكّة إلى المدينة، أو من أي أرضٍ ضاقَت بهم إلى أرضٍ فيها سعة، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ جعلوا أموالهم وأنفسهم في خدمة ما آمنوا به خالصاً ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ دون أي اعتبارٍ لأي غايةٍ أخرى. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ ﴾ المُهاجرين في المدينة، وفي أي مكانٍ وزمان فيما بعد ﴿وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ ناصروهم على الذين ظلموهم، وآزروهم، وأعانوهم على تجاوز الشدائد. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾، أحبّاء وأهل ﴿بَعْضٍۚ ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في مكّة، أو في أي مكانٍ آخر، وأي زمان: ﴿ءَامَنُواْ ﴾ بِما أُنزِلَ على مُحَمَّدٍ، ولكنهم ما تركوا ديارهم ولبثوا مقيمين فيها، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ ﴾. فلا تتدخّلوا في شؤون ولايتهم، ولا تُخَوّنوهم، ولا تُحَرّضوهم على الذين يَتَولّون أمورهم، حتى لا يقع صدامٌ بينهم وبين ولاة أمورهم. وقد رأينا شيئاً من هذا قد حدث، عندما هاجر بعض المسلمين من ديارهم، وأصبحوا في مأمَن، فلم يعملوا بمضمون هذه الآية، فباتوا يَتدخّلون عن بُعد في مسألة ولاية هؤلاء الذين لبثوا في ديارهم، بل ويُحرّضونهم على ولاة

أمورهم ويتدخّلون في شؤونهم الداخلية، فكانت نتيجة عدم الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى، سلبية عليهم، حيث تم إلحاق الأذى بهم على أيدي ولاة أمورهم، لأنهم أرادوا أن يخرجوا عن ولايتهم استجابة لإثارة المهاجرين لهم. فقد أرشد الله عز وجل إلى علاج هذا الطارئ بإرشادٍ إيجابي يحفظ الأمن للمؤمنين المقيمين. ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ﴾. أمّا إذا هاجروا فذلك أمرٌ آخر، ويكونوا قد خرجوا من ولاية ولي أمرهم، ولم يعد قادراً على إلحاق الأذى بهم. عندها ينضمّون إلى ولايتكم، ويكون بعضكم ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في المَهجَر، دون أن تتدخّلوا من قريبٍ، أو من بعيد في الشؤون الداخلية للماكثين في ديارهم. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾. هنا طَرَأ أمرٌ جديد، ففي منع ولي الأمر من إقامة الشعائر الدينية، أو إغلاق المساجد، أو مصادرة المصاحف من البيوت والمكتبات، ففي هذه الحالة الشديدة الخصوصية التي انحَصَرَت: ﴿فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ بشكلٍ مُقيَّدٍ، وهو: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌۗ﴾. فحينها لا إجازة شرعيّة لكم بالتدخّل في شؤونهم الداخلية مع ولاة أمورهم. فهؤلاء ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. وجاءت ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ شاملة كل ما يمكن أن يطرأ من أساليب التدخّل عن بُعد، ومنها إعلاميّاً، لأن ذلك يكون بمثابة تدخّل في شؤون ﴿وَلَـٰيَتِهِم﴾. فإمّا أن تبقى في ديارك وتُعالِج المُستَجدّات وفق المُتاح فيما بين بعضكم البعض، أو لا تتدخّل في الشؤون الداخليّة لبلادك التي هاجرتَ عنها، لأن ذلك يلحق الضرر بأهل الديار، وأنتَ تُحرّض الناس على ولي الأمر من ملجئك الذي لجأتَ إليه. وقد تبيَّنَت الحكمةُ من هذه الآية، لأن هذا التدخّل يجعل بعض المُعادين لدولتك أن يؤازروك ويجنّدوك، كون مصالحكما اشتَرَكَت معاً. ثم إن دولة أخرى معادية للدولة التي أنتَ فيها، تُجنّد كذلك لاجئين من دولتك، وهكذا تتدخَّل الدول، ويكون لكل دولة فصيلها في الخارج، وكذلك في الداخل، وتبدأ الإمدادات ويقع التناحر بين أبناء الشعب بحسب الفصائل التي ينتمون إليها. كل هذا وأنتَ

بعيدٌ وتكتفي بالتحريض والتأجيج عن بُعد، وتنام في سربك مع عائلتك آمنين، وكلّما ازداد التناحر بين أبناء شعبك، ازددتَ تحريضاً وتأجيجاً من خلال وسائل الإعلام. وجاءت خاتمة الآية تحذيرية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من طاعةٍ لأمره، أو معصية لأمره ﴿بَصِيرٌ﴾. واسم الله الحَسَن هنا جاء أكثر قرباً إلى أجواء الآية ﴿بَصِيرٌ﴾. يراكم ويبصركم، رغم أسماء الله الحُسنى الكثيرة التي يمكن لها أن تُعبّر عن المعنى، ولكن الله أراد أن يذكر ﴿بَصِيرٌ﴾، وهو الأكثر استشعاراً، فالبصر هنا يقع عليك بشكلٍ مباشر، ولعلّه يردعك عن التجاوز. وجاء البصر هنا نظير البُعد، لأن المُهاجِر يكون بعيداً عن موطنه، فأينما كنت اعلم بأن الله يبصرك.

الباب الثالث والسبعون

ولاية الكفر

[٧٣]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾

تبيّن الآية مدى تأثير الولاية على الإنسان، فالولي الصالح، ينشر الصلاح في قومه، والولي الفاسد، ينشر الفساد في قومه. والناس يتأثّرون بشخصيّة الوالي عليهم، ولذلك يمكن للولاية أن تؤدّي دوراً فعّالاً حتى في مُعتَقَدات الإنسان، سواء السلبية، أو الإيجابية. وما أخبَرَت به الآية الكريمة، هو أمرٌ واقعٌ، وإذا نظرنا إلى هذه الفترة التي اضطرّ فيها كثيرٌ من اللاجئين المسلمين إلى اللجوء لبلاد الغرب، نرى أن هذا الانتقال ترك أثراً سلبياً حتى على إيمان البعض، فبدا كما لو أنه اقتُلِعَ من جَذره، فبدأت الظواهر السلبيّة تتفشّى لدى كثيرٍ من اللاجئين المسلمين إلى دول الغرب، حيث تفَكّكَت عائلاتٌ كثيرة كانت مُتماسِكة مع بعضها البعض، تشرّد جيلٌ مسلمٌ من الشباب في ديار الغرب، وأصبحوا عالّةً على دول الغرب، حيث يستهلكون ولا ينتجون، يعيشون على الإتاوات التي يتلقّونها من أهل الغرب. وإذا استمرّ الإنسان عدّة سنوات مُستهلكاً فقط، دون أن يكون مُنتجاً، يشعر بالإحباط، ولذلك تفشَّت فيهم الظواهر السلبيّة، مثل توجيه الانتقادات إلى عقيدتهم، أو التخلّي عن التزاماتهم العقيديّة، أو الاستسلام للمجون، أو الانتماء إلى جماعاتٍ متطرّفة، أو بعض الأمراض النفسية والعصبية، أو تخلّي أب عن عائلته، أو تخلّي أم عن عائلتها، وما إلى ذلك من مفرزات التفكّك النفسي، والاجتماعي. ونظير ذلك نرى أن كثيراً من غير المسلمين الذين أتوا بحكم العمل إلى بعض الدول الإسلامية، وبعد عدّة سنواتٍ، تأثّروا بالمُعتَقَد الإسلامي، وحميميّة العلاقات الاجتماعية الإسلامية، وكل

ما يرسّخه الإسلام في شخصيّة الإنسان المسلم من القِيَم، والأخلاق، وصِلة الرحم، والعفاف، والاستقرار النفسي. فاعتنقوا الإسلام، وتبدّلَت حياتهم الاجتماعية برمّتها. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، فهؤلاء يكونون ولاة على ﴿بَعْضُهُمْ﴾ الـ ﴿بَعْضٍ﴾. وعلى المؤمن أن يتجنَّب ولايتهم. ويجوز أن تتفرّع الولاية أيضاً لتكون فرديّة، فألّا تدع كافراً يتولّى أمر أولادك في عملٍ، لأن مدير العمل قد يترك أثراً على شخصيّة العامل لديه. وعبارة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، مفتوحة الآفاق، فقد يكون هذا الكافر من المسلمين أنفسهم في الظاهر، حيث يكون مسلماً من خلال انتمائه إلى عائلة مسلمة، ولكنه في جوهره يكون كافراً. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾، تأخذوا هذا البيان الإلهي بعين الاعتبار، وتعملوا به ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يقع الافتتان بينكم وبين الكفار الذين ولّيتموهم أموركم، وتتشرذمون في متاهات الفتنة. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، ثم ينجم عن هذا الافتتان. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. يأتي على الصلاح الذي أنتم عليه، ويقتلعه في قلوبكم فتصبحون بقلوبٍ فاسدة.

الباب الرابع والسبعون

الإيمان الحق

[٧٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ ما ضعفوا أمام ولاية، أو مغريات ﴿الَّذينَ كَفَرُواْ﴾، فلبثوا متمسّكين بإيمانهم ﴿وَهَاجَرُواْ﴾، تركوا أرض الفتنة والفساد، إلى أرضٍ طيّبةٍ صالحة. ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ بالعمل، والإنتاج، والعَمار، ونشر الصلاح ﴿فِي سَبِيلِ﴾ إعلاء كلمة ﴿ٱللَّهِ﴾. كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ استقبلوا إخوانهم المسلمين، وأمّنوا لهم المأوى، ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾، أصبحوا أنصاراً لهم، آزروهم ووقفوا إلى جانبهم، وما تخلّوا عنهم في محنتهم وهجرتهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾. وهذه شهادة من الله تعالى بحقيقة إيمان هؤلاء ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾. فقد ساواهم الله في مرتبة الإيمان، فهؤلاء يعدهم الله بأن ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، يغفر الله ﴿لَّهُم﴾ ذنوبهم، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾. ويجوز أن يكون نظير ذلك بأن الرزق الذي يتلقّاه المسلم من خلال ولاية الكفار عليه هو ﴿رِزْقٌ﴾ غير ﴿كَرِيمٞ﴾. فهؤلاء الذين أحسنوا الوجهة، وأحسنوا الهجرة، والذين أحسنوا إيواءهم ونصرهم، يكرمهم الله تعالى بـ ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، إلى جانب ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم. وبذلك يكونون فائزين حقيقيين في الدنيا، والآخرة. وهنا أُضيفَ الكَرَمُ الإلهي إلى الرزق، لأن الفريقَين قد تضرّروا مادّياً، فالأول، ترك دياره ورزقه، والثاني، أنفق من ماله في المأوى والنصر، فكان أن أكرمهم الله تعالى بمغفرة ما ارتكبوا من ذنوب، ومحاها عنهم، ثم أغدق

عليهم بـ ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. ولا يقتصر ذلك على المال فقط، بل على كَرَم الله عز وجل، بعلاقاتٍ اجتماعية صالحة، علاقات نسابة صالحة، مهنة صالحة، صحة نفسية وبدنية صالحة، تربية صالحة للأبناء. فما لدى هؤلاء من خبرات تتكامل بخبرات أولئك، فيتحوّلون إلى عائلة كبيرة واحدة، كما حصل للمهاجرين والأنصار، حيث ازدهر الاثنان معاً.

الباب الخامس والسبعون

خامة الإيمان

[٧٥]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ ما ﴿ءَامَنُواْ﴾ بما جاء في القرآن، ولكنهم مع الزمن والوقائع، ثبت لهم أنه الحق، فهداهم الله و﴿ءَامَنُواْ﴾، وشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله الخاتم، ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ كفرهم، فكل ما بَدَرَ منهم أصبح ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾. وقد انقطعت الصلة بينهم وبين ذاك الماضي الذي كانوا عليه، ﴿وَهَاجَرُواْ﴾، إلى حيث هاجرتم ولحقوا بكم، ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ حق الجهاد، بكل ما استطاعوا من إنتاج، أو أعمال، أو دفاع، وأصبحوا قوّة فعليّة ﴿مَعَكُمۡ﴾، على أرض الواقع، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أصبحوا ﴿مِنكُمۡۚ﴾، لا تفرّقوا قط بينكم وبينهم، فما لكم، لهم، وما لهم، وما عليكم، عليهم. فهذا تلاحم الإيمان. فذلك كله يكون حكمه ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ الهجرة النبوية. فكل مؤمن ومهاجر ومجاهد في أي زمانٍ ومكان، يكون مع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين الأوائل ومنهم، كونه لحق بهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾. وقد يؤمن الإنسان، فلا تكون ثمة ضرورة للهجرة، فلا يهاجر، فعند فتح مكة، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لا هجرة بعد اليوم". أي ما عاد المسلم يفرّ من الكافر إلى ديارٍ غير إسلامية، وفي حدوث حالاتٍ طارئة، يمكن أن يلجأ إلى إخوانه المسلمين في ديارٍ إسلامية أخرى. فبعد فتح مكة، بدأت ولادة الدولة الإسلامية التي ستمتد وتشمل مختلف بقاع الأرض، فإن ضاقت بمسلمٍ في أرض، وجد سعةً في أرضٍ

إسلاميةٍ أخرى. والمسلم الذي يرفض استقبال المسلم وإيوائه ومؤازرته عند حدوث المحن والكوارث، يكونه إيمانه في خلل، وعليه أن يُراجع ثوابت إيمانه.

ومَن يتخلّى عن أخوّة إيمانه مع المؤمنين، يكون قد اختار ألّا يكون أخاً للمؤمنين، ولا يكونوا أخوة له، ثم اختار بأنه لا يكون من الذين شهد لهم الله سبحانه وتعالى، في الآية السابقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

الأمر الآخر، هو أن الخير يحلّ على البلاد التي تستقبل المُتَضَرّرين والفارّين من ويلات الحروب، وكذلك يحلّ على البيوت التي تُحسن استضافة هؤلاء، وتأويهم، وتؤازرهم.

فهؤلاء عباد الله الذين انقَطَعَت بهم السُّبل، ولبثوا في العراء دون مأوى، يواجهون مع أطفالهم، ونسائهم، وشيوخهم، ومرضاهم، صَقيعَ الشتاء، ولَهَبَ الصيف، وقد نزحوا على شكل أفواجٍ هَرَباً من آلة الحرب الطاحنة، ومن الانفلات الأمني.

تذكِّر الآية المؤمنين بقوة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾. ولذلك ترى الخيرات الكثيرة تحلّ على المجتمعات التي تحسن استضافة اللاجئين، وذلك وفاءً لوعد الله معهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾. فإن تؤازر مؤمناً في محنةٍ، يُضاعف لك الله الثواب، ويغفر لك ذنبك، ويغدق عليك بوافر الرزق الكريم.

إذن، هؤلاء وبعد أن يستقرّوا بعض الشيء، لن يلبثوا جالسين، عاطلين عن الإنتاج، مستهلكين، وتربيتهم الإيمانية تجعلهم لا يقبلوا على أنفسهم ذلك، فيبذلون قصارى جهدهم حتى يعملوا معكم، وينخرطوا في مجالات الإنتاج والعَمار والازدهار، لأنهم لم يأتوا من صحراء، بل من مجتمعات، ولديهم خبرات، وكفاءات، ومزايا، وحِرَف. فتزدهرون معاً حتى يفرِّج الله عنهم، ويعودوا إلى بلدانهم، ثم بعد ذلك قد تلجأوا أنتم إليهم.

تبيّن الآية بأن المُهاجرين والأنصار الأوائل، قد أسّسوا لقوّة هذه العلاقة

الإيمانية، فقد طَلَعَ بدرُ الإيمان على مدينتهم، واستناروا واستنارَت مدينتهم بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، ثم بتتمّة رسالة الله الخاتمة إلى العالمين فيها، فآمنوا، وصلحوا، وآزروا، وأصبحوا من العلامات الفارقة في التاريخ البشري، وأصبحت مدينتهم منوَّرة تستقطب أفواج الناس من كل أصقاع الأرض، أكثر من أي مدينةٍ أخرى. فهؤلاء قد أسّسوا لهذا التلاحم الإيماني الكبير بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك يعود الفضل لهم في استمرار هذه العلاقة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة". في الجملة التالية من هذه الآية الأخيرة، قال الله عز وجل ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾. لعلّ أصل ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾، هو رحم المرأة، ويجوز أن يتفرّع الرحم في الآية إلى رحم المؤمنين بعضهم لبعض من خلال صلة رحم إيمانية، فتشعر بصلة رحم إيمانية بينك وبين أي مؤمن، ويشعر كذلك تجاهك. ﴿وَأُو۟لُوا۟﴾، أي أصحاب ﴿ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾، فالأولويات تكون بين ﴿بَعْضُهُمْ﴾، ﴿بِبَعْضٍ﴾. فإن وسّع الله عليك، تؤازر وتعين مَن يكون في ضائقةٍ، وإن وقعتَ في ضائقةٍ، آزرك وأعانك مَن وسّع الله عليه، في تلاحم وتعاضد وتماسك علاقة رحمية إيمانية بين المؤمنين جميعاً. فعندما يتولّى ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ شؤون ﴿بَعْضُهُمْ﴾، ﴿بِبَعْضٍ﴾، يستغنوا عن طلب الإغاثة من غير المسلمين، لأن طلب الإغاثة من غير المسلمين، من شأنه أن يفتح باباً أوليّاً للتدخّل في شؤون البلاد الإسلامية الداخلية. فتوجّه الآية الكريمة بمعالجة هذه الطوارئ فيما بين المسلمين، لأن ذلك هو حكم الله، وذلك هو إرشاد الله الذي ينتفع به المسلمون ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾، أي في تشريع الله.

ثم انتهت الآية والسورة معاً بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾. وهو

علمٌ بما مضى، وما هو حاضر، وبما يكون في المستقبل. فلا يجوز التذرّع بأي ذريعة، لأن الله يعلم الحقائق، وقد شرّع هذا التشريع الحكيم عن علم بما تكونون فيه. وهو التشريع الأكثر نفعاً للناس.

تم بفضل الله تعالى في مدينة أربيل

السيرة الذاتية

المؤلف:

عبد الباقي أوسو يوسـف

ولد في مدينة الحسكة السورية سنة ١٩٦٤.

من مؤلفاته الأدبية:

١- دِيــن - رواية - دمشق ٢٠٠٤.

٢- خلف الجدار - رواية - دمشق ٢٠٠٧.

٣- إمام الحكمة (سيرة لقمان الحكيم) - رواية - الكويت، عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٢٠١٠.

٤- هولير سدرة العشق - رواية - أربيل ٢٠١٥.

٥- سيمفونية الصمت - قصص قصيرة - دمشق ١٩٨٩.

٦- طقوس الذكرى - قصص قصيرة - دمشق ١٩٩٢.

٧- غيوم من الشرق - قصص قصيرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٦.

٨- طريقة للحياة - قصص قصيرة - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٧.

من مؤلفاته العلمية:

٩- فقــه المعرفــة - دمشق، بيروت ٢٠٠٤.

١٠- إسلام ومسلمون وفقهاء - حلب ٢٠٠٤.

١١- عالم الكتابة القصصية للطفل - عن وزارة الثقافة والإعلام (سلاسل العربية الرياض ٢٠١٠.

١٢- حساسية الروائي وذائقة المتلقي - عن وزارة الثقافة والإعلام (سلاسل العربية الرياض ٢٠١٢.

١٣- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن - الاتحاد الإسلامي الكردستاني - أربيل ٢٠١٤.

١٤- فضيلة العفو في السيرة النبوية - جامعة الملك سعود - الرياض ٢٠١٥.

١٥- (القرآن الكريم - الفاتحة، البقرة، آل عمران، النساء، المائدة) التحليل الروائي - أربيل ٢٠١٦.

١٦- (القرآن الكريم - الأنعام، الأعراف) التحليل الروائي - أربيل ٢٠١٨.

فهرس المحتويات

سورة الأنفال ٣
مقدمة ٩
الباب الأول: قواعد الإيمان ١٩
الباب الثاني: وجل القلوب ٢٣
الباب الثالث: فضيلة الإنفاق ٣٥
الباب الرابع: الإيمان الحق ٤٧
الباب الخامس: الخروج من البيت ٥١
الباب السادس: البيان والجدال ٥٧
الباب السابع: ورود الحياة وأشواكها ٦١
الباب الثامن: صوت الحق ٦٩
الباب التاسع: الاستغاثة والاستجابة ٧١
الباب العاشر: البشرى والطمأنينة ٧٣
الباب الحادي عشر: الرباط والثبات ٧٦
الباب الثاني عشر: بين الضرب والقتل ٨٤
الباب الثالث عشر: عقاب الله ٩٦
الباب الرابع عشر: جزاء الكفر ٩٧
الباب الخامس عشر: مواجهة المعتدين ٩٨
الباب السادس عشر: جزاء الهروب من المُعتَدين ٩٩
الباب السابع عشر: رمية الله ١٠١
الباب الثامن عشر: وهن الكفر ١٠٦
الباب التاسع عشر: فتح الله ١٠٧
الباب العشرون: الطاعة والاستجابة ١١٢

الباب الواحد والعشرون: التفاعل مع سماع الحق ١١٣
الباب الثاني والعشرون: العقل والتعقّل ١١٤
الباب الثالث والعشرون: فُقدان الخير ١١٨
الباب الرابع والعشرون: تقلّب القلوب ١٢٠
الباب الخامس والعشرون: اتّقاءُ الفتنة ١٢٣
الباب السادس والعشرون: ذِكرُ النِّعمَة ١٢٧
الباب السابع والعشرون: براثن الخيانة ١٣١
الباب الثامن والعشرون: فتنة الأموال والأولاد ١٣٤
الباب التاسع والعشرون: ثواب التقوى ١٣٦
الباب الثلاثون: مَكرُ الشر ومَكرُ الخير ١٣٨
الباب الواحد والثلاثون: التَّعنّت ١٤٢
الباب الثاني والثلاثون: التمادي في العصيان ١٤٤
الباب الثالث والثلاثون: تأجيل العقاب ١٤٨
الباب الرابع والثلاثون: ولاية التقوى ١٥٣
الباب الخامس والثلاثون: الصلاة المزدوجة ١٥٦
الباب السادس والثلاثون: الحسرة ١٥٨
الباب السابع والثلاثون: الميزة بين الخبيث والطيب ١٦٢
الباب الثامن والثلاثون: فرصة التوبة ١٦٥
الباب التاسع والثلاثون: شروط القتال ١٦٨
الباب الأربعون: ضبط النفس ١٧٢
الباب الواحد والأربعون: استحقاقات أموال الخزينة العامة ١٧٣
الباب الثاني والأربعون: وعد الله ١٩١
الباب الثالث والأربعون: مكرمة الرؤيا ١٩٥
الباب الرابع والأربعون: أسباب الله في قضاء أمره ١٩٩
الباب الخامس والأربعون: الثبات والإكثار من الذكر عند الشدائد ٢٠٢

الباب السادس والأربعون: آفة التنازع ٢٠٤
الباب السابع والأربعون: البَطَر والإراءة ٢٠٦
الباب الثامن والأربعون: زينة الشيطان ٢١٢
الباب التاسع والأربعون: عدم التأثر بأقاويل المغرضين ٢٢٢
الباب الخمسون: حصاد الشر ٢٢٦
الباب الواحد والخمسون: عدل الله ٢٢٩
الباب الثاني والخمسون: الأخذ بالذنوب ٢٣٠
الباب الثالث والخمسون: التغيير والتغيير ٢٣٢
الباب الرابع والخمسون: جزاء الظلم ٢٣٣
الباب الخامس والخمسون: شر الكفر ٢٣٦
الباب السادس والخمسون: نقض العهد ٢٤١
الباب السابع والخمسون: التثقف والذكرى ٢٤٢
الباب الثامن والخمسون: النبذ ٢٥٧
الباب التاسع والخمسون: الحسبة الخاطئة ٢٦٩
الباب الستون: غاية الإعداد ٢٧١
الباب الواحد والستون: كفة السلم ٢٧٧
الباب الثاني والستون: المؤمنون والمخادعون ٢٧٨
الباب الثالث والستون: ألفة القلوب ٢٨٠
الباب الرابع والستون: حسبة الله ٢٨٣
الباب الخامس والستون: حماية المُنجَز ٢٨٤
الباب السادس والستون: قوة الصبر ٢٩٠
الباب السابع والستون: بين الدين والدنيا ٢٩٣
الباب الثامن والستون: نعمة المغفرة ٢٩٨
الباب التاسع والستون: طِيبُ الحلال ٣٠٠
الباب السبعون: خير الله ٣٠١

الباب الواحد والسبعون: جزاء الخيانة ٣٠٢
الباب الثاني والسبعون: ولاية الإيمان ٣٠٣
الباب الثالث والسبعون: ولاية الكفر ٣٠٦
الباب الرابع والسبعون: الإيمان الحق ٣٠٨
الباب الخامس والسبعون: خاتمة الإيمان ٣١٠
فهرس المحتويات ٣١٧